

حياة المفكرين والأدباء والفنانين .. بأقلامهم

التفكير



سلسلة شهرية تصدر من دار الهلال



KITAB
AL-HILAL

الاصدار الاول
يونيو ١٩٥١

بكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة
عبد الحليم حمزة نائب رئيس مجلس الإدارة
مركز الإدارة

دار الهلال ١٦ ش محمد عز العرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٦٦ - شوال - فبراير ١٩٩٨ No. 566-FE-1998

فاكس FAX-3625469

مصطفى بي بي بي رئيس التحرير
عادل عبد الصمد سكرتير التحرير

٥ قرش

١٥٠٠ فلس - السعودية ١٥ ريالاً -

سلطنة عمان ١٠٥ ريال

التكوين

**حياة المفكرين والأدباء والفنانين ..
بأقلامهم**



دار الهلال

الغلاف للفنان

حلمى التونى

تقديم

يتناول هذا الكتاب نخبة متنوعة من الشخصيات المتألقة فى مجتمعنا ذات الاسهام البارز فى حياتنا الفكرية.. تقدم تجربتها ورحلة حياتها الثرية من خلال الحديث عن تكوينها، فهم يستدعون الصور المتناثرة من هنا وهناك لنقترب من حياتهم ، ونتعرف على ملامح عصرهم ونشاهد كيف كان التكوين الفكرى والثقافى لكل منهم، وإلى أى المدارس ذهبت هذه النخبة، وعلى أى الاساتذة تتلمذت؟ وماهى الفنون التى شكلت ذوقها وحسها الجمالى؟ وماهى الكتب التى تأثرت بها؟ .

نضع هذه التجارب الثرية أمام الاجيال الشابة لعلها تكون هاديا لهم، وما أحوجنا أن نقرأ ونتعرف على طريق التفوق والنبوغ، طريق العمل الجاد المثمر الذى يكمل بالنجاح والتميز..

فهذه تجارب لنخبة كافحت وناضلت وتفوقت وأصبحت لها بصمات مهمة فى حياتنا الثقافية والعلمية، وهى مجموعة من الشخصيات تمثل فكر وثقافة هذا العصر الذى نعيش فيه ولكنهم تتلمذوا وتعلموا فى مناخ. يختلف عنا ، له سماته الخاصة.. شربوا من معين واحد تقريبا..

تغذوا في الصبا بقصص تدور حول معنى المعاناة،
والشموخ ومراعاة كرامة العلم وأهمية الدين .
رحلة هؤلاء الكتاب والمفكرين خلال الخمسين سنة
الماضية في مجالات الفكر والفلسفة والثقافة والعلوم
والفنون والآداب والتدريس في الجامعة .
كيف أحبوا اللغة العربية واللغات الأجنبية ؟ ، كيف كان
للمكتبة أثرها في أن تكمل دور المدرسة والجامعة، لتكتمل
رحلة ابداع هؤلاء وتتيح لهم فرصة الاطلاع على الابداع
العربي الحديث والقديم ، وعلى روائع الأدب العالمي في
لغتيه الأصليتين: الانجليزية والفرنسية أو مترجما من
إحداهما .

مرحلة الصبا وأهميتها في تأسيس الهيكل الأساسي
للتلقي، تنمية حب اللغة وهي الأساس لبزوغ الحس
اللغوي عند هؤلاء جميعا .

تعرفوا على قراءة الأدب، ثم القراءة على اطلاقها،
استكشاف محمود لقدراتهم وهوياتهم فكانت خبرة القراءة
ومازالت هي رحلة خارج المكان ،، ليس لها صفحات محددة
سوى إنها مشرقة ورحبة ..

فالقراءة كانت طريقا إلى عالم متكامل يكتفى بذاته،
عرفوا طريقها مبكرا منذ فترة المراهقة، وظلوا على ذلك

طوال هذه السنين.. كل مافى الأمر أن بعض خصائصها وأحوالها، ازدادت مع الأيام وضوحا واستقراراً، فازدادوا تمكنا منها.

وفى شرح الشباب كانت لديهم قدرة على الاختيار، فاخترأوا كما أرادوا لا كما أريد لهم فى وقت كانت مصر فيه تموج بتيارات الفكر الاجتماعى، والسياسة تغطى الساحة من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار، وكان العالم كله يضطرب بتيارات مماثلة، إذ كان يعيد ترتيب أموره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وكان نصيب مصر من تلاطم هذه الأمواج وفيرا، لأنها جمعت بين طليعة مثقفة طموحة وأحزاب تتصارع بأساليب مختلفة .

فى هذه الفترة زادت الصحف زيادة ملحوظة ونشط الأدب السياسى نشاطا ملحوظا أيضا، ونشطت الحركة الثقافية بوجه عام برموزها العظيمة مثل طه حسين - العقاد - المازنى - محمد مندور - أحمد حسين - عبدالله عنان - توفيق الحكيم - سليمان حزين - سهير القلماوى .

فالكل عاش طوال النصف الثانى من الأربعينيات ولم يكونوا بمعزل عما يجرى حولهم ففتحووا نوافذهم، فكانت الأحداث تمسهم على أكثر من مستوى ، تضطرم نفوسهم

بالأفكار والتيارات ، فكانوا فى حالة مخاض يمضى الى
الابداع الجماعى والفردى .

كل ذلك من خلال رحلة حياة هؤلاء الكتاب والمفكرين
والسياسيين الذين قدموا لنا روافد تكوينهم الثرية ،
نتعرف على النظام الفكرى الذى كان سائداً فى فترة
تكوينهم حيث كانت الجمعيات والنوادر الثقافية تزداد ،
وتقدم زائداً من المعرفة يشجع كل ذى موهبة .

الجو العام فى المدارس يوحى بالثقافة ، حيث كان
هناك العديد من الجمعيات من جمعية للشعر ، وأخرى
للأدب ، وثالثة للتمثيل والموسيقى والصحافة .. إلخ .
كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت وكانت
الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية .

قدموا لنا من خلال تكوينهم دور المدرسة التى كانت
علاقة تحول فى حياتهم عرفوا فيها كيف تكون رسالة
المدرسة ، وعرفوا فيها حلاوة التفوق والأثر البعيد
للعناية والجزاء والتقدير .. عرفوا الدراسة والتحصيل ،
تدربوا على التعاطى فى العلم والعكوف على المعرفة ،
فامتألت حياتهم بالقراءة والكتابة والنودة والقيم الجادة .
تعرفنا من خلال رحلتهم على منهجية الصداقة الراقية ،
صداقة خالصة لوجه الفكر والمعرفة والذوق الرفيع ،

فتكوّنت المدارس الأدبية والصالونات الثقافية والتي
أرست مناهج الفكر وامتدت لتشمل الفكر والأدب والشعر
والعلوم والموسيقى والفنون.

ولا يسع القارئ إلا أن يلاحظ أن هذه الشخصيات
من أجيال متقاربة وأن تجاربها عندما توضع كل واحدة
منها الى جوار الأخرى تقدم صورة حية نابضة للحياة
الاجتماعية والثقافية والسياسية في مصر خلال القرن
العشرين.

وهذا الكتاب هو الجزء الأول من التكوين ، وسنوالى
نشر الأجزاء الباقية من التكوين إن شاء الله لما فيه من
الخير لناشئة هذه الامة وأدبائها جيلاً بعد جيل.

ولا يفوتنى أن أشكر د. أحمد عبدالله الذى ألح على
نشر هذا الكتاب لما رأى فيه من فائدة للشباب وهو المهتم
اهتماماً حقيقياً بالشباب ، ودائم الدعوة للاهتمام
بقضاياهم ..

شكرى محمد عياد

مادام الحديث عن «التكوين» فلأحاول أن أتجنب أسلوب السيرة الذاتية أعنى أنى سأقاوم ما استطعت ذلك الميل الطبيعى إلى إعطاء «تأثير» معين عن نفسى . إذا كنت قد قرأت «الاعتبار» لأسامة بن منقذ أو «التعريف» لابن خلدون فستفهم قصدى بدون حاجة إلى شرح كثير . أما إذا كان هذان الكتابان لم يمرا عليك بعد فإنى أختصر لك المعنى فى كلمات قليلة . كان أسامة وابن خلدون يقرران وقائع مرت بهما ، فى حياد المؤرخ ، ولا يتخذان موقفاً من القارئ ، ولا يحاولان أن يستميلاه إلى موقف . من الصعب جداً فى أيامنا هذه ، أن تكتب بهذا الأسلوب . ولكنى سأحاول .

لماذا أحاول تلجيم انفعالاتى وإخضاع ذكرياتى لهذا النظام الصارم؟ أصارك القول إنى صممت أولاً أن أكتب عن مسلكى فى الحياة لأتطرق منه إلى الكلام عن تعليمى وقراءاتى ومنهجى فى التفكير .. فالتكوين العقلى وحده لا يصنع الإنسان . وكم من الناس فى بلادنا لم يتعلموا كثيراً فى المدارس - أو لم يتعلموا أصلاً - ولم يتح لهم

أن يقرأوا الكثير من الكتب أو لم يألّفوا القراءة يوماً ، وهم لا شك يفكرون ، لأنهم بشر يملكون عقلاً ، ولكنهم لا يفكرون فى تفكيرهم ، أى أنهم لا يملكون منهجاً . فهل تسقطهم هذه النواقص مجتمعة من حساب الإنسانية ؟ عندى أن إرادة الوجود هى ما يصنع الإنسان . وإرادة الوجود ليست إرادة الحياة فحسب . بل قد تكون إرادة الحياة ، مجرد الحياة ، مناقضة لإرادة الوجود ، إرادة الوجود تعنى شعور الإنسان بذاته ، ومحاولته المستمرة لتشكيل مصيره - وهذه الإرادة هى التى تصنع - بين ما تصنعه - التعليم والقراءة ومنهج التفكير .

الثقة بالله

ودون أن أنزلق إلى شيء من الترجمة الذاتية ، أقول إن هذا الاقتناع قد نما معى منذ وعيت . لقد نشأت فى أسرة ريفية متوسطة ، وامتلات حياتى ، مثل ملايين المصريين ، بالخاوف والمكاره ، وأنا الآن ، على عتبة السبعين ، أتذكر كم وقفت على حافة العوز أو المرض أو الجنون أحياناً ، وكما حاق بى من ظلم ، وأحسب أنى ، فى هذا كله ، مثل ملايين المصريين أيضاً . ولكننى تعلمت من هذه التجارب أشياء :

تعلمت أولاً أن أثق برحمة الله . وبلغت من هذه الثقة حداً أوشك أن يوقعنى فى الهلاك ، لا أعنى الإسراف فى الاتكال ، بل أعنى الوهن بأن الله يولبنى ، أنا بالذات ، عناية خاصة ، كأن له غرضاً من الإبقاء على

حياتى ، أو تخليصى من محنة ، أو - حتى - عقابى على خطأ ارتكبته .
وما أنقذنى من هذا الغرور المويق إلا آيتان كريمتان : «فأما الانسان إذا
ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر
عليه رزقه فيقول ربى أهانن» كان ذلك الوهم واحداً من الخواطر المجنونة
التي خالجتنى فى بعض الأوقات ، وأحسبنى ما كنت أستطيع أن أمضى
فى الحياة لولا الشعور المبهم بحضور شخصى لله فى حياتى ، ولكن
ذلك الشعور لو بلغ حد الاعتقاد بأن الله أفردنى باللفظ من دون سائر
خلقه لفسدت على حياتى أيضا . هكذا تعلمت أن الاعتدال - حتى فى
عاطفتى الدينية - يجعلنى أقرب إلى الله .

وتعلمت ثانيا أن الصبر هو أس الفضائل كلها . «واستعينوا بالصبر
والصلاة» فمرتبته فى الأخلاق كمرتبة الصلاة فى العبادات ، ولا أعنى
بالصبر مجرد احتمال الأذى ، فذلك وجه واحد من وجوه الصبر ، ولعله
أقلها شأنًا ، فأما أعظمها وأكرمها فالصبر على قضاء الحقوق ،
والسعى فى طرق الخير ، وانتظار حسن العاقبة وإن طال المدى ، ولا
أقول إنى بلغت من هذه الفضيلة ما أتمنى أن أبلغه ، فربما جزعت للأمر
الهيّن ، وربما غضبت حيث لا موجب للغضب ، وربما أذهلنى الشرّ
الظاهر عن رؤية الخير الباطن ، وربما عجزت عن تصحيح الخطأ وعن
التسليم به فلجأت فى مقاومته إلى الضحك المدوى ، أو السخرية المريرة
وما أدرى إن كانت هذه الخصلة جديرة بأن تعد من الصبر .

وتعلمت ثالثاً - وكان هذا أصعب ما تعلمت من دروس - أن أشفق على من يظلمنى . ولعل أول مرة شعرت فيها شعوراً حقيقياً وحاداً بالظلم كانت يوم أن صفعنى أبى أمام أغراب ، ولم أكن صغيراً ، كنت قد جاوزت الرابعة عشرة ، ولم يكن من عادته أن يضربنى ، بل لا أذكر أنه ضربنى قبل هذه المرة إلا مرة واحدة وأنا طفل صغير ، وكانت صفة على الوجه أيضاً ، لم أحتملها فوجدت نفسى ملقى على الأرض ، وكان سببها أنه وجدنى خارج البيت فى وقت متأخر حسب تقديره ، ولم يكن كذلك ولا كان خارجاً عن مألوف عادتى ، أما فى تلك المرة الثانية فقد كان عذره أضعف ، وكانت الإهانة أشد ، وليئت أياماً لا أكلمه حتى بدا عليه الشعور بالندم ، فتذكرت أنه شيخ مريض ، وتأملت لحاله ، وغفرت ظلمه لى وإن لم أنسه حتى اليوم . وما وقع على ظلم بعد ذلك إلا تأملت حال من ظلمنى فوجدته أحق بالشفقة منى ، فأجاهد وأنا أعمل لدفع الظلم ألا أبلغ حد الانتقام .

ولا تحسبن أنى أقول ما أقول لأزكى نفسى ، فالحق أن هذه العادة أصبحت عندى أشبه بالرديلة ، فأنا مع قلة صخبى لم أسكت، عن حقى مرة ، ولكنى كنت دائماً أنظر إلى من هم فوقى بنوع من الاستعلاء ، ولا أحاول إخفاء ذلك وإن لم أخرج عن حدود الأدب المعتاد . ولا أدرى كيف كان الكبار والرؤساء ينظرون إلى ، ولكنى على كل حال لم أكن أرجو عطفاً من أحد ، كيف وأنا أراهم أحق بالعطف منى .

خلاصة هذا كله أن العيش على الحافة - حافة العوز أو حافة المرض أو حافة الجنون أو ما يشابهها وهو كثير - ليس بذى خطر فى نفسه إذا استطاع المرء أن يحافظ على توازنه . ويأتى بعد ذلك دور المعرفة أو الثقافة فى تكوين عقله وذوقه . وقد كانت سيرتى فى هذين الجانبين أشبه بسيرتى فى سلوكى العمل : حاولت منذ وعيت أن أكون مالكا لأمرى ، وأن أحصل ما أستطيع تحصيله بمجهودي ، ولا شك أنى اعتمدت فى طفولتى على أبوى ومعلمى ، ولكن هذه المرحلة كادت تنتهى عندما بلغت سن العاشرة ، وهى السن التى حصلت فيها على الشهادة الابتدائية . وقد شاء حظى أن يكون معلمى فى مادة الحساب طوال المرحلة الابتدائية رجلاً غريب الأطوار ، كان معروفاً عنه فى المدرسة كلها أنه متزوج باثنتين ، ثانيتهما كانت خادمته ، وكان حاد الطبع لا يصبر على إفهام صغار التلاميذ ، وربما علا صوته أثناء الشرح فيشعر بعضهم - وأنا منهم - بالخوف . وكان كمعظم الناس فى ذلك الزمن وفديا وكانت وزارة محمد محمود فى الحكيم ، وتبعته وزارة اسماعيل صدقى ، فكان يضيق معظم وقت الحصة كلاماً فى السياسة ونحن - بالطبع - لا نفهم ما يقول ولكننا نخرج فى المظاهرات كى يرضى عنا . وهكذا تقدمت إلى امتحان الابتدائية سنة ١٩٣١ وحالتى فى مادة الحساب بالذات لا تبشر بخير وكان نجاحى راجعاً إلى مصادفة سعيدة لم تتكرر إلا بعد ثلاثين سنة تقريباً ، وهى أن أسئلة الامتحان «تسريت»

كما يقال ، ولم يكتشف ذلك إلا قبل الامتحان بيوم واحد ، فسوى امتحان الحساب على عجل ، وجاءتنا أوراق الامتحان مطبوعة على «الرونيو» بدلاً من أوراق المطبعة الأميرية حسب العادة ، وقد حلت محل الكسور المعقدة والمسائل المعقربة أشياء سهلة أمكننى أن أحصل فيها على درجة واحدة فوق درجة النجاح أى على ستة وعشرين من خمسين ، فى حين أن التلاميذ المتوسطين كان فى استطاعتهم أن يحصلوا بسهولة على الدرجة النهائية . فلما جاءت الشهادة كان ترتيبى حول الخمسة الآلاف من عشرة آلاف تقريباً هم تعداد الحاصلين على الابتدائية فى ذلك العام ، ومع ذلك قبلت بالمجان فى مدرسة المساعى المشكورة الثانوية لصغر سنى ولأن أبى كان مدرساً فى الجمعية .

بداية جادة

كان أبى يدرس اللغة العربية والدين فى المدارس الابتدائية التى أنشأتها جمعية المساعى المشكورة فى كل مركز من مراكز مديرية المنوفية أو محافظة المنوفية كما تسمى الآن . ومادمت قد شرطت على نفسى أن أباعد عن أسلوب السيرة الذاتية فلن أتحدث عن حبى له أو ذكرياتى ، ولكنى أذكر فقط ما يتصل بسياق «التكوين» العلمى . لم يكن أبى يولبنى عناية خاصة فى اللغة العربية ، لا فى الفصل ولا فى البيت ، وإنما كنت أسأله عن بعض أشياء فيجيبنى ، وكانت عنده كتب قليلة

بدأت أقرأ فيها عندما انتقلت إلى المرحلة الثانوية ، أذكر منها «إحياء علوم الدين» للغزالي ، و«حياة الحيوان» للدميرى ، و«المواهب الفتحية» للشيخ حمزة فتح الله ، أما بدايتى الحقيقية فى التعليم - بعد المقدمات الضرورية التى حصلتها فى المدرسة الابتدائية - فقد كانت فى «مقعد» من «المقاعد» الثلاثة فى منزلنا القديم فى البلد .

ولابد هنا من بعض الايضاحات اللغوية . فأما «المقعد» فهو حجرة فى الطابق الثانى من الدور الريفية المتوسطة ، سقفه غالباً بالبوص ، وأما المقاعد مساحة خالية غير مسقوفة تسمى «الحضير» ويسرح فيها الدجاج وربما خصص أحد المقاعد للخزين ، أو حتى لتربية الأرانب ، مع أن الأصل فيها أن تكون للنوم فى فصل الصيف ، بينما تتخذ «قاعة الفرن» للمبيت فى الشتاء . وأما «البلد» فهو الاسم الذى نطلقه على الموطن الأصلى ، أو «مسقط الرأس» والذى نعود إليه فترات تطول أو تقصر ، حين يقتضى عمل رب الأسرة أو دراسة الأبناء أن تكون الإقامة الدائمة فى بلدة أخرى .

فى أحد «المقاعد» وجدت صندوقاً كبيراً من تلك الصناديق القديمة المزينة من أعلاها وجوانبها بصفيح ملون ، والتى كانت تكون مع السهرير الحديد كل جهاز العروس لدى الأسر المتوسطة الحال فى الريف . عندما فتحت ذلك الصندوق القديم فى تطلع الأطفال وجدت كومة من الأوراق

ووجدت بينها أعدادا من «الهلal» فى سنواتها الأولى (لا بد أنها كانت
 من مقتنيات أبى أيام دراسته فى الأزهر - وقد عرفت فيما بعد كم كان
 متمرداً على التعليم الأزهرى ، حين لاحظت أنه يعرف الكتاب
 المعاصرين ، ويعجب - مثلاً - بأسلوب محمد التابعى) . وكان العدد من
 «الهلal» عبارة عن كراسة صغيرة من ملزمة أو ملزمتين ، وكلها تقريباً
 محررة بقلم جورجى زيدان صاحب الهلal . كان فى كل عدد من هذه
 الأعداد ترجمة لواحد من مشاهير الشرق أو الغرب ، وأذكر أن أقوى
 هذه التراجم تأثيراً فى نفسى كانت ترجمة أوليفر كرومويل ، ذلك التأثير
 المتطهر الذى حول بلاد الانجليز لفترة قصيرة من تاريخها إلى النظام
 الجمهورى ، ومحمد رضا بهلوى ، ذلك الجندى البسيط الذى تصدى
 لأطماع الدول الغربية فى أرض فارس واستطاع أخيراً أن يجلس على
 عرش الأكاسرة ، ووجدت فى هذه الكومة أيضاً كتاب «سر تقدم
 الانجليز السكسونيين» لديمولان (ترجمة أحمد فتحى زغلول) ، وأذكر
 أنى قرأته بشغف ، وعرفت فيه شيئاً عن «التربية الاستقلالية» وأمنت
 بأن الانسان (لا أقول الطفل ، فلم أعد أعتبر نفسى طفلاً) إذا بلغ مرتبة
 الوعى أصبح مسئولاً عن نفسه . ولم يكن أقل الأشياء التى وجدتها فى
 هذا الصندوق العجيب تشويقاً ولا فائدة لى فى مستقبل أيامى مجموعة
 من الخطابات المتبادلة بين أبى وأخوى الكبيرين (وكانا فى تلك الآونة قد

أتما دراستهما العالية وأصبح أحدهما محاميا والآخر موظفاً إدارياً .
ولا تعجب لأن أبا غير ميسور الحال حرص فى تلك الأيام ، قبل مجانية
التعليم بزمان ، على أن يعلم أولاده جميعاً تعليماً عالياً ، أبى على كل
حال لم يبعث أحد أولاده إلى أوروبا كما فعل الشيخ رجب فى «فنديل أم
هاشم» (. وكان معظم هذه الخطابات قديما يرجع إلى الفترة التى تلقيا
فيها تعليمهما الثانوى فى طنطا لأن محافظة المنوفية كلها لم يكن فيها
مدرسة ثانوية واحدة . كانت هذه الخطابات تتناول أموراً عادية جداً مثل
إرسال نقود أو ملابس أو بعض الأثاث ، ولكن هذه الموضوعات العملية
اليومية كانت تتناول بطريقة أعجبتنى ، وأحسب أنها كانت النموذج
الأول الذى حببني فى الكتابة الواقعية . وكانت هناك أيضاً خطابات
قليلة من بعض زملاء أخى الحقوقى ، وهذه كانت كلها فى السياسة وقد
أثارت إهتمامى أيضاً ، ولعل بعض الفضل فى ذلك راجع إلى المدرس
الغريب الأطوار الذى جنى علىّ فى مادة الحساب .

من هنا بدأ تكوينى ! ولا أكتفك أنى حين دخلت المدرسة الثانوية
كنت قد بدأت أستخف بالمدرسة وما تعطيه . وكان لى خال صحفى
ورجال ، علم نفسه بنفسه ، فكنت أحسده لأنه نجا من سخافة التعليم
الرسمى ، ولا أجزؤ أن أصرح أهلى بهذه الأفكار إذ كانت المدرسة
والشهادة هما السبيل الوحيد إلى حياة كريمة مستقرة . وقد شاء الحظ

أن أمرض فى أول السنة الأولى ، وأن يطول مرضى أكثر من أسبوعين ، فلم يكن لى بد من أن أعتد على نفسى لفهم دروسى من الكتب المقررة (كانت الدروس الخصوصية فى تلك الأيام شيئاً نادراً . لا يلجأ إليها إلا التلاميذ الخائبون أو المدلون) .

الاعتماد على النفس أولاً

وسرعان ما عرفت الطريق إلى مكتبة البلدية . وسرعان ما أصبحت أهم عندى من المدرسة التى كانت تستأثر بوقتى معظم السنة . وقد حرصت على أن أدأى تخلفى فى الرياضة - ولم يكن جميع مدرسيها كذلك الذى بغض إلى أسمها فى المرحلة الابتدائية - وتقدمت دون عناء حتى وجدتني ابتداء من السنة الثانية أحتل المركز الثانى أو الثالث فى الفصل (كما يقولون اليوم عن الفرق الرياضية) . وربما كان من الممكن أن أحتل المركز الأول ولو فى بعض المرات لولا أن ابن أحد مدرسى المدرسة شغله منذ هذه السنة الثانية (ولا أزعم أنه شغله بغير حق) إلى أن تركنا المدرسة .

على كل حال لم يكن الأمر يعنينى كثيراً ، فقد كان رأى فى المدرسة هو رأى . وكانت عطلة الصيف لا تكاد تبدأ حتى أصبح جليس المكتبة ، أقف على بابها قبل أن تفتح ، صباحاً ومساءً ، ولا أغادرها إلا بعد أن ينبهنا الساعى إلى إنتهاء الوقت وأصبحت أضيف إلى ساعات المذاكرة

أثناء العام الدراسى ، ساعة قبل النوم أقرأ فيها فصلاً فى كتاب من الكتب التى كانت مكتبة المدرسة تسمح بإعارتنا إياها .

فى تلك السنوات قرأت كل ما وجدته فى إحدى المكتبتين من الأدب الحديث ، أى معظم ما نشر منه قبل سنة ١٩٣٦ ، وقرأت - بالطبع - ألف ليلة وليلة وكثيراً من الروايات المترجمة ، وأتقنت طريقتين فى القراءة: القراءة المتمهلة المتأنية والقراءة السريعة القافزة . بعض الروايات المترجمة كنت أفرغ منها فى جلسة واحدة لأنى كنت أقرأ أكثر من ستين صفحة فى الساعة ، وكأنى لا أقرأها بل التهمها بخيالى . ولكن ثمة روايات كنت أقرأها متمهلاً وبجدية تامة . أذكر منها «آلام قرتر» و«روفاثيل» من ترجمة الزيات و«غادة الكاميليا» من ترجمة أحمد زكى ، أما روايات المنفلوطى فكانت فى منزلة وسطى . وكانت هناك كتب أقرأها للدراسة ، كما أقرأ كتب المدرسة ، منها كتاب «العقل الباطن» لسلامة موسى ، و«الاشتراكية» لنقولا حداد ، وكتاب فى علم النفس من ثلاثة أجزاء لعطية الأبراشى وحامد عبد القادر . وأذكر أن المدرس الذى كان يعلمنى اللغة الانجليزية فى المدرسة الابتدائية دخل المكتبة ذات يوم فوجدنى أقرأ فى الترجمة الانجليزية للكتاب المقدس فنظر إلى مستنكراً وقال : ألا تعلم أنه altered ؟ ولا بد أنه خاف على دينى ، أما أنا فقد حمدت الله على أن المكتبة لا تتصحنى ولا توجهنى .

ولم تكن هذه هي النصيحة الوحيدة التي تلقيتها من مدرسي الرسميين . فقد اتفق أن أحد الطلاب - ونحن في أواخر المرحلة الثانوية - سأل مدرس اللغة العربية عما يحسن أن يقرأه من الأدب الحديث ؟ فقال . اقرءوا «صهاريج اللؤلؤ» للبكري . وذهبت إلى المكتبة واستعرت «صهاريج اللؤلؤ» فإذا هي قطع من النثر المسجوع المتكلف . وكان هذا المدرس هو أوسع مدرّسى اللغة العربية في مدرستنا أفقا وأحسنهم ذوقا وحين عزمتم على أن أتوسع في قراءاتي بالانجليزية ، ونحن نستعد لاستقبال العطلة الصيفية التي تسبق الجامعة ، سألت مدرس اللغة الانجليزية ماذا ينصحني أن أقرأ ؟ فقال . إقرأ جون ميزفيلد ، فوضعت هذا الكاتب في أول برنامجي ، واستعرت ثلاثة من كتبه ، دفعة واحدة ، من مكتبة الجامعة ، فكاد يصرفني عن الأدب الانجليزي كله .

أنا ومجلة الهلال

وكان اهتمامي بإتقان اللغة الانجليزية راجعاً ، مرة أخرى ، إلى مجلة الهلال ، فقد قرأت في أحد أعدادها استفتاء لبعض كبار الكتاب عن الثقافة التي يجب أن يحرص الأديب على تحصيلها . فقال محمد حسين هيكل أن الأديب العربي لا يمكنه أن يستغنى عن القراءة بلغة أجنبية واحدة على الأقل . فأكد هذا القول شعوراً سابقاً عندي بأنني

يجب ألا أقنع بالمستوى الذى بلغته فى المدرسة من معرفة الانجليزية أو الفرنسية ، وكان الطبيعى أن أبدأ بالانجليزية إذ كانت هى لغتى الأوربية الأولى . فجمعت عدداً من الروايات التى كانت مقررة فى السنوات السابقة على طلاب السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية أو السنة الأولى فى الجامعة ، لأنى كنت أجد الكلمات الصعبة مشروحة على هوامشها بأقلام الطلاب السابقين ، فعكفت على قراءتها وحفظ معانى كلماتها طوال عطلة الصيف .

وقد التحقت بكلية الآداب يجذبنى اسم وحيد : اسم طه حسين ، رغم أنى كنت أعرف كذلك أحمد أمين وعبد الوهاب عزام من خلال مقالاتهما فى مجلة الرسالة ، ومن خلال «فجر الإسلام» و«الشاهنامة» ومن ثم كان اختياري لقسم اللغة العربية اختياراً جازماً لا تردد فيه . وكان التخصص يبدأ من السنة الثانية ، ومرة السنة الأولى بغير عناء ، وكان معظم وقتى موقوفاً على القراءة بالانجليزية وحفظ معانى الكلمات ، والفضل لمعجم «القرن العشرين» الذى كنت أقرأ حروفه الدقيقة على لمبة جاز ، وعدلت عن جون ميزفيلد إلى الأدب الروسى وإلى طاغور ، اللذين أصبحت لى علاقة حميمة بكل منهما . وفى عطلة الصيف قرأت تفسير النفسى والبيان والتبيين للجاحظ (أحد الكتب الأربعة التى عدها ابن خلدون أساس الدراسة الأدبية) استعداداً لدخول قسم اللغة العربية .

وفى الوقت نفسه بدأت أترجم قصصاً من طاغور نشرت فى مجلتى «الرسالة» و «الرواية» كما نشر لى الزيات قصة فى «الرواية».

صدمة !

وكان هذا كله حسناً ، أما قسم اللغة العربية فكان - ولا أكتكم أيها القارئ - صدمة . لم أجد على «الجدول» اسماً واحداً من الأسماء التى جذبتنى إليه . ولم يكن الأساتذة الذين درسوا لى الأدب العربى فى تلك السنة يفضلون كثيراً صاحب «صهاريج اللؤلؤ» . بعد ذلك - بطبيعة الحال - نلت عاقبة الصبر وجلست بين يدى أولئك الأعلام . ولكن ...

تبين لى بعد قليل أن ما أتعلمه من كتبهم خير وأبقى مما أتعلمه بين أيديهم ، لا استثنى من ذلك طه حسين نفسه ، وإن كان له «حضور» رائع ، لسحر شخصيته وخلابة عرضه وموسيقية صوته حين يحاضر ، وكنت أرى من زملائى من يصطنع سؤالاً أو يبدى تعليقاً ليلفت نظر الاستاذ إليه ، وربما لحق به مهزولاً بعد المحاضرة وفى يده قلم وكراسة ليذون ما يلقيه إليه وكأنه يلتقط الدر . فتتشعر نفسى .

ولعل الدين الكبير الذى أشعر به نحو أستاذين بالذات - أمين الخولى وإبراهيم مصطفى - راجع إلى أنى لم أجد فى كتبهما ما ينوب عن شخصيتهما . فأما إبراهيم مصطفى فكتابه «إحياء النحو» - ولا أعرف له غيره - لا يمثل إلا جانباً صغيراً من علمه بالنحو وذوقه فيه ،

فضلاً عن أنه قارئ للشعر القديم خبير بدرويه الخفية ، ولا شك أن العناية بالدقائق عادة عقلية عند النحاة ، فإذا انضمت إليها حساسية بالفروق والدلالات خرج النحوى عن مجرد كونه نحوياً وأصبح شارحاً للشعر - ولا سيما الشعر القديم - قديراً على كشف غبار الزمن عن جماله الغريب . وأما أمين الخولى فكان دائماً «يحاوِر» ، وكان دائماً «يحاول» .. وكان بمحاوراته السقراطية يكسر قشرة الموضوع عن لبابه ، ويعلم طلابه أن يحذوا حذوه . وكان فى جميع مشروعاته العلمية يحاول غاية هو أول من يعلم أن دركها بعيد ، ومن ثم يبقى باب الاجتهاد مفتوحاً لمن بعده . وقد وجدت نفسى قريباً من هذين الأستاذين الجليلين دون أن أتمسح بهما ، أو أهجم بجهلى على علمهما . واستمرت صلتى بأمين الخولى وتوثقت إلى أن لحق بربه ، وعندما عدت إلى الجامعة لأتعلم من جديد مع طلابى سرت على دربه ، حتى أنن الله فعدت مرة أخرى وأخيرة إلى حبنى الوحيد : الكتاب .

طارق البشرى

يصعب الحديث عن «التكوين» دون أن يمتد الكلام إلى الذكريات ، ومازلت رغم تقدم السن بى معلق البصر بالمستقبل وما يصلح به وما ينبغي فعله ، وهذا التوجه لا يتلاءم مع الالتفات إلى الماضى واستدعاء الذكريات ولا تزال أجهزة الاستقبال لدى أقوى من أجهزة الإرسال .

ومن جهة أخرى لم أعتبر التفكير فى نفسى ، أرى ذلك نوعا من إطالة النظر فى المرأة مما لا أحبه ، والموقف المثالى فى ظنى أن تنظر فى شأن آخر ، أى لن «تغنى» (بتعبيرات الصوفية) فى موضوع تدرسه أو عمل تؤديه ، حتى وإن كان عملا يدويا ، ومن باب أولى لا أسيغ الحديث عن نفسى ، يركبنى الحياء وأشعر بعدم الجدوى ، وأنى أستنفد جهدى ووقت الآخرين فيما لاينفع وما كنت أقوم على هذا الموضوع لولا أن حيائى من «مجلة الهلال» غلب حيائى من الكتابة .

ثلاثة أمور أتصور أنها كانت بالنسبة لى «بداية التكوين» أو هى التكوين بمراجعة أن ما جاء بعدها كان نموا وتكملة وليس «التكوين ذاته» لأولها طابع وجدانى خالص ، ويتعلق ثانيها بالبيئة الخاصة المنزلية والأسرية ، وأما الأمر الثالث فهو تفتح الإدراك على قضايا المجتمع ،

هى ثلاث نقلاّت ، من لفائف الطفولة المطوية فى مشاعر ما قبل التمييز ،
إلى بداية التفاعل مع البيئة المحيطة ، إلى بداية قراءة الواقع الاجتماعى
العام .



أول ما أستطيع أن أستدعيه من قاع ذاكرتى ، عدد من الصور
المتناثرة عشت حتى أواسط العمر لا أعرف معناها ولا أذكر سياقها ،
ولا تنتظم مفرداتها فى حادث بعينه ، صورة لصوانى العشاء الكبيرة
الملونة ، وصورة بيتنا الكبير وحديقته الواسعة الجرداء (الا من بعض
شجرات الكافور الضخمة) مضيئة بالليل ، وصورة أبى فى حلتة الكاملة
يقف بالنهار تحت إحدى نوافذ البيت ودموع تسيل على خده دون أن
تهتز له خلجة ، وصورة ابن عم لى شابّ وسيم يقف على عتبة السلم بين
شقتنا وشقته وتعبير الألم يعتصر وجهه ، ثم صورة عمتى فى شقتها
الأرضية تجلس على أحد سريري غرفة نومها وتستند بكفيها على
ذراعيها وتتمايل بجزعها كله يمينا ويسارا وتطلق أهة متحشجة تنخلع
لها القلوب .

ولأننى لم أستطع أن أفسر هذه الصور ولا أن أجمعها فى حادث
بعينه ، بقيت صورا متناثرة ترد إلى ذهنى كل منها وحدها فلا تنزاح
عنى إلا وأنا فى حالة من الأسى والحزن من شىء غامض وخفى .

فهمت بعد ذلك الأمر بالمصادفة ، بعد أن شارفت الأربعين ، كنت فى دار الكتب بباب الخلق أطلع صحف الثلاثينات اعدادا لدراسة تاريخية أكتبها ، وكان أمامى «الأهرام» عدد ١٢ ديسمبر ١٩٣٧ ، ولفت نظرى صورة عم لى منشورة مع خبر وفاته ونبذة عن تاريخ حياته ، وفجأة ظهرت كل تلك الصور القديمة وتشكل منها الحدث الذى وقع وأنا فى الرابعة من عمرى ، وعرفت بعد ذلك أن مازاد حدة الألم يومها ، أن الملك فؤاد بعث من الشرطة من يفتشون منزل المتوفى يبحثون عما عسى أن يكون من رسائل الخديو عباس ، وكان لعمى صلة وثيقة به أدت إلى نفيه من مصر ستين طويلة ، ولكن الشرطة وكان معهم رئيس النيابة ، حاولوا أن يقوموا بمهمتهم البغيضة بالكبر قدر من المجاملة والذوق واللباقة واكتفوا بالجلوس طالين أية ورقة تثبت فقط أنهم قاموا بمهمتهم ، الا أن دخول الشرطة بيتا لتفتيش فى أوراق رجل مات لتوه وبين أسرته ، وفى ظروف تماسك أسرى وثيق ، وحكاية المتوفى بين أسرته وأخواته وشعورهم بما ناله من ظلم حيا وميتا ، كل ذلك زاد الإلتهاب لهيبا ، ولحقت براعم الطفل ما لحقها من آثار هذا اللهب.

عذبنى أيما تعذيب - فى طفولتى وصباى - هذا الشعور الحاد الحزين العميق بما وصفه القرآن الكريم بأنه «مصيبة الموت» وزاد من ذلك أن غالب من نشأت بينهم كانوا كبارا فى السن ، كان فارق السن بين أبى وأكبر أعمامى يصل إلى خمس وعشرين سنة، فكان الأعمام

والعمات من جيل الأجداد وأولادهم من جيل الآباء أو أقل قليلا ، وبينى وبين أبى أربعين سنة أو يزيد ، فلم أدرك صورته الا بملامح شيخ وحركة شيخ وأمراض شيخ ، وهكذا الآخرون من باب أولى . كل ذلك دعم الشعور بالخوف من «مصيبة الموت» وأنه أمر قريب يمكن أن يقع بين وقت وآخر .

عزلى هذا الشعور عن أن أستمتع بما يستمتع به الأطفال ، من الجرى واللعب وما شابه ، وحد كثيرا من قدرتى على مجاراة زملاء المدرسة والجيرة فى هذا الوقت المبكر ، وحفزنى على التفكير فيما لا أطيق من مشاكل وأمور تكد عقل الصبى . وقد يكون لكل ذلك أثره فى إننى صرت إلى الكتمان وإلى الخطاب الخالى ، وصار خوفى على الآخرين أقوى كثيرا من خوفى على نفسى ، وانغرزت فى وجدانى عادة الأكثر من الدعاء لله سبحانه ، وأدعوه جهرة ، وأدعوه همسا ، وأدعوه سرا ونجوى ، وأدعوه بالنقش على القلب دون أن يتحرك اللسان ، لازمنى ذلك وصار عقدا موثقاً بينى وبين الله سبحانه مهما رمتنى الرياح بعيدا ، وصار زورق نجاتى من موج يعلو كالجبال يحول بينى وبين رؤية مايحيط بى . وكنت فى صباى أجهد فى إحكام صياغة الدعاء بما يضبط اللفظ على المعنى بغير التباس ، ودرّب هذا عقلى على الصياغة اللفظية للمعانى والقدرة على استخلاص المعنى من اللفظ وعلى التأويل .

نقطة أخرى ، وهى أن كبر فارق السن ، الذى جاوز الأربعين مع الأب وشارف الستين مع العمّة والجدة للأم والأعمام ، وراوح بين العشرين والأربعين مع الأم وأولاد العم ، وجاوز المائة عام مع الجد للأب كل ذلك جعل لدى الطفل امكانية أن يراقب ثلاثة أجيال معاً ، جيل شباب بداية القرن وشباب ثورة ١٩١٩ وشباب الثلاثينات ، وسمع من ذكريات هؤلاء جميعاً ومن وقائع حياتهم ، فتكونت لديه ذاكرة ممتدة ومركبة ، وأكسب ذاكرته عمقاً خاصاً واكسب مشاعره ألفة خاصة مع وقائع هذه الدهور الثلاثة ، فصار كما لو كان عاشها جميعاً .

وكنّت رابع الأخوة وأصغرهم ، وكنّت أرد دائماً فى النهاية من أى ترتيب يتبع ، حتى أمراض الطفولة ، كنّت صاحب التجربة الرابعة ، ناهيك عن الدراسة وغيرها ، ومع تصميم الأب على التعامل بقاعة الترتيب بانتظام واضطرار وثبات ، أكسبني هذا طوعية وتقبلاً للانتظام والاندرج فى الترتيب متى كان ذلك بأسس موضوعية ، هذا عن العنصر الأول .



العنصر الثانى إننى قضيت طفولتى وصباى حتى بداية سنّى الشباب فى العشرين من عمرى ، أى فترة الدراسة كلها حتى تخرجت

فى كلية الحقوق ، قضيتها كلها بين العمامة والطربوش ، وبين المدينة والريف ، ولست استخدم المجاز فى ذلك ولكنها الحقيقة ذاتها .

أما العمامة فكانت لجدى لأبى الذى كان شيخا للأزهر ، ولسبعة من الأعمام تخرجوا جميعا فى الأزهر وعملوا به ووجدى لأمى الذى تخرج فى الأزهر ثم عاد إلى قريته ، وأما الطربوش فكان لأبى أصغر أخوته وأول من انتقل إلى المدارس الحديثة فتخرج فى كلية الحقوق وأشتغل بالقضاء الأهلى ، ثم لأولاد الأعمام جميعا الذين سلكوا بلا استثناء إلى المدارس الحديثة فى العلوم والمهن المختلفة، ثم لكل من اتصلت بهم على مسيرة الحياة من مدرسى المدارس إلى غالب أساتذة الجامعة إلى الزملاء والقرباء وأباء الأصدقاء وغيرهم . هى ذات الشرعية الاجتماعية تنتقل من نوع تعليم إلى نوع آخر ومن عادات عيش إلى عادات أخرى ، وقد شاهدت هذا الانتقال بدرجاته وصوره فى الملابس والمساكن ونوع السلوك ، وهذه الدرجات والتنوعات والظلال التى تشغل طريق الانتقال من حال إلى حال .

وعرفت كيف يكون نظر الانسان مشبويا إلى مستقبل يحقق صور الحياة التى تملأ الرءوس المطرشرة من حيث التقدم والرفاه بالصور التى راجت بين جيل أبناء المدارس الحديثة من شباب ١٩١٩ ، وكيف يعود إلى العمامة ، ولسان حاله يردد مع الشيخ مصطفى عبدالرازق ،

عندما عاد من أوروبا بالبأخرة ، وفى ليلة الدخول إلى الاسكندرية رجع إلى ملبسه الأزهرى وشعر إزاء زملاء الحجرة إنه انتقل من جيلهم إلى جيل آخر ، ولكنه أشاح عن الأسى وقال «أيتها العمامة عزيزة أنت رغم كل شيء» (أو كما قال) .

عرفت هذا وذاك وعرفت أن أجل ما كان فى جيل المطربشين من شباب ١٩١٩ ، أنهم رغم شعورهم بالتفوق على ذوى العمام من حاضريهم ومستقبلهم ، ورغم ما اندس إليهم من وجوه الانبهار بحاضر أوروبا ، وأقصد بالانبهار هذا الشعور بالاعجاب الذى يبلغ حدا يميل بالمبهور إلى التقليد ويضعف لديه المقدرة على التوازن فى الاختيار ، رغم كل ذلك فقد كان موصول العروق بالراء وس المعمة ، مقرا ومعتزا بنبوته لهؤلاء ، وظل جيلا مشمولا فى غالبه بفكرة «القداسة» وأن العمل لايقابل الأجر فقط ، وإنما يقوم أداء «للمرسالة» لذلك لم يكن غريبا أن يتردد على ألسنتهم وصف «القاعة المقدسة» سواء على دار البرلمان أو دار القضاء أو دار التعليم ، لأنه وصف استصحبوه من المهام التقليدية للمسجد ، تشريعا وقضاء وتعلما ، ورغم أن الموصوف بالقداسة لديهم كان من المؤسسات الوضعية الحديثة ذات النظم الوافدة ، فقد كانوا يجتهدون فى إخضاعها للهضم الفلسفى الحضارى الموروث .



كان الشيخ سليم البشرى شيخا للأزهر من ١٩٠٠ إلى ١٩١٧، مدة طويلة تخللها نحو أربع سنوات فصل فيها من المشيخة ، بسبب مواجهة حادة جرت بينه وبين الخديو عباس ، وجرت علنا بين المصلين بعد صلاة الجمعة ، وكانت تتعلق فى عمومها باستمساك الشيخ باستقلال الأزهر فى شئون تعيين واختيار رجاله .

لما كبرت وقرأت فى التاريخ فهمت المهمة التى قام بها الشيخ سليم البشرى فى هذه الفترة ، وفى إيجاز شديد ، كان الانجليز عندما احتلوا مصر فى ١٨٨٢ قد تركوا ثلاثة مجالات لم يأذنوا لأنفسهم أن يتدخلوا فيها تدخلا سافرا ، وهى الأزهر والمحاكم الشرعية والأوقاف ، ومع نهايات القرن ظهر لهم من استقرارهم ما شجعهم على طرق هذه المجالات ، وبدأوا بالمحاكم الشرعية ، وكانت معركة سياسية انتصر فيها النشيوخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ومفتى الديار المصرية وقتها ، وتراجع الانجليز عن مسعاهم ، ولكنهم سعوا فعزل الشيخ النواوى من منصبه ، وفصل بين مشيخة الأزهر ووظيفة الافتاء التى تبعت لوزارة الحقانية لتكون تحت إشراف المستشار القضائى الانجليزى ، وتولى مشيخة الأزهر الشيخ عبدالرحمن قطب ، وتولى الإفتاء الشيخ محمد عبده ، وذلك فى ١٩٠٠ .

عاجلت المنية الشيخ قطب بعد شهر من توليه ، فبادر رجال الأزهر

بترشيح الشيخ البشرى للمشيخة ، ويادر الخديو بتعيينه قبل أن يجمع الانجليز أمرهم على الضغط لاختيار من يناسبهم .

وأغلق الشيخ البشرى الأزهر فى وجه النفوذ الانجليزى ، وفى وقت كان النفوذ يتمدد ويتوغل فى كل مكان فى الحياة المصرية . وكان المجتمع الاوروبى قد اعترف وسلم بالأمر الواقع لبريطانيا فى مصر .

كما قام الشيخ بحراسة الأزهر من دعوات الاستشراق ونزعات التغريب ، وكان شديد الحساسية تجاه تدخل السلطات فى شئون الأزهر ، ومن هنا جاءت المواجهة بينه وبين الخديو وعبر بحدة عن رفضه تدخل الخديو فى اختيارات بعض الشيوخ بالأزهر . وفقد بذلك تأييد سلطة الخديو ، وكان فاقدا من الاصل تأييد سلطة الانجليز ، فعزل من المشيخة فى ١٩٠٣ ، وبعد نحو أربع سنين أو خمس عاد إلى المشيخة وفقا لشروطه كما جاء بكتاب «الأزهر الشريف فى عيده الألفى» وبقي فيها حتى توفى فى ١٩١٧ . وكما جاء فى هذا الكتاب أيضا كانت مواقفه تشهد بالشجاعة وبما يرفع من شأن الأزهر علماء وطلبة وأنه قاده الحركة الإصلاحية .

هذا كله تاريخ عرفته لما كبرت ، أما فى طفولتى وصباى ، فقد كانت بردة الشيخ تلف ببيته بعد وفاته لأكثر من عقدين من السنين ، وكانت قصة فصله تنقلها الروايات ، أكثر مما تحكى قصص وجوده ، وأن

سبب فصله هو الغيرة على استقلال الأزهر وكرامة العلم والعلماء ، وأنه فقد دخل شيخ الأزهر كراتب وحصص أوقاف ، ولم يبق له إلا راتبه كشيخ للسادة المالكية ، وهو لا يصل إلى بضعة عشر جنيهاً في الشهر ، لا تكفى أسرة متوسطة العدد من الطبقة الوسطى الدنيا ، ناهيك عما يلزم لأسرة كبيرة جداً والشيخ كان في مثل سنه ومنصبه السابق وله أتباع «وبيته مفتوح» وكان عازفاً عن المال وعن الدنيا ، ولما عاد إلى المشيخة براتبها وحصصها لم يفكر في أن يكون أي ثروة ، وتوفى بعد نحو عشر سنوات ، ولا أعلم إنه ترك مايورث إلا بيته ، والأقدم في حارة الشيخ سليم بالبغالة في السيدة زينب والأحداث في شارع البشري بحلمية الزيتون ، حين ولدت ونموت إلى سن التاسعة عشرة .

رضعت في طفولتي وتغذيت في صباى بقصص تصور هذا الأمر ، وتدور حول معنى المعاناة والشموخ ومراعاة كرامة العلم وتبعية خدمة الدين ، وصار أشبه بالبدايات عندي أن القيمة الاجتماعية هي قيمة العلم والموقف ، وليست قيمة المال ولا السلطان ، كانت مسألة محسومة لا ترد عليها شبهة ، قد يكون الواقع مع كر السنين أظهر تحفظات هنا وهناك ، ولكن بقي «التكوين» مرتبطاً بالمرعى الروحي والقيمي الأول .



وعن المدينة والريف ، فقد اتفق أن كانت «المدينة» تتمثل في ضاحية حلمية الزيتون ، وكان الريف يتمثل في قرية «الدير» بجوار شبين

القناطر وهى بلدة جدى لأمى ، وبين هذه المدينة وهذه القرية مالايزيد عن ثلاثين كيلومترا يقطعها قطار الضواحي أو السيارة فى زمن لا يصل إلى الساعة الواحدة . فلم تكن أى أجازة تزيد على يومين إلا ونقضها فى القرية .

عرفت هذا الثالث الذى تقوم عليه الحياة ، الدين والزراعة والأسرة الممتدة ، وفهمت دور حركات الطرق الصوفية فى إيصال الثقافة الدينية والتربية الوجدانية لكل المستويات الشعبية ، حتى أدناها مالا وتعلما وعملا .. ورأيت نمطين من التعليم ، نمطا يعطى الريف ويضيف إليه ونمطا يأخذ منه وينقص . الأزهر يجذب الريفى ليعلمه قدرا يكثر أو يقل ثم يعيده إلى قريته ليشكل بذرة إشعاع ثقافى بين أهله ، والتعليم الحديث طريق الإلتحاق به هو طريق الابتعاد عن الريف ابتعادا لا رجوع بعده . الأزهر يربى للقرية صفوتها ، والتعليم الحديث يجرّد القرية من صفوتها .

وعرفت المجتمع الثقافى الريفى بشيوخه المقيمين ورجال الطرق ، وبالبعض من عابرى السبيل من الغرباء الذين يطرقون بابك ليل ، أو بالأصح يدخلون بلا طرق لأن الباب مفتوح ، فيجدون المؤوى والمأكل والمبيت وكلمة الترحيب ، دون أن يسأله أحد من هو ومن أين أتى وإلى أين يذهب ؟ ، إلا أن يتكلم طواعية . وهم فى الغالب فقراء ، ولكن فيهم

أنصاف متعلمين أو أكثر . من الحديث مع بعض هؤلاء ، عرفت فى صباى لأول مرة من هم العرب العارية أو العرياء ، ومن هم العرب المستعربة ، وأن إسماعيل عليه السلام كان من المستعربة ، وسمعت عن قحطان وعدنان وجدهم ، ومنهم من يروى من شعر الصوفية .

كان مايتردد عل الأفواه معا مما يتناقل بالرواية عن المناقب والمعجزات ، وفصلتني عنه السنون ، إذا بى أفاعاً عند قراءتى أدب الصوفية بعد نحو عشرين عاما ، أفاعاً به فى كتب أمثال الإمام عبدالوهاب الشعرائى ، إلى هذا الحد كانت المعارف تنتشر بالتفاعل لتصوغ العقول والنفوس والقلوب ، الأزهر والصوفية والموالد كلها أواصر الربط الثقافى بين الثقافة التقليدية والأحياء القديمة فى المدينة والريف .

وفى الجانب الآخر ، كانت ثقافة المدينة الحديثة ، نجدها فى النخب الاجتماعية الجديدة ، وأساليبيها الحديثة فى نشر الثقافة والمعارف ، والصحافة وما تنقله من صور المجتمع الغربى ، والاذاعة والأغاني العاطفية ونغمات الموسيقى الأوروبية ، والمسرح وتراجم الأدب الأوروبى ، والسينما ، السينما الأمريكية التى استهوت شباب الأربعينات بعد الحرب ثم جاءت بجوارها السينما الفرنسية والايطالية مع بدايات الخمسينات .

من مدرسة الزيتون الابتدائية بحلمية الزيتون إلى مدرسة مصر الجديدة الثانوية إلى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، أى من السابعة من العمر إلى التاسعة عشرة والنصف ، أى من أكتوبر ١٩٤٠ إلى مايو ١٩٥٢ ، كان هذا طريقي فى مؤسسة التعليم ، طريق عادى ليس فيه جديد عن زملائى ولا غريب ولا شاذ ، بدأت أقرب للعزلة والانطواء ، وأنهيته وقد تجاوزت هذين الأمرين تقريبا ، ولكن بقى لى منهما ولا يزال ، عرفت انقراض العواطف وتوهج الوجدان ، ولم أجد ملاذا لى معهما إلا الأدب العربى ، سواء الشعر أو النثر الفنى ، ثم الموسيقى الغربية ، أما الأدب العربى فكنت ألتقاه وأحاول معالجته بينى وبين نفسى ويمنعنى الحياء أن أظهر أحدا على ما أكتب . وأما الرسم فكرهته وكرهنى ، وكان مدرس الرسم يكثر من ضربى فى المرحلة الدراسية الأولى ، ولم أعرف قط هل كانت قسوته بقدر فشلى أو أكثر أو أقل كل ما أعرفه إنه ترك لى شعورا بغربتى التامة عن هذا المجال ، ولعل ذلك ماصرفنى بكل توهجى الوجدانى إلى الفنون الكلامية وحدها ، فصارت هى وسيلة التعبير الوجدانى الوحيد .

ومنذ الثانية عشرة بدأت أعرف فى القرية شعر شوقى وحافظ ، وسقط الزند لأبى العلاء وديوان المتنبى وديوان الحماسة ، وصهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى وكتابات طه حسين والعقاد وزكى مبارك

وعبدالعزیز البشرى ، ومنذ الرابعة عشرة بدأ إختيار الأصدقاء یجرى وأهم عناصره العنصر الثقافى .

فى الثانویة العامة درسنا كتاب «أوروبا فى القرن التاسع عشر» لمحمد قاسم وحسن حسنى ، وكان من أروع الكتب التى تغذت بها عضلاتنا الفكرية ورؤیتنا للتاریخ والمجتمع ، وخاصة أحداث الثورة الفرنسیة ووحدة ايطاليا والمانيا ، وكان من یدرسه لنا الاستاذ محمود خفیف رحمه الله ، وهو مؤرخ وشاعر وأدیب ، وكان وطنیا وكان ديمقراطیاً وكان شجاعا ، وكان شامخا ، ألا ما أعذب الشموخ .

ثم جاءت مرحلة الجامعة وكلية الحقوق ، أحبت القانون ، واخترتة دون تفكیر فى غیره ، فكان كالقدر لیس له بديل ، ولقد لقینى ولقیته ، وأحبیته وأحبینى . ما من أستاذ درست علیه إلا نفعننى الله بعلمه ، ولكن یظل للشیخ عبدالوهاب خلاف أثر خاص ، أثر تغلغل فى نسیج الدماغ وفى عضلة المخ ، ولایزال ، لم یعرفنى قط ولم یرنى قط من بین المناسات الذین یحضرون له ، ولكن هكذا أثره . كان جادا دائما فیه صرامة منهج وفقه ، وفیه دقة موازین الذهب فى اختیار اللفظ ، وفیه اقتصاد هائل فى استخدام الألفاظ بمقاصد كالشمس واضحة .

أثناء الدراسة ، كان یوم نزهتی فى الثانویة العامة یوم أقرأ فى كتاب «أوروبا فى القرن التاسع عشر» ویوم نزهتی فى الحقوق یوم أقرأ فى كتاب الشیخ خلاف .



عدت أقرأ وأناقش لأضبط أفكارى وأعيد اكتشاف ذاتى

عاصرت النظام الملكى الحزبى من الميلاد إلى التاسعة عشرة من العمر إلا شهورا ، واستغرقت مرحلة هذا النظام المرحلة المدرسية من عمرى، إلا العام الأخير منها ، وعاصرت نظام ٢٣ يوليو بين التاسعة عشرة وبين السابعة والثلاثين (عندما بدأت نهايته بوفاة عبدالناصر فى سبتمبر ١٩٧٠) واستغرقت سننى العمر من الشباب إلى بدء الكهولة ، ثم مرحلة ما بعد ذلك ، وهى لاتزال ممتدة ، سواء فى الحياة العامة أو فى عمرى (حتى كتابة هذا السطر) .

و«التكوين» هنا يتعلق بالمرحلة الأولى ، والباقى هو نمو أو إكمال أو تغيير أو تعديل ، يرد منسوبا إلى الأصل، والتكوين عندى تجمعت عناصره الأساسية فى المرحلة الأولى، التى تفتحت عيني فيه على صورة مصر فى الحرب العالمية الثانية ، ثم كان الحدثان التاريخيان الكبيران اللذان عرفتهما بلادنا مما أجرى على هذا التكوين تغييرات هيكلية ، وهما حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ ، أليس عجيبا هذا ، نحن الذين ناكل الطعام ونمشى فى الأسواق وننام فى بيوتنا ونردد الفكاهات، أليس عجيبا أن تكون الحرب هى العنصر الأساسى فى تشكيل مزاجنا وهويتنا ، نظرت إلى الحرب الأخيرة ، حرب الخليج فى ١٩٩١ بهذه العين ، ورأيت جيل أولادنا يولد فى حرائقها ، رأيت الحدث الكبير يدور

ويجذب إليه قلوب الشباب ، سواء الجادة أو اللاهية ، عرضها على النار ثم أعادها وهى مشحونة بما لن ندرك فحواه إلا فى الآتى من الأعوام ، رعاهم الله وهداهم .

مصر والحرب العالمية الثانية ، هذه هى نقطة تقاطع المكان والزمان مع بداية تفتح ادراك الصبى بجماعته وأمته ، وأعوام ١٩٤٣ و١٩٤١ و١٩٤٢ مع بدء تقدم الجيوش الألمانية فى صحراء مصر الغربية ومعارك الصحراء ومعركة العلمين ، وأعوام إغارات الطائرات الألمانية على الاسكندرية والقاهرة ، وعلى معسكرات الانجليز فى مصر ، ومعسكرات الانجليز والطفاء فى «حلمية الزيتون» تجعل هذه الضاحية هدفا مستمرا لطائرات الألمان و«اللقنبر» ، فضلا عن قرب ذلك كله لمطارات المازة ومعسكراتها فى مصر الجديدة ، وأبى يوقظنا مع إنطلاق صفارات الانذار بالليل ، لنرتدى ملابسنا ونذهب إلى «المخبأ» المجاور الذى يفصلنا عنه شريط سكة حديد «خط المرج» ، وكان يحمل معه حقيبة صغيرة ، فيها متاع قليل وبعض الأوراق ، كان هذا بداية للاحتكاك بالوعى الجماعى وبالأحداث العامة .

لم تكن مصر فى هذه الأيام محتلة فقط ، بمثل ما عرفت من قبل ، لأن الاحتلال كان فى هذا الوقت فى أشد حالات الحركة . وكان ذا وجود كثيف ، وحركته تضاعف من كثافته ، فالنقود تزداد حجما بقدر سرعتها فى التداول ، ولم يكن الاحتلال انجليزيا فقط ، بل شارك الانجليز

أصناف وألوان من جند الحلفاء ، من الأمريكيين والهنود وعسكر جنوب أفريقيا ، ولم يكن يخلو شارع منهم ، ومنهم من يشاهد مترنحا من الخمر فى الربع الأول من الليل وأشجار الشوارع تطلّى جذوعها بالجير الأبيض ليسير الجندى الضال على هداها إلى المعسكرات . -

وكان هذا الوجود يثير القلق لدى الناس بعامه ، ويثير الفزع لدى النساء، تخفن به بعضهن بعضا ، وسيرهن مع الرجال ولو فى ريع الليل الأول يعمل حسابه ويدخل فى مجال الأمور الخلافية ، والحرب تظهر الخبىء وتكشف المستور من الحقائق ، لذلك بدا الوجود الاستعمارى بصورته الغليظة أمام العيان بغير غطاء وبغير تجميل ، وظهرت شخصيتان نمطيتان فى الوعى الاجتماعى ، يتحدث عنهما الناس حديثا متصلا وتكتب عنهما الصحافة وترسمهما خطوط الكاريكاتير ، شخصية «غنى الحرب» بجهله وفظاظته وسوقيته وغناه ، وشخصية «أرستت الحرب» بإباحيتها ودونيتها ، وكل منهما ثمرة وجود أجنبى بغيض وثمره حرب «لا ناقة لنا فيها ولا جمل» كما تردد على الألسنة وقتها تعبيرا عن هذه الحرب .

التقط الوعى سريعا ، فى حدود قدرة ابن الثامنة أو العاشرة - ما أشكل وما لم يشكل من أحداث بلاده ، مما كان يثير خلاقات بين الكبار ومما لم يثر ، أزمة حكومة حسين سرى وأزمة الخبز ومظاهرات «أقبل ياروميل» ، ثم محاصرة الدبابات البريطانية لقصر الملك وتولى النحاس

الحكم (٤ فبراير ١٩٤٢) ، خلافاً للملك والنحاس ، وقصص سيطرة النحاس على الحكم وقصص فساد الملك الشاب .

وما أن اقتريت من الحادية عشرة إلا وكان خيارى الوطنى والديمقراطى محسوما ، وليس لى فى ذلك فضل ، ولا دلالة لذلك إلا أننى كنت أسير فى سياق ، وكان السياق يقود المصريين بعامة إلى هذا الخيار ، أن يسقط جسم على الأرض ، فهذا لا يحتاج للتفتيش عن سبب لأنه إملأء السياق الذى تحدثه الجاذبية فى كل الأجسام ، إنما ما يحتاج إلى تفكير وتدبر هو أن يحدث العكس فيطير الجسم من أسفل إلى أعلى .

بعد الحرب كانت كلمة «الجلاء» تحمل أعذب النغم ، علق بها الشارات على الصدور ، ونسجت على أشرطة الحداد التى كانت توضع على الأكمام ، وهتفت بها المظاهرات ، وسقطت تحت وطأتها حكومات وتآلفت حكومات .. كل هذا معروف مشتهر ، وأثره فى «التكوين» منظور، ولكن النقطة التى قد تكون خفية ، عن هذا الجيل وعن أجيال سبقت ولحقت ، هو أن يتبلور الوعى فى ظروف مفارقة تكاد تكون تامة بين المثال المحمول فى الصدور وبين ما يجرى فى الواقع ، وأن تقوم هذه الفجوة الواسعة بين الرجاء وبين الفعل ، وليس الهول فى سعة الفجوة ولكن الهول كله فى حركة الاتساع والتدابير بين حوافها .

سألت نفسى مرة ، لو كنا نشأنا فى عهد ليس فيه احتلال أجنبى ، وفيه حاكم لا تجتمع الأمة على تجريحه كالمملك فاروق ، هل كان نوع التربية السياسية يختلف ، والمزاج ونوع ردود الفعل تختلف ، من أعقد الأمور الاجابة على الاسئلة الافتراضية ، رحم الله فقهاءنا القدامى من الذين كانوا يرفضون الجواب على سؤال يبدأ بقول «أرأيت لو كان ..» .

★★★

انتقل للإشارة الى الوضع الاجتماعى الاقتصادى ، لقد نشأت فى أحضان الطبقة الوسطى من جهتي الأب والام ، وأنا قاهرى المولد ابن أب قاهرى المولد أيضا ، نزح جدى لأبى من بلدته «محلة بشر» بالبحيرة الى القاهرة طلبا للعلم بالأزهر ، ولم يعد الى بلدته ، كان من أسرة ريفية فقيرة على عادة كل علماء الأزهر من قبل ، ومن بعد ، وولد أبناؤه بالقاهرة ، ومن ولد بالقاهرة لن يربطه بالريف من بعد أبيه الا أحد أمرين ، الملكية الزراعية أو المقبرة ، ولم يكن للجد ملكية زراعية ، ثم انه دفن فى مسجد السادة المالكية حيث توجد قبور الأئمة ابن القاسم واصبغ واشهب ويحيى بن يحيى الليثى والقويسنى وعليش ، وأعد لأولاده مقبرتهم عند جدار المسجد من الخارج ، أما أقارب الشيخ فكلهم شأنهم شأن غيرهم وفود من القرية الى المدينة ، والأسرة كلها كبارهم

وصغارهم ، أباعدهم وأقاربهم، اتخذوا طريق التعليم والمهن ، وكلهم ممن يعتمدون فى معاشهم على رواتبهم من وظائفهم ، فهم من نوى الدخل المحدود ورزقهم يأتيهم من عملهم الذهنى والمهنى ، لذلك يكتسبون مكانة فى المجتمع تفوق وضعهم الاقتصادى ، وكان امتلاك بيت السكن مما أبقي على الطابع الممتد للأسرة عشرات السنين ، وقد بقيت هذه الروابط بعد تهدم البيت والانتشار فى الأحياء .

والجد للأم يملك أرضا زراعية بخجم طيب جدا ، ولكنه كان وحيدا بهذا التميز فى أسرة فقيرة أفنى عليها الدهر ، وصار رجالها الى الملكيات الصغيرة جدا ، وبعضهم الى العمالة فى الأجيال التالية ، والبيت كان بيت أسرة ممتدة ، ومن علاقات القرابة ما يختلط بعلاقات العمل ، والبيت مفتوح الباب من الفجر الى مابعد العشاء ، وفى رمضان الى السحور ، المحصول يوزع أكثر من نصفه على الأقرباء، وعلاقات القرابة أقوى كثيرا من الانفراد الطبقي ، وهكذا بقيت الى النهاية حتى وفاة الجد وفاة الخال الوحيد ، لذلك كان الوضع الاقتصادى للأسرة هو الوضع المستور للأسر المتوسطة ، وكنا نحن نعتمد فى كل حياتنا على راتب أبى الذى تدرج فى القضاء المصرى الى آخر الشوط وتوفى قبل المعاش بعامين فعشنا بمعاشه ، أما دخل الأم فكان يساعد على غير استمرار ولا اطراد على ادخال بعض التحسينات على وسائل العيش، ومن غالب ثمنه أمكن بعد ذلك تأمين بيت مملوك للسكن .

وهنا تبدو ملاحظة ، أننا عندما نتحدث عن الوضع الاجتماعى بعامه أو الوضع الطبقي بخاصة ، لابد أن يكون واضحا فى ذهننا وحدة الانتماء الاجتماعى التى نقصد بيان وضعها ، وأن وجود أسرة ممتدة تتباين فى داخلها مستويات العيش إنما يقضى إلى تداخل وحدات هذه الأسرة وتخللها لأنماط من العيش والتكوين الوجدانى ، وما يثور من خلافات اقتصادية بين وحداتها إنما ينزل منزلة الخلافات الأسرية الداخلية ، ويبقى وضعها الاجتماعى جامعا لهذا التباين متأثرا بالطابع الغالب وليس بالمفردات .

نستطرد إلى نقطة أبعد ، وهى أن تقدير الوضع الاجتماعى إنما يتأثر بنظرنا نحن للوحدة الاجتماعية التى تريد تحديد وضعها ، وقد تختلف النتائج فى تقدير واقع محدد لا باختلاف هذا الواقع ، ولكن باختلاف تحديدنا نحن للوحدة محل الفحص ، ولكى نحدد هل فلان غنى أو فقير ، ريفى أو مدينى ، علينا أن نعرف من هو ، هل هو فرد أو أسرة «زوج وزوجة وأولاد» أو أسرة ممتدة ، أو عشيرة بمعنى أن الحكم بالصورة الواقعية يتوقف على تحديد اطار هذه الصورة ، وهذا التحديد يبنى على «فكرة» فى الأساس ، فالفكرة تحدد الاطار والاطر يعطى للواقع معناه .

مثال ذلك الحديث عن الاقليات فى المجتمع ، فالحكم على جماعة

بأنها أقلية فى المجتمع قد يكون حكما طبيعيا وقد يكون مصنوعا ، يكون طبيعيا إذا كانت الأقلية تتخلل الاكثرية فى كل مواضعها ولا تنفرد عنها ، وفى أوضاع أخرى لا تكون كذلك ، فأنت مثلا ترسم الحدود السياسية لتركيا بطريقة تجعل الاكراد أقلية ، فى حين أنها لو رسمت بطريقة أخرى لكانوا فى الإطار الآخر أغلبية ، وكذلك شيعة «جبل عامل» فى لبنان ، يتوقف حسابهم كأقلية أو أغلبية على «الفكرة» التى تسقطها أنت على الواقع وترسم بها حدود دولة معينة .

★★★

لم يكن بعيدا عن ذهنى فيما أعى أن أكون ممن يقومون بواجبهم العام نحو الجماعة التى ينتمون إليها ، ولكن المسألة كانت من خلال أى نشاط ، وأى نوع عمل يمكن أن أؤدى زكاة مواطنى ، كنت مستقر الفؤاد على أن يكون أدائى لهذا الواجب من خلال عملى المهني وتخصصى القانونى ، ورغم أن حواسى وأجهزة الاستقبال لدى بالنسبة للمشاكل العامة وأوضاع الجماعة فى السياسة والاقتصاد وغيرهما كانت قوية عن بداية الادراك ، فقد كنت أعد نفسى لنوع «أداء» متخصص ، وكنت متأثرا جدا بالأداء الوظيفى القضائى لأبى الذى توفى وأنا فى الثانية بكلية الحقوق قبل أن أرتوى منه تماما ، وبقيت سنين عطشان إليه .

أسعدنى أى سعادة أن عينت فى مجلس الدولة ، وبدأت عملى الفنى بآمال شباب وحماس شباب وصحة شباب ، كانت الشهور الأولى عسيرة على بسبب ما فطرت عليه من ميل للانطواء وبطء فى الاعتياد والاندماج ولأننى لم أكن بعد قد جريت نفسى ولم أكن أعرف بعد فيما أصلح وبما أصلح ، ولكننى بالأمل والحماس والصحة شققت طريقى ، وعوضنى عن كل نقاط ضعفى شغف بالإطلاع واستغراق فى العمل ، فعرفنى المحيطون بى فى العمل من خلال الورق قبل أن يعرفونى من هذه المعاشية اليومية التى كانت قائمة ، وفى الاستغراق فى العمل بدأت اكتشاف نفسى وأتحسس ملكاتى ووجوه القوة والضعف ، لما كشفت ذلك أخافتنى قدرة الصجاج والجدال أن تثول إلى اللدد واللجاجة ، ومازلت أذكر يوم ذهبت أصلى فى مسجد المالكية بين فترتى العمل الصباحية والمسائية ، وعاهدت الله سبحانه بما عبر عنه القرآن الكريم فى سورة القصص «رب بما أنعمت علىّ فلن أكون ظهيرا للمجرمين» ، كنت فى الثانية والعشرين من عمرى .

قرأت وقتها كثيرا فى القانون ، وعرفت التردد على مكتبة كلية حقوق القاهرة ومكتبة محكمة النقض ومكتبة نقابة المحامين ، وطالعت مجلات القانون القديمة ومؤلفات الأساتذة من الجيل الذى سبقنى ، واستأذنت رئيسى فى العمل أن استخرج نسخة من مفتاح مقر العمل ، وكان فى

ميدان عابدين ، وكنت أمكث فيه وحدى أو مع زملاء لى فى كل وقت وفى
أى وقت من نهار أو ليل أو أيام أجازة ، عشت القانون عيشا ، وأمكن
بذلك أن تلين مادته معى وتتطوع ، ألا ما أقوى الشباب .

جرت الأمور على هذه الوتيرة ، ثم فجأة حدثت زلازل ١٩٥٦ ، من
تأميم قناة السويس فى يونيه ١٩٥٦ إلى العدوان الانجليزى الفرنسى -
الاسرائيلى فى أكتوبر إلى جلاء المعتدين فى ديسمبر .. ستة أشهر
تحولت بها من حال إلى حال ، وبقيت تحوك فى صدرى عاما بعد عام
والسؤال يلح من أنت وأين وماذا أنت صانع ، أن يرى الإنسان بلده
تجتاح ويغزوها الأجنبى ، لهو أمر جلل ، ومن ذا الذى يحفظ توازنه مع
هذه القوارع الكبرى ، وكيف تسير حياتنا من بعد فى مألوف سيرها
السابق .

القانون يبنى على أرض المجتمع ، الضوابط والحدود والقيود ،
ويرسم قنوات الاتصال ، ويحدد مراكز الأفراد والجماعات بين بعضهم
البعض بضبط مجموعات الحقوق والواجبات المتبادلة وبين المؤسسات
والهيئات والكيانات التنظيمية ، سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية .. الخ
ولكن ما شأن كل ذلك إذا أنت قارعة من خارج هذا النسق فدكت
الأرض دكا دكا ، وهل يكفى وفاء لدين الجماعة أن نقدم إليها ما تريد
أن نقدمه ، أم يتعين أن نبذل لها من نوع ما تحتاجه فى كل حالة
مخصوصة .

كان هواي أن أجيب على هذه الأسئلة بما يعينني إلى سابق عهدي وعاداتي ، ولكن كأنها يد قوية شالنتني وحطنتني لأجد نفسي طالبا من نفسي ألا اكتفى بجهدى المبذول فى القانون ، وأن على أن أصرف فضل نشاطى فى التهيؤ للمشاركة فى الجهد العام المطلوب للجماعة من خارج التخصصات الفنية ، وكان هذا يقتضى برنامجا تفصيليا للحياة وإعادة البناء الذاتى ، فى السياسة والاقتصاد والفلسفة والتاريخ وعلوم الاجتماع مع مطالعة ما تيسر من آداب الشعوب الأخرى، واقتضى ذلك منى أن أضمر غالب علاقاتى الاجتماعية وأغلق على نفسي لأستغل كل ساعة زمن ، أغلق على نفسي إلا من بصيص ضوء وهواء يأتيني من عدد محدود جدا من الصداقات الوثيقة .

لم تكن آمال الشباب هى ما حركنى ولكنه كان شعورا مغذياً بالواجب انضاف إلى حماس الشباب وصحته ليجعلنى أداوم القراءة والنظر والمتابعة فى شبه تفرغ لذلك عددا من السنوات التالية ، ثم هممت بالكتابة فى الشؤون العامة بما يعرفه من اهتم بمطالعة ما أكتبه فى هذا المدى من السنين بدءا من عام ١٩٦٤ ، وكنت بلغت الثلاثين من عمري .

وفى عام ١٩٦٧ ، حدثت النقطة التالية بفعل ما أصابنا من هزيمة فى حرب يونيو ، ومثل هذه النقلات لا تحدث فى يوم وليلة ، إنما يتسرب

أثرها إلى النفس وتحرك في الصدر وتذيب ما تذيب من البناء الفكرى
الثقافى العام وتبعد ما تبعد وتعاد صياغة النفس والفكر على صورة
معدلة ، وصعوبة هذا الأمر أنك تصير دارسا وموضوعا للدراسة فى
الوقت نفسه ، تصير حكما وموضوعا للحكم ، وتصير مغيرا ومتغيرا
معا ، والأصعب من ذلك أنك عندما تبدأ مناقشة مشكلتك ، وقد ترى
تنحية بعضها وتعديل البعض الآخر ، إنما تجرى هذه الأمور ولم تستقر
لديك بعد مسلماتك الجديدة ، فى مرحلة الانتقال هذه تجد نفسك
كالسائر بين الكواكب ، تضعف جاذبية المسلمات الأولى لك وتقوى
الأخرى ، ولكن فى مرحلة معينة ترى نفسك كالثاني بين جاذبين
ضعيفين، هنا لن يأخذ بيدك إلا هداية الله جل شأنه ، فى هذه المرحلة
بالضبط توقفت عن الكتابة العلنية ، وعدت أقرأ وأناقش وأكتب لنفسى
أحيانا لأضبط أفكارى ثم أعيد اكتشاف نفسى مما كتبت . وبدل آمال
الشباب ظل الشعور بالواجب ، وبدل حماس الشباب حلت مسئولية
التصويب واستكمال النقص ، وقمت بذلك بصحة كهل لم يحتمل قلبه
الضغط فانجرح .

وقد أشرت إلى بعض هذه التجربة بما قدمت به عددا من الكتب
التي صدرت لى بعدها كالحركة السياسية ، ودراسات فى الديمقراطية ،
وبين الإسلام والعروية .

ومازلت على هذا «التكوين» والأمر بيد الله سبحانه .

ألفريد فرج

كل فنان له أساره وحياته الخاصة

أكذب عليك إن ادعيت أنى أعرف كيف يتكون الفنان - وأكون أكثر
ادعاء لو زعمت معرفتى بظروف تكوينى أنا نفسى كفنان وكاتب
مسرحى ..

فالفنان لا يتكون فى المعمل باخلاط وأمزجة من المواد الكيماوية
المختلفة ، وإنما يتكون بتأثره غير الملحوظ بظروف حياته ذاتها .
وظروف حياة الفنان هى تراكمات جزافية ومؤثرات بالمصادفة .
ولكن الموهبة الخاصة لها دور مهم فى تحويل هذه المؤثرات إلى
خبرة فنية وقدرة على صناعة الإبداع .
ويتعمد تكوين الفنان على دعامتين جوهريتين : القدرة على الملاحظة
والقدرة على التعبير .

والقدرة على الملاحظة تعيش وتترعرع وتنمو فى حب الحياة . وحب الطبيعة ، وحب الناس ، وحب الأيام .

الفنان إنسان يدقق النظر باستطلاع وشغف ، ولا يمكن أن يكون الانسان الذى يشيح بالوجه ، أو يعرض بالكتف ، أو يمضى فى غير مبالاة .

وهذا النظر الشغوف وهذه الملاحظة الدقيقة للآخرين ، وحب الاستطلاع ، والاهتمام .. هى قوام تجربة الفنان .

والقدرة على التعبير تصنعها قدرة الفنان على تذوق الفنون كلها .. الآداب .. والموسيقى والمسرح والتشكيل ، ومحاولته المبكرة لترويض موهبته للتعبير على نسق ذوقه وأسلوب تذوقه .

فقدرة التعبير تولد وتنمو فى مناخ أدبى وفنى متكامل ، ومن حب الفنان الصغير للفن وتذوق جمالياته ..

هذا حديث عن الأصول والقواعد .. ولكن كل فنان له سره ، وحياته الخاصة ..

عشق للموسيقي

فأنا أتذكر جلستى وأنا طفل صغير فى الرابعة من عمرى تحت قدمى عمى إلياس وهو يحتضن العود ويعزف عليه تقسيمات ما . ثم يغنى أغنية لسيد درويش ، فيما أذكر ..

وكان أبى أحيانا يصاحبه على الكمان وهو نفس الكمان الذى فشلت فيما بعد فى تعلم العزف عليه وأنا فى الثانوية .

ولم يكن عمى أو أبى عازفين ماهرين ، ولا كانا هاويين مثابرين عاشقين للموسيقى ، وكانت أمور الحياة العادية تصرفهما عن هوايتهما أغلب الوقت . ولكن لعل لمسة خفيفة من موسيقاهما قد مست روحى فى ذلك الوقت المبكر ، ونسيتها بعد ذلك ولكنها لم تنسنى وكمنت فى مكان ما بالنفس . محفورة فى ذاكرتى البعيدة ، إن أبى - رحمه الله - كان محدثا جذابا يدهش السامعين بطريقته فى القص والتعبير فينصتون لحكاياته كأن على رء وسهم الطير .. وكانت حكاياته تجرى مجرى النيمة وأبطالها غالبا من الأقارب أو الجيران أو زملاء عمله أو أصدقاء شبابه .

أبى والمسرح

العجيب أنى أتذكر الآن بوضوح أنه كان مغرما برواية تلك الحكايات بتفاصيل الحوار ، وكان يحرص على تكوين لهجته مع اختلاف الشخصيات ، فكأنه يقيم مسرحا أو شبه مسرح يقوم فيه بنوع من فن «المقلداتى» الشعبى القديم .. ويلوح بيديه ليؤكد ما يقول .

أتذكر أن من عشاق هذا الأسلوب فى الرواية ممن استمتعت

بالاستماع إلى حكاياتهم فيما بعد الشاعر الكبير كامل الشناوى وتوفيق
الحكيم نفسه والكاتب الساخر محمود السعدنى .
وقد نسيت حكايات أبى التى استمتعت بها فى صباى ، إلا أنها
ربما لم تنسى ..

كُتَابُ أَحْبَبْتُهُمْ

فى صباى جريت وراء جبران خليل جبران ثم رمحت وراء توفيق
الحكيم وقعدت لظه حسين وأعرضت عن العقاد وأعجبنى الاسلوب المرح
السهل لابراهيم المازنى ، وقرأت « زينب » هيكل أو « حديث عيسى بن
هشام » للمويلحى ، وارهقنتى نظرات وعبرات المنفلوطى ، وأحببت نداء
المجهول لمحمود تيمور ويوميات نائب فى الأرياف للحكيم وقنديل أم
هاشم ليحيى حقى ..

ولكنى لم أكن أفكر إلا فى الشعر . أحببت أن أكون شاعرا من
المدرسة الحديثة ، وكنت قد التحقت بكلية الآداب القسم الانجليزى
واختطفنى باقتماد .. الشاعر الكبير ت . س . إليوت ، وكادت روحى أن
تؤخذ للشعر بتشجيع زملائى الطلبة ..

ولكنى كنت فى ذلك الوقت ممثلاً هاويا فى المدرسة الابتدائية
والثانوية وفى الجمعيات الخيرية ..

وقد اكتشفت من خلال فن التمثيل أسراراً صغيرة من هذا الفن

الكبير تعلقت بها ، وتمردت بسببها على أسلوب المخرجين المدرسين كالآتى .

كان المخرج المدرسى - وهو عادة مدرس أو كالمدرسين - حريصا على إرضاء حضرة الناظر والهيئة التعليمية وأولياء الأمور ، فكان يضع الحكمة أو الموعظة البليغة فى ذروة المسرحية حتى يؤكد للجميع أن فن التمثيل فن أخلاقى وتربوى وجدير برعايتهم .

ولكنى أنا بالروح المتمردة ، ومن خلال انتظامى فى التدريبات واجتهادى فى تقمص روح الشخصية كنت احس بالقلق من هذا الروتين ، وأحس نيابة عن الشخصية أن هذا ليس وقت الحكمة والموعظة، وأن الذروة الساخنة التى ستسبق انتحار البطل أو موته فى المعركة الفاصلة هى اللحظة الدقيقة للمونولوج الذى تعبر فيه الشخصية عن ذات نفسها وهى فى حالة التهاب ! ،

الخروج عن النص

كانت هذه أول مرة أعرف فيها وارتكب فيها جناية الخروج عن النص وأعرف مكافأتها وأعرف عقابها .

فقد تأمرت مع نفسى لتأليف عشرة أسطر ، بديلا للموعظة ، عبارة عن مناجاة للنفس وتنديد بالحياة وترحب بالموت ، وفى اللحظة صفر ..

دفعت بيدي أحد زملائي الممثلين لأسرق منه ضوء الكشف الساطع
وألقيت مناجاتي بتدفق وحرارة .

أخذت مكافأتي بانتباه الجمهور فجأة بعد أن كان قد داعبه النعاس
ثم تصفيقه الحار لى ..

وأخذت عقابي بالفصل من فريق التمثيل ..

أول مرة أكتب للمسرح كانت هذه الحادثة الصغيرة ..

وقد اشتهرت بعدها - رغم ما نالني من عقاب - فى دوائر الهواة ،
فكان الممثلون يأتون إلى خفية من وراء المخرج - خاصة فى حفلات
الجميعيات الخيرية - لأجرى ما أراه من تعديلات على النصوص
التقليدية لمسرحيات ذلك الزمان ، ونصنع ذلك خفية عن المسئولين أو
المخرج ، والممثلون ينسخون المسرحية ، ويخفون بعدها النص الأصلي ،
وينسخون النص المعدل ..

وقد بلغ من اعجاب زملائي بى وقتئذ ، إنهم كانوا يطلبون منى
إخراج بعض المسرحيات للجمعيات ، وبلغ من اعجابى بنفسى والعياذ
بالله أن قبلت وفعلت .

أصبح المسرح مهنة سرية لى ، وتقاضيت المكافآت منه ، وعدلت فيما
أذكر مسرحية «صلاح الدين الأيوبي» ومسرحية «عدالة عمر» ومسرحية
«جنقيف» وهى من المسرحيات التى كانت متداولة فى هذه الحفلات
السبوعية الرسمية بين الهواة فى الاسكندرية .

ولكن قراء تى شكسبير وموليير تلك السنوات، وانبهارى بهما
وبغيرهما من مؤلفى الغرب ألزمنى حدى فتوقف نشاطى فى هذا
الميدان ، ونسيته بعدها .. ولكنه لم ينسنى على الأرجح .
هذه المهنة السرية دفعتنى للاستزادة من مشاهدة المسرحية -
فضلا عن اهتمامى بدروس الدراما فى الكلية .
ربما أكون قد شاهدت وقتها فى منتصف الاربعينات وبعدها معظم
مسرحيات الريحانى ويوسف وهبى وجمعية أنصار التمثيل .
وفى اتجاه هذا الفضول المسرحى لم أدع فرقة اجنبية تزور
الاسكندرية ويقوتنى مشاهدتها .. وساعدنى فى ذلك معرفتى
لغتين ..
شاهدت الكوميدي فرانسيز والأولد فيك والأوبرا الايطالية
وحفلات شكسبير التى كان ينظمها المعهد البريطانى وفرقة اتيليه
الفرنسية .
هذا لا أنساه إلى اليوم ، وأتمنى ألا يكون أثره قد نسينى .

بين الأدب والمسرح

نجاحى كشاعر فى كلية الآداب دفعتنى دفعا إلى الأدب ، ولكن فن
المسرح لم يطلق اسرى .. لذلك كان مثالى ونموذجى هو توفيق
الحكيم ..
أحببت أن أكون مثله فنانا لكن فى زمرة الأدباء .

الفيلسوف والولد الشقي .. ولم لا .. ؟
اشتغلت واجتهدت فيما كان يشغل توفيق الحكيم ويجتهد فيه من
مشاكل اللغة المسرحية ، وقضية البرج العاجى والفن الجماهيرى ، الفن
الرفيع النافع والفن الجذاب المتميز .. إلى آخره .
استغرقت فى القراءة بالعربية والانجليزية والفرنسية التى كنت لا
أجيدها وأبذل جهدا فى قراءتها . وعرفت معظم المسرحيين فى
مسرحياتهم الأصلية والمترجمة وفتنت بتشيكوف وبيراندلو وأبسن
وميللر وبنو .. ثم زحفت من هؤلاء على المعاصرين يونسكو وأوتربورن
وأثنوى وبرخت وفايس مع الزمان .
قرأت عن ستانيسلافسكى والملحمية والعبث والمسرح الحديث ..
ولكن شيئا ما لم أنسه ولم ينسنى وهو اشتراكى فى مظاهرات
الطلبة ضد الاحتلال الانجليزى وضد العهد الزائل كله .
كنت أقرأ صحف المعارضة بنهم وأناقش الأوضاع السياسية وأشعر
أننى يجب أن أكتب ، أن أكون صادقا مع نفسى الميالة إلى وجود الفنان
فى الصراع الاجتماعى والسياسى .
قرأت فكرة الالتزام عند سارتر ثم عرفت أدبيات الآداب والفنون عند
الماركسيين ، وأشفقت على نفسى من الحيرة والبلبل فكنت دائما أجا
إلى برج توفيق الحكيم لأعتمد فيه وأسكن فى هدوئه .

أنا وتوفيق الحكيم

ولما عرفت وصادقت الحكيم كان هذا الشيخ الكريم بالنسبة لى
المرجع وشاطئ الأمان وزادا لا يفنى من المعرفة والحكمة والاحساس
الفنى الرهيف .

وكان لجيلنا كله ، ولى شخصيا ، حظ الجلوس إلى طه
حسين ، ومجادلة توفيق الحكيم ، وتذوق الحكمة فى حديث يحيى
حقى .

ولكن هل تعتقد أن الفنان لا يتأثر بأبناء جيله وأصحابه الذين
يجالسهم حتى الهزيع الأخير من الليل أيام الشباب ؟ .
طبعاً يتأثر بهم .

يوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى ونجيب محفوظ فى ندوته
الأسبوعية .. صلاح عبد الصبور ونعمان عاشور وفتحي غانم ، وفى
دائرة أوسع الفنان عبد الهادى الجزار وسيف وانلى ، وبلغ حمدى
وكمال الطويل .

كل هؤلاء ساهموا فى صياغة وجدانى وعقلى واتجاهى وأسلوبى ..
وكان فى مقدمتهم دائما الفنان الشامل والصديق الحبيب صلاح جاهين
والدكتور لويس عوض والفكر المسرحى على الراعى .
فهذا الجيل الذى كان يكن أكبر الإعزاز والإكرام والتقدير لأساتذته

السابقين عليه ، كان قد عزم العزم الأكيد على التمرد عليهم وإحداث ثورة فنية شاملة تكاملت خطوطها فى الستينيات .

فالفنان لا يبدع أبداً فى عزلة عن سائر المبدعين وإنما يبدع الفنان عادة فى إطار الحركة الفنية والتيار الفنى .

ولكل فنان شخصيته وأسلوبه وفكره ، ولكنه يتطور ويضئ فى الكوكبة أو فى السديم .. وكما يضئ يستضىء بمن حوله من المبدعين .

وإلا .. فهل كانت المناقشات الساخنة بين أبناء جيلى ، وتبادل الملاحظات وتبادل الخواطر والكتب مجرد تزجية للفراغ وإضاعة الوقت ١٩ .

هكذا وصلت أولى مسرحياتى إلى دار الأوبرا . وأيقنت أنى هكذا تكونت .

ولكن هذا كلام كان سابقا لأوانه ، فهل يمكن أن تؤثر الكتب فى الفنان ، وأن يؤثر فيه الآخرون ولا يؤثر فى تكوينه الزمان ؟
والزمان هو الأجيال المتداخلة المتدافعة التى تعاصر الفنان وتحبب فنه أو تعرض عن فنه أو تحثه على هذا وتثنيه عن ذاك .. هى جمهور الفنان .

الفنان يتأثر بجمهوره

ولا تحسبوا أنى أزعم ذلك من باب الترخص أو الديماجوجيا مثلاً

نسمع من أهل الفن الهابط قولهم «أن الجمهور عاوز كده» أو مثلاً
نسمع من أعتى الطغاة والحكام الديكتاتوريين أنهم إنما يتحدثون باسم
الشعب ..

لا هذا ولا ذاك .

وإنما هو حب الفنان خالص لا للفن المجرد ، وإنما للعطاء ، فالفن
فى جوهره وأصله عطاء الموهبة للناس .. وجائزة الفنان هى سعادة
الجمهور بفنه وتقديرهم لعطائه .

احترام جمهور المسرح

وربما يجلس الفنان إلى مكتبه مع شياطينه أو أشباح ملهماته - أو
يجلس إلى نفسه ومع خياله وتصويراته وفكره .. ولكنه يشعر دائماً
بوجود جمهوره فى الصالة ، ويريد أن يبسط لهم المقعد بمجاملة السهل
المتع و أن يثير فيهم مكان حب الجمال وحب الاثارة وحب النظر وحب
السمع وحب التذوق .

يكذب الفنان أن ادعى أنه لا يلقى بالا إلى رضاء الجمهور أو
لامبالاته ، أو رضا النقاد أو لامبالاتهم .

لذلك كنت حريصاً على الاجتهاد باستحداث جماليات لغوية فى
حلاق بغداد وسليمان الحلبي ، والاجتهاد بالغوص فى بحار الموضوع
لاقتناص المشاهد السحرية التى تدهش المتفرج ، ولخدمة فن الممثل

باشغاله دائما بالفعل والحركة ، والحرص على جمال التعبير اللغوى ..
وكل ما أحببت أنت أو أحب غيرك فى مسرحياتى ..
وأى نجاح أحرزته فى هذا المضمار إنما اكتسبته من ملاحظة
الجمهور المتفرج فى قاعات المسرح أثناء مسرحياتى ومسرحيات الغير ،
وحرصى على اكتشاف واكتساب موهبة التواصل الساخن مع الجمهور
.. واهتمامى برأى النقاد ..
القارئ والمتفرج عندى لهما أثر فى تكوين أى فنان ، وأن خالفتنى
فى ذلك .. فاقبل قولى أنهما كان لهما أثر فى تكوينى ..

مصطفى سويف

جمعت قصصى وأشعارى وأحرقتهما

أشرقت الحياة علىّ فى ضاحية من ضواحي القاهرة ، وفيها عشت طفولة وادعة ، تتخللها مشاعر الرضا ويغلّفها نظام مستقر لا يختل ، سواء فى أشكال التعامل السائدة أو المسموح بها داخل الأسرة ، أو فى تتابع الأحداث المقدر لها أن توجه مسار الجميع عبر الأيام ، وفى هذا الصبح المبكر من الحياة كان الهواء مفعما حولى بسيرة العلم كأنما هو الخير الأسمى فى الوجود ، وفيما بعد ، عندما عرفت طريقى إلى دراسة الفلسفة شعرت بشيء من التناغم بين هذا المعنى وما قصد إليه أفلاطون فى جمعه بين الحق والخير والجمال .

كانت كلمة العلم تصدر أحيانا فيما يدور فى الأسرة من أحاديث ، هكذا مجردة ، فلا أعى من ذلك إلا أنهم يتكلمون عن شيء يثير لديهم مشاعر سارة ، ملؤها الإكبار وربما الخشوع أو الهيبة أيضا ، وتتسرب

إلى نفسى بعض هذه المشاعر بصورة ما ، وكانت الكلمة تستخدم أحيانا أخرى مقترنة باسم جدى لأمى ، الشيخ مصطفى بركة ، وكان يقوم بالتدريس فى الأزهر ، وكان واضحا أن الرجل قد ترك لأبنائه وبناته ذكرى محفورة بعمق فى نفوسهم ، اختلط فيها الحزن على وفاته مبكرا إذ توفى فى أوائل الأربعينيات من عمره ، والشغف الشديد بشخصه ، مع الإكبار لصفاته وعلى رأسها العلم والاعتداد بهذا العلم وبالعقل الذى يحمله . وعندما كنت أسمع الكلمة ماثلة فى هذا السياق كنت أجدنى أتعامل مع راقات من المعانى والمشاعر والايحاءات تنطوى على أقدار من الوضوح والإبهام معا ، وضوح لا بأس به ، يغرى النفس بالاطمئنان له ، وإبهام يدفع إلى مزيد من الاقتراب من عالم الكلمة بقصد الاستشفاف والاستكشاف . وعلى مر الشهور والأعوام اختفت الشخوص المتحركة على المسرح ، وبقيت المعانى والمشاعر والايحاءات أصداء من الماضى تلاحقنى ، على وعى منى أحيانا ، وعلى غير وعى منى أحيانا أخرى ، وأنا الآن أتعامل مع العلم على مستويين ، مستوى تحدده القواميس ، ومستوى آخر تمتزج فيه عناصر متعددة لا أتبين منها إلا القليل ، فيها أن العلم هو المعرفة الصادقة ، وأن العلم قيمة ، وأن العلم ينطوى على شعاع من القداسة .

فى مرحلة الصبا

ألحقت بالدراسة الابتدائية وقد أكملت السابعة من عمرى ، ولايبقى

فى ذاكرتى عن هذه الفترة من عهد التلمذة إلا انطباع واحد بارز يدور حول بزوغ الحس اللغوى عندى وتكاتف عدد من العوامل المدرسية والأسرية على تنشيطه ، كنت ألقى فى المدرسة تشجيعا خاصا أثناء دروس المطالعة العربية ، وكنت أجد فى البيت الحفز والتشجيع فى أكثر من اتجاه وبأكثر من صورة ، كانوا يحفزوننى إلى حفظ القرآن الكريم ، وكنت كلما انتهيت من حفظ جزء أو سورة جلس أحدهم يمتحننى ويعنى عناية خاصة بتصحيح أخطائى فى النطق ، ثم ينفحنى مكافأة على أدائى ، وكانوا يشجعوننى على حفظ ما استطعت من الشعر العربى القديم ، وكان بعضهم يطيب له أن يدعونى لى أقرأ على مسمع منه فقرات أحد الكتب العربية القديمة أو الحديثة ، وكنت سعيدا بهذه التدريب لسبب أو لآخر ، فقد كنت ألتزم لىهم فى كل ذلك رضى عن أدائى ، وأذكر فيما أذكر عن تلك المرحلة أننى كثيرا ما كنت أجلس منفردا فى إحدى الحجرات لأقرأ بعض النصوص الأدبية بصوت مسموع ، أو لأقرأ سورة أو بضع سور من القرآن الكريم ، أنا القارئ وأنا المستمع ، وكنت ألقى فى ذلك نوعا من المتعة لا أدرى أين تقودنى ، ولكنى كنت أرحب بها خالصة لذاتها ، وقد استمر هذا الشغف بنطق اللغة العربية يصحبنى فى سنوات العمر التالية ، وامتد ليشمل القراءة والاستماع معا سواء أكنت أنا القارئ أم لم أكن ، ثم امتد ليشمل قدرا

ملحوظا من الاهتمام بسلامة اللغة فى جبهاتها جميعا ، وامتد أكثر من ذلك ليصير جهدا دؤبياً على التمكن منها ، وأصبحت ولا أزال ألتمس الأسباب من حين لآخر لأقضى بعض الوقت قارئاً فى معاجمها وما هو أقرب إلى المعاجم ، من هذا القبيل قراءتى فى «لسان العرب» وفى «فقه اللغة» للثعالبى ، وفى «الفروق فى اللغة» لأبى هلال العسكرى ، وفى «إصلاح المنطق» لابن السكيت .

فترة المراهقة

وخطوت من الصبا إلى زمن المراهقة ، وفى هذا الجزء من الرحلة عرفت الطريق إلى قراءة الأدب ، ثم إلى القراءة على إطلاقها ، قضيت بضع السنوات المبكرة من مرحلة الدراسة الثانوية فيما يشبه الاستكشاف المحموم لقدراتى وهواياتى ، فتنتقلت بين ألعاب القوى ، والأشغال اليدوية ، والتمثيل والموسيقى والخطابة . وقبل أن يحل موعد الثانوية العامة بعام أو عامين كنت قد شاركت فى مسابقة للأدب العربى على مستوى القطر ، وفى هذا الإطار اكتشفت قراءة الأدب ، واستكشفت بالاضافة إلى ذلك حدود قدراتى كقارئ ، كنت فى السادسة عشرة من عمرى عندما قرأت « الأيام » لطله حسين ، فإذا بى أعاود قراءته مرات ومرات فى صيف واحد ، وقرأت كتباً أخرى وعدت إلى قراءة بعضها قراءة ثانية وثالثة فى الصيف نفسه ، وحفظت عن

ظهر قلب ديوان إسماعيل صبرى باشا ، وعرفت الطريق إلى دار الكتب بباب الخلق ، وكنت أقضى هناك ساعات النهار من أوله إلى آخره أقرأ ما أعرفه وأبحث عن جديد لا أعرفه لكى أقرأه ، وأشعر طوال الوقت بأننى أعيش حلما سعيدا لا أكاد أصدقه ، وهكذا بدأت طريقى باللغة يعينى منها الجرس فإذا هى تقضى بى إلى قراءة الأدب ، ثم إلى القراءة على إطلاقها ، ومع القراءة عرفت اقتناء الكتب ، ولازلت أقتنى الكتب حتى استغنيت عن المكتبات العامة بمكتبتى الخاصة .

كانت خبرة القراءة بالنسبة لى ، ولازالت ، رحلة خارج المكان ، فانا فى تلك اللحظات أتجاوز القاعة التى أجلس فيها ، أعرف بطبيعة الحال أننى أجلس فى هذه الحجرة أو تلك من حجرات بيتى ، لكن هذه المعرفة ينخفض الوعى بها شيئا فشيئا ليحل محلها وعى بنوع آخر من المكان ، يشبه أن يكون مكانا مجردا أو مطلقا ، ليس له صفات محددة سوى أنه مشرق ، ورحب ، أكثر إشراقا ، وربما أشد رحابة مما أعرف ، فانا لا أرى فيه أركانا مظلمة ، ولا أدرك له حدودا مرئية ، فى هذا النوع من المكان أجدنى قارئا ، ثم لا تلبث القراءة أن تصبح استماعا للكلمات مقروءة بصوت أقرب إلى صوت المؤلف كما أتخيله ، وتفقد القراءة بذلك هويتها لتصبح لونا من المناجاة ، نعم ، تصبح مناجاة وليست حوارا ، فانا لا أناقش الكاتب عادة ولكنى أستمع إليه ، وهو يتكلم على مسمع

منى ، قد استمهلته من حين لآخر لأن عقلى لا يكاد يلاحقه ، وقد أطوى الكتاب لكى أرغمه على التمهّل أو التوقف حتى أسترد أنفاسى ، غير أنى لا أحاوره ، ولا أجدنى مستعدا للجدل إلا فى مرحلة تالية ، عندما أترك الكتاب وأنصرف عنه ، وأستريح من أصداء الصوت تلاحقنى ، عندئذ أبدأ فى اجترار بعض ما قرأت ، وأستطيع حينئذ أن أتوقف عند هذه الفكرة أو تلك لأنظر فيها فأقبلها ، أو أؤجل الحكم عليها ، أو أنتقدها ، هكذا أقرأ الآن وتعتبر القراءة بالنسبة لى طريقا إلى عالم متكامل ومكتفى بذاته يمتعنى ويشق علىّ فى آن معا ، وقد عرفته على هذا النحو منذ اكتشفته فى فترة مزاهقتى بوقد ظل على ما هو عليه طوال هذه السنين ، كل ما فى الأمر أن بعض خصائصه وأحواله ازداد مع الأيام وضوحا واستقرارا ، فازدادت تمكنا منى وازدادت تمكنا منها .

فى شرح الشباب

ثم اتجهت إلى الجامعة ، فاخترت طريقى كما أردت لا كما أريد لى ، أرادت الأسيرة أن أدرس الطب ، وأردت أنا أن أدرس الفلسفة ، وكنت قد قرأت بالفعل كتباً فى الفلسفة ، وكان فى مقدمتها «قصة الفلسفة اليونانية» ، و«قصة الفلسفة الحديثة» اللذين قام بتعريبهما عن «ويل يورانت» أحمد أمين وزكى نجيب محمود ، وعندما فرغت من القراءة كنت قد اتخذت قرارى .

ولقد سألت نفسي مرارا وتكرارا ، هذا السؤال البسيط المباشر :
 ماذا فى الفلسفة ؟ وكنت فى كل مرة أخرج بإجابة جزئية أضمرها إلى
 جزئيات أخرى لتخون منها أجابة وافية ، وفيما أروى عن نفسي فقد
 وقعت أسير الانبهار بالتفكير الفلسفى منذ الصفحات الأولى فيما قرأت
 عن الفكر اليونانى . ثم أخذ أمر هذا الانبهار يتكشف لى على مر الأيام
 والاعوام ، فإذا كانت القراءة قد أطلقت يدى فى أن أحصل من المعرفة
 على ما أشاء ، فقد أطلقت الفلسفة عقلى فى أن أحصل على المعرفة
 بالكيفية أو بالصورة التى أشاء ، بعبارة أخرى كانت الفلسفة طريقي
 إلى أن أوجه عقلى فيما أقرأ ، تعلمت منها أن أكون عقلا فعلا بالنسبة
 لما ألتقى من معرفة ، لا أن أكون عقلا منفعلا فحسب ، تعلمت منها أن
 أعقد مقارنات ، وأن أستشف علاقات تغيب عن النظرة غير المدربة ، وأن
 أصل إلى تعميمات بعيدة ، وأن أمتحن هذه التعميمات من حين لآخر
 على محك الاتساق المنطقى ، وأن أكامل بينها واستمتع بما يتولد عن
 هذا التكامل من أبنية تجمع إلى جمال التناسق قدرا ملحوظا من كفاءة
 التنظيم .

وقضيت سنوات الدراسة الجامعية فى استمتاع متصل ، كنت ألتقى
 المحاضرات فيما شاء الأساتذة من موضوعات ، ثم أقرأ فى هذه
 الموضوعات مايزيد على مادة المحاضرات أضعافا مضاعفة ، وكانت

معظم قراءتى تنصب على الفلسفة اليونانية القديمة بوجه خاص ، قرأت عددا من محاورات أفلاطون ، وقرأت بعض كتابات أرسطو فيما نقله أحمد لطفى السيد إلى العربية ، لم أكن أقرأ لأحفظ ، كنت أقرأ لأستمع ، ولذلك لازمتنى ظاهرة إعادة قراءة النص مرة ومرة . وهكذا قرأت نصوص أفلاطون عدة مرات ، كذلك أرسطو فى « الكون والفساد » ، وفى « الأخلاق إلى نيقوماخوس » ، وفى « الشعر » ، وقرأت « فن الشعر » لهوراس ، ونصوصا من ديكارى وفرانسيس بيكون ، وابن رشد وابن سينا وسببنوزا وكانت وهيجل وشوبنهاور ونييتشه وكارل ماركس وأنجلز وفويرباخ ، كان القليل من هذه القراءات بالعربية ، والكثير منها بالانجليزية ، وكنت قد اهتمت إلى طريق القراءة فى المراجع الانجليزية سواء أكانت تحوى نصوصا فلسفية أم كانت تؤرخ للفلسفة ، وأعجبنى بصورة خاصة كتاب فندليند المنقول عن الألمانية إلى الانجليزية ، وبلغ بى الشغف بمعايشة مادته أن وجدتنى أترجم أجزاء منه إلى العربية ، ترجمت بالفعل بضع مئات من صفحاته التى تناول فيها الفكر اليونانى القديم ، وأجزاء من الفلسفة اليونانية الرومانية .

اتساع الاتفاق

لم تقتصر متعتى ومسعاى إلى الاستزادة منها فى سنوات الدراسة

الجامعية على القراءة وحدها ، ولكنها امتدت لتشمل مساحات عريضة في حياتي ، عرفت في هذه الفترة مذاق الصداقة الراقية ، فقد نشأت حولي صداقة خالصة لوجه الفكر والمعرفة والذوق الرفيع ، جمعت بيني وبين عدد محدود من الزملاء ، كان على رأسهم محمود أمين العالم ، ويوسف الشاروني ، وعباس أحمد عثمان ، كنا نقضى الساعات يوما بعد يوم في أحاديث لا تنقطع ولا يصيبنا منها الملل حول الفلسفة ، وقد تمتد لتشمل الفكر والأدب والشعر جميعا ، وقد تتطور هذه الأحاديث فتصبح عرضا لما قرأنا ونقرأ ، أو تصير مناقشات نشجذ فيها قدرات بعضنا البعض ، وكنا نأخذ أنفسنا مأخذ الجد إلى أقصى المدى ، فلا يتخلل أحاديثنا من الهذر إلا النزر اليسير .

وفي سنوات التلمذة الجامعية كذلك خطوت خطواتي الأولى نحو تلقى الموسيقى الكلاسيكية الأوروبية ، ونحو الطبيعة السياسية الشاملة للفكر الماركسي . وكان ذلك في الحالين بفضل لويس عوض ، وفي الفترة نفسها تطورت صلتى باللغة الانجليزية ، فازدادت طواعيتها في يدي ، وامتدت قراءتي بها لتتناول الأدب الانجليزي بعد أن كنت أقتصر على الفلسفة ، فقرأت سومرست موم ، ود. هـ . لورانس ، وأوسكار وايلد ، وغيرهم ، وبهرني أسلوب أوسكار وايلد بثرائه في الصور والاستعارات ثراء منقطع النظير ، ثم لم ألبث أن تقدمت إلى قراءة الشعر الانجليزي ،

وعثرت على موسيقاه قبل أن أعثر على معانيه ، وظللت لفترة طويلة أسيرا لأعشار «شلى» ، وربما عاملت قصيدته «روح الوحدة» مثلما تعاملت مع «أيام» طه حسين فظللت أعيد وأزيد فى قراءتها وكأننى بسببلى إلى اكتشاف المزيد وراء هذا النبع الشاعرى الأصيل ، وكذلك عايشت قصيدة توماس جرائ «المرثية» ، عايشتها بهذا اللون من الإلحاح الذى لا أزال أعجب له ، ولا أزال أمارسه بين الحين والحين ، وتجاسرت بعد ذلك فبدأت أقرأ ما اعتبرناه حينئذ شعراً انجليزيا حديثاً قرأت بعضاً من شعر سيندر وأودن وإليوت، وأظننى لم أفهم معظمه ، ولكنى واطبعت على المحاولة ، ولم تكن تخلو من بعض المتعة ، ربما كنت استمتع بالإيقاع ، وربما كنت أقنع ببعض الصور التى استطيع أن أنفذ إليها من حين لآخر ، ثم لم تلبث اللغة الانجليزية أن مهدت السبيل أمامى إلى مطالعات أكثر تنوعاً من ذى قبل ، فضمت العلم إلى الفلسفة والأدب والشعر ، ولم يقتصر أمرها على تناول الكتاب الانجليز ولكنها امتدت لتشمل غيرهم من الفرنسيين والروس والألمان مادامت الأعمال منقولة إلى الانجليزية ولا أزال أذكر أن قرأت فى تلك الفترة «موباسان» و«جوركى» و«چيته» ، كما قرأت بإعجاب يكاد يستحيل إلى ذهول «تطور علم الطبيعة» لالبرت أينشتاين ، وبعض ماكتب «ج . ب . س . هالدين» فى أسرار التطور البيولوجى . واستقر فى نفسى من ذلك

كله يقين بأن العربية والانجليزية معا فتحا أمامى طريقا لا نهاية لماده :
الطريق إلى الألفة بالكثير من نفائس التراث الانسانى فى الأدب
والفلسفة والعلم .

على مشارف التخرج فى الجامعة

ووجدتنى فى ذلك الوقت نهبا لصراعات عنيفة بين رغبات وميول
يحاول كل منها أن يستحوذ على عقلى ووجدانى ، فقد بدأ الاقتراب من
التخرج يلوح فى الأفق ، ومعه أخذت تتوالى على النفس أسئلة تبدو
أحيانا متشابكة تظهر معا وتختفى معا ، وأحيانا أخرى تتتابع فى
تسلسل منطقى كلما فرغت من سؤال تولد عنه ثان فثالث ، ويبدو أن
الجذر الأول لهذه التساؤلات كان قد تم حسمه فلم يتعرض لأى نقاش ،
فقد تبينت أنى سوف استمر فى الاشتغال بالفكر على امتداد العمر ،
كان هذا أمرا مقطوعا به أما السؤال الذى بدأ يلح على فكان سؤال
حول أى المجال سوف ألتزم به ، الفلسفة أم الأدب ؟ وكانت علاقتى
بالأدب قد تجاوزت التلقى إلى الإنتاج .. وكان ذلك وأنا فى منتصف
طريق التلمذة فى الجامعة . كتبت عشرات القصص القصيرة . وخطوت
فى الطريق إلى كتابة رواية طويلة وقد أنجزت نصفها أو أكثر ونظمت
الشعر الموزون المقفى ، كنت أكتب ولم أكن واثقا من أنى سوف أصبح
كاتبا ، وأقرض الشعر دون أن أتأكد من مصيرى معه ، كانت علاقتى

بهذا الانتاج أقرب إلى التجريب منها إلى بدء السير فى طريق الالتزام ، ومع ذلك فقد كان ما تدفق من نفسى فى هذا الانتاج كافيا لأن أتعلق بإرهاصات لصورتى أدبيا وشاعرا ، واستمر الصراع يلاحقنى ويضيق الخناق علىَّ يوما بعد يوم ، ولأمر ما لم أقبل فى أعماقى إجابة تقوم على الجمع بين الطرفين ، الفلسفة والأدب ، كنت واثقا من أننى أستطيع أن أجمع بينهما كمتلقٍ ، لكننى كنت واثقا كذلك من أننى سوف أعجز عن أن أنتج فى المجالين نتاجا متميزا ، لابد من التفرغ إذا كان مطلبنا هو الانتاج الرفيع .

ويوما من الأيام اقتربت من حسم الصراع ، ورأيت أن الخطوة اللازمة لانجازه هى أن أجمع كل تجاربى فى القصة والرواية والشعر وأن أحرقها لأقطع بلا رجعة بينى وبين ماض قد يظل يشدنى إليه إذا بقى له جسم ملموس ، وكان أن فعلت ذلك .

ويوم أقدمت على تنفيذ هذه الخطوة كان الأدب والشعر قد نفذا إلى الفلسفة كما عشتها وتعلقت بها ، فكان قرارى أن أتخصص فى دراسة فلسفة الجمال .

النهاية والبداية

وذاث يوم وأنا بعد فى السنة الرابعة سألنى أستاذى يوسف مراد ، ماذا تنوى أن تفعل بنفسك بعد التخرج ؟ فكانت إجابتى حاضرة : قلت

سأدرس فلسفة الجمال ، وعلق الرجل على إجابتي بسؤال آخر
قائلا :

ولم لأدرس موضوع الجمال فى إطار علم النفس ؟ وقام إلى مكتبته
فتناول منها كتاب وودورث فى «علم النفس التجريبي» وقال ها هنا فصل
يكمله عن الدراسات النفسية التجريبية للجمال ، فى هذه اللحظة نفسها
، وقبل أن أغادر المكان أو الزمان ، بدا لى أن هذا الحوار القصير أزاح
الغطاء عن ركن دفين فى نفسى ، فقد كنت تعلقت بالعلم كذلك من خلال
قراءتى المتأخرة ، وكانت السمة المميزة للعلم فى نفسى هى ضبط
المعرفة ، فلما جاء هذا الحوار أثار ذلك فى نفسى تناغما مع أصدقاء
من ماض بعيد ، حين كانت سيرة العلم والعلماء تتردد من حولى ،
مفعمة بمشاعر الإكبار والخشوع ، وتبلورت أمامى فجأة حياتى التى
أنا مقبل عليها ، سوف أدرس الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر،
كانت هذه الصيغة اختزالا بليغا لكل ما اعتبرته جميلا وجليلا فى فترة
تكويني المبكر .

شغلت نفسى بالفكر

ومازالت الأسئلة تراودنى ؟

واحتفظت بعد التخرج بصداقاتى التى نعمت بها أيام التلمذة ، غير
أنها فترت مع الأيام ، وربما انتابها الضعف لتفسح المجال لصداقات
أخرى جديدة لم تكن تقل بهاء ولا رقىا عن سابقتها ، لكنها كانت

تختلف عنها فى توجهها وفيما تمسه من جوانب فى نفسى . فقد تخلقت فى حياتى منظومتان جديدتان من الصداقة ، إحداهما تضمنى مع أحمد بهاء الدين ، وفتحى غانم ، وعبد الرحمن الشرقاوى ، وتجمع الأخرى بينى وبين مجموعة من المشتغلين بالفن التشكيلى ، محمد حامد عويس ، ونبيه عثمان ، ويوسف سيده ، وكان الجديد الذى يجمع بين هاتين المنظومتين من ناحية ، ويفصل بينهما وبين صداقتى أيام التلمذة هو التوجه نحو الانتاج . وهكذا وجدتني مع أحمد بهاء الدين وصاحبيه نكتب فى مجلة «الفصول» التى كان يصدرها الاستاذ محمد زكى عبد القادر ، ووجدتني من ناحية أخرى ارتاد معارض الفن التشكيلى ، واهتم بما يصوره محمد عويس وزميلاه فى مراسمهم اعدادا لهذه المعارض ، وأشارك فيما يدور بينهم من مناقشات تقنية أحيانا ، وفلسفية أحيانا أخرى حول قيمة هذه اللوحة أو تلك أو حول طبيعة فن التصوير المعاصر وما يفرق بينه وبين التصوير التقليدى أو الاكاديمى كما كانوا يسمونه ، أو حول الدور الحقيقى الذى أداه سيزان فى نشأة هذا الفن المعاصر ، وأيهما كان اسهامه اكبر وزنا فى دعم هذا التيار بيكاسو أم ماتيس ؟ .

التخصص فى علم النفس

وفى تلك الفترة كنت أعمل بنشاط فى دراسة الاسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر ، وكان يوسف مراد قد أسس بالاشتراك مع

مصطفى زيور «مجلة علم النفس» وكان النشر فى هذه المجلة أحد همومى ، ثم لم يلبث أن أصبح همى الاول ، وسرعان ما تبلورت صورتى أمام نفسى باعتبارى متخصصا أو ساعيا الى التخصص فى علم النفس فى المقام الاول ، ومتقفا مهتما بالمشاركة فى الثقافة العريضة فى المقام الثانى ، ومنذ ذلك الوقت لم أسمح بالخلط بين هذين الشقين فى شخصى ، وما سمحت لاحدهما أن يطغى على الآخر أو يفسده.

وفى فبراير سنة ١٩٤٩ حصلت على درجة الماجستير . وكان أحد المتحنيين فى لجنة المناقشة هو الاستاذ أمين الخولى ، وكان حديثه يشف عن قدر كبير من الرضا عن البحث ونتائجه . ويبدو انه تحدث بذلك الى تلاميذه ومريديه فى قسم اللغة العربية وأدائها . ومن ثم فقد بدأت اتلقى مظاهر الترحيب والتقدير من حيث لم أتوقع . ثم أتيح للبحث أن ينشر فإذا به بعد النشر يلقى مزيدا من الاقبال بصورة لم تكن تخطر لى على بال .

المخاض الاجتماعى

وكانت مصر ، منذ تخرجت فى سنة ١٩٤٥ تموج بتيارات الفكر الاجتماعى والسياسى تغطى الساحة من أقصى اليمين (حيث «شباب محمد» و«الاخوان المسلمون») الى أقصى اليسار (حيث التنظيمات الشيوعية بأجنحتها المتعددة) وكان العالم كله يضطرب بتيارات مماثلة

إذا كان يعيد ترتيب أموره بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، وكان نصيب مصر من تلاطم هذه الأمواج وفيرا ، لأنها جمعت بين طليعة مثقفة طموحة ، وأحزاب تتصارع بأساليب تتراوح بين التهيج الاعلامى المتصل والاغتيال أو التصفية الجسدية من حين لآخر ، وقصر ملكى رائحته عفنة بينما هو يفسد بأمواله الذمم ويشتري الأقلام والأقواء ، وقوى اجنبية يتراوح تدخلها بين الاختراقات المستورة واستعراض القوة فى شوارع القاهرة وميادينها ، ثم بالاضافة الى هذا كله غرست اسرائيل غرسا على حدودنا الشمالية فى مايو سنة ١٩٤٨ ، وأصبحت بذلك عاملا يدخل فى حسابات الحركة على مسرح الأحداث المصرى ، وفى هذه الفترة زادت الصحف زيادة ملحوظة فظهرت جريدة «الزمان» ، و«أخبار اليوم» ، و«الوادى» ، و«الجماهير» ، و«النداء» ، و«الطلیعة» . ونشط الادب السياسى نشاطا ملحوظا ، وكنا نقبل على مقالات طه حسين ، ومحمد مندور ، وكنا نقرأ لغيرهما كذلك ، ومع هذه الفورة نشطت الحركة الثقافية بوجه عام ، فصدرت عن دار المعارف سلسلة «اقرأ» وصدرت عن دار الكاتب المصرى «مجلة الكاتب المصرى» وكان يرأس تحريرها طه حسين ويكتب فيها مقالات بالغة الدلالة ، ويستكتب الى جانب ذلك اشخاصا نوى أسماء لامعة ، من أمثال سهير القلماوى

وسليمان حزين ، وكان ينشر الى جانب ذلك سلسلة من الترجمات من نفائس الادب العالمى .

فى هذا الاطار عشت مع أصدقائى طوال النصف الثانى من الاربعينيات ولم تكن بمعزل عما يجرى حولنا ، فقد فتحنا نوافذنا فكانت الأحداث تمسنا على أكثر من مستوى ، وكانت نفوسنا تضطرم بالافكار والانفعالات بما يناسب جيشان البلد والعالم بالافكار والتيارات من حولنا وفى تلك الفترة نشر يوسف الشارونى أول قصة قصيرة له من طراز لم نشهده من قبل ، كان يوسف ينشر من قبل ، ولكنه نشر فى هذه المرة شيئا جديدا كل الجدة ، قصة «المعدوم الثامن» ، ونشر فتحى غانم رواية «الجبل» ونشر طه حسين «عثمان أو الفتنة الكبرى».

كان البلد فى حالة مخاض يمضى الى الابداع الجماعى والفردى ، وجاءت هيلدا زالوشر الى مصر ، وكانت كاتبة مرموقة فى فلسفة الفن وقد نشرت مقالا أو مقالين فى مجلة «الكاتب المصرى» ، وكنت معهم ، واحتدم النقاش بيننا ، وكان عبد الرحمن الشرقاوى مستمرا فى نظم الشعر ، ولم يكن راضيا عما ينظم ، واتيح له يوما أن يسافر الى فرنسا ، وإذا بخطاباته تنقل إلينا نبأ اكتشافه لشاعر فرنسى قديم لم يكن قد سمع به من قبل ، هو فرانسوا فيون ، وكان عبد الرحمن سعيدا بهذا الاكتشاف اذ كان يرى فيه ثائرا يصلح للتوحد معه ، وكانت

أحداث الحرب الكورية قد بدأت تتداعى وتزعج الضمير العالمى ، وكان الاعلام العالمى شديد الاهتمام بالنشر عنها ، ولم يكن العالم قد أفاق بعد من هول الصدمة التى أصابته بالقاء القنبلة الذرية الاولى على «هيروشيما» حدثت الواقعتان فى مدى زمنى محدود ، مدى الرئاسة لرئيس أمريكى واحد ، هو الرئيس هارى ترومان ، ومن فرنسا تلقى أحمد بهاء الدين خطابا من عبد الرحمن الشرقاوى يحمل المخطوطة الأولى لقصيدته «من أب مصرى الى الرئيس ترومان» وفى بيتى جلس أحمد بهاء الدين يقرأ القصيدة على مسمع منا ، أنا وفتى غانم وفاطمة موسى ، وكنا قد تزوجنا فى أوائل سنة ١٩٤٩ ، وعندما فرغ بهاء من قراءته كنا على يقين من أن عبد الرحمن قد فتحت أمامه أبواب الشعر الحديث .

وفى نوفمبر سنة ١٩٥٠ عينت معيدا بقسم الفلسفة بكلية الآداب ، فى جامعة القاهرة ، وسعدت بهذا التعيين لانه يزيد من تأكيد هويتى كما أريد لها أن تتشكل ، التخصص أولا ، ثم آفاق الثقافة الرحبة بعد ذلك ، وكانت أحداث السياسة فى الشارع تزداد غليانا يوما بعد يوم ، وكان واضحا أن المخاض يؤذن بالدخول فى منعطف جديد .

وفى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ وقع حريق القاهرة ، بدأت أحداثه منذ الصباح ، وجبت الشوارع لأشهد بعينى ماكان يحدث فيها وأدركت

أننا مقبلون على شيء خطير وكانت كل جوارحي تتساءل : أهذا هو المنعطف ؟ وفى مساء اليوم نفسه أعلنت الاحكام العرفية ، وفى صباح اليوم التالى أقيمت حكومة الوفد ، حزب الاغلبية فى ذلك الوقت ، وفى ٢٣ يولية سنة ١٩٥٢ أعلن الجيش إنه تسلم زمام الامور .

وكننت قد قطعت شوطا لا بأس به فى دراسة الموضوع الذى اخترته لأنال به درجة الدكتوراه ، وفى يناير سنة ١٩٥٤ نوقشت الرسالة وأجيزت . وشعرت حينئذ بأن السنوات التى قضيتها فى اعداد هذه الرسالة قد انضجتنى بصورة لم أعهدا من قبل .

استمرت صداقاتى ، ولكن اعتراها كثير من مظاهر الفتور ، ودب فى بعضها دبيب التحلل ، وتمزقت كثير من علاقاتى الانسانية فى الجامعة ، فلم يبق منها الا ما يمليه التأذب الاجتماعى . وأخذت على البعض مأخذ بحث ببعضها ولم أبح بالبعض الآخر وأخذوا على ميلى الى العزلة ، والإفراط فى الأكاديمية.

فى الطريق الى تجويد العلم

وفى صيف سنة ١٩٥٥ استأنفت للسفر الى انجلترا فى مهمة علمية لاتقان بعض طرق البحث الجديدة فى ميدان التخصص ، واذنت لى الجامعة مادام الأمر على نفقتى الخاصة وقصدت مباشرة الى معهد الطب النفسى بجامعة لندن اطلب المزيد من العلم على يد الاستاذ هانز ايزنك ، وكانت هذه الخطوة بمثابة ميلاد جديد ، لباحث يتقن المنهج الى

جانب ما يحمله من فكر أو خيال علمى ، هناك تتلمذت على اساتذة فضلاء ، وتعلمت كيف اتصل بالعلماء حيثما كانوا ونعمت بصداقات مع باحثين جاءوا من مختلف أنحاء العالم ، من الهند ، واليابان ومن المانيا وهولندا وأمريكا ، جاءوا يدرسون مثلى ، وبدأت اكتب للنشر فى دوريات التخصص بالانجليزية .

العودة

وفى سبتمبر سنة ١٩٥٧ عدت الى مصر أحمل علما ، ومع العلم اصرار بان يصل بصورة أو بأخرى ، ورأيت ما آلت اليه الاحوال فى الجامعة ، وتذكرت حريق القاهرة ، واستعدت ما كان وراء وجوى وانقباضى حينئذ ، كانت فى النفس نبوءة مبهمة ، وقد أخذت تصدق شيئا فشيئا ، وانغمست فى العمل العلمى بحثا وتدرسا بصورة لم أعهد لها ولم ويعهد لها المحيطون بى من قبل ، ولسان حالى أن أبشر بالعلم طريقا لمعالجة الهم العام . ومضيت أمهد الطريق شبرا شبرا ، وحرصت فى كل خطوة على أن استوضح صيغة للعمل تجمع شتات جهدى ، كانت طموحاتى متشعبة . وكنت ومازلت أخاف كل الخوف أن تجرفنى أخطار التوزع ، كان همى الاول أن انتج علما حقيقيا ووضعت نصب عيني معيارا للجودة التزم به هو أن أكثر من النشر فى دوريات التخصص العالمية ، وتلت ذلك هموم أخرى أن يكون بعض هذا العلم ذا

فائدة قريبة للتطبيق ، وأن أصنع تلاميذ متميزين ، وإن أظل على صلة ايجابية بالحياة العامة على أن تظل بيدي مفاتيح هذه الصلة الى حد كبير ، وقبل هذا ويعدده أن أبقى فى مصر لا أهجرها هجرة بائنة ولا مقنعة ، فذلك شرط لا بد منه لمصادقية هذه الصيغة المركبة .

وبدأت أكتب بالانجليزية للخارج ، علما شديد التخصص ، وأكتب بالعربية للداخل ، كتابة تتراوح بين العلم المتخصص أوجه الرسالة فيه الى التلاميذ ، وبين تقديم العلم بصورة شيقة لغير طلابه النظاميين ، وقد تمتد هذه الكتابات أحيانا لتشمل موضوعا من الموضوعات العامة وجاء هذا التنقل المتصل بين الكتابة بالانجليزية والكتابة بالعربية ، وكذلك بين الكتابة العربية الصارمة صرامة التخصص والكتابة الرفيعة بالقارئ والمعنى معا ايذانا بمستوى جديد من مستويات العناية باللغة أدق وأشق وأرقى من كل عناية سابقة .

فى الستينيات

وظلت مصر تعاني من تقلصات منهكة طوال فترة الستينيات فى سنة ١٩٦١ صدرت قوانين التأميم ، وفى سنة ١٩٦٥ جرت عمليات اعتقال واسعة النطاق وقع معظمها على جماعات تدور فى فلك «الايخوان المسلمين» وتناثرت أنباء صراع تجرى وقائعه فى دوائر السلطة العليا ، وتعالَت أصوات التهديد بالحرب بين مصر واسرائيل ، وفى كل

ذلك كانت الأحداث تقع كمفردات القدر ، لم نكن نحن المواطنين العاديين ندرى لماذا ، لماذا هذه الأحداث ؟ ولماذا هذا التوقيت ؟ وعنيت فى هذه الفترة بمزيد من التجويد فى بحوثى ، الخارجية والداخلية ، أداء وكتابة ، واتسعت رقعة هذه البحوث حتى استقرت حول ثلاثة مجالات لظواهر السلوك البشرى . أحدها ظواهر المرض النفسى ، والثانى تعاطى المخدرات ، وكان ثالثها ما بدأت به حياة التخصص ، الإبداع الفنى ، ولكن على إطلاقه . وعرفت فى هذا السياق طريقى الى العمل العلمى الجماعى ، فى مجال التعاطى ، اتاحه لى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، وفى مجال الإبداع الفنى ، اتاحته لى جامعة القاهرة ، وفى مجال المرض النفسى ، اتاحته لى وزارة الصحة .

وفى الساعة التاسعة صباح يوم ٥ يونية سنة ١٩٦٧ كانت مجموعة من الشباب العاملين معى فى بحوث تعاطى المخدرات ، تطرق باب سجن طنطا ومعها الاذن بالدخول لدراسة حالات مجموعة من النزلاء المحكوم عليهم فى قضايا التعاطى ، وجاءهم الضابط المسئول لينبئهم بأن السجن مغلق لأن الحرب مع اسرائيل قد بدأت . وبعد خمسة أيام كانت الهزيمة العسكرية معلنة ، على أن تسمى «بالنكسة» وبدأت تداعيات النكسة تتوالى ، وبعد خمسة أيام أخرى كنا نستأنف العمل فى

سجن طنطا ، ومن بعده سجون الجمهورية جميعا ، ولم تصبنا الهزيمة بالانكسار ، ولكنها أصابتنا بعبء ثقيل من شعور المهانة .

بعد الهزيمة

وفى يولية سنة ١٩٦٧ نشر لى أول مقال فى الخارج عن بحوث تعاطى المخدرات ، ظهر المقال فى النشرة الرسمية لهيئة الصحة العالمية المعروفة «بنشرة المخدرات» وكان هذا النشر أول اعتراف دولى بقيمة العمل الذى أقوم به فى هذا المجال .

ومع ذلك فلم تكن سعادتى به كافية لكشف الغمة التى حلت بنفسى من مهانة الهزيمة . بل تولد فى أعماقى مع المهانة حزن ممتزج بالغضب شق له طريقا يختلف عن مسار التعامل بينى وبين بحوثى التى لم تنقطع . وكنت كلما توقفت عن العمل البحثى طلبا للراحة أفقت على رنين ذلك المزيج المقبض من الانفعال بداخلى . وكنت فى الوقت نفسه أجتر كثيرا من الافكار وكثيرا من الاسئلة تروح وتجىء على مشهد منى بغير جواب ، وفى أواخر العام بدأت اكتب سلسلة مقالات وانشرها فى مجلة «الكاتب» بعنوان «نحن والعلوم والانسانية» أقدم فيها منظورى عن الكيفية التى يلزمنا أن نستوعب بها بعض الدروس من ه يونية .

حوار الفكر والعمل

وتشابكت بعد ذلك فى حياتى أمور الفكر والعمل على مستوى من الجدية والكثافة لم أعده من قبل : بدأ ذلك بتجربتى فى وزارة الثقافة حيث قبلت الدعوة الى المشاركة فى انشاء اكاديمية الفنون وتقنين العمل بها . ثم أعقبت هذه التجربة مباشرة تجربتى فى هيئة الصحة العالمية حين قبلت دعوة المنظمة الى عضوية عاملة فى لجنة الخبراء الدائمين لبحوث تعاطى المخدرات ، وتعاصرت هذه التجربة فى مراحل منها مع تجربتى فى انشاء قسم مستقل لعلم النفس فى الجامعة . وفى نهاية المطاف جاءت تجربتى فى رئاسة لجنة المستشارين العلميين للمجلس القومى لمكافحة وعلاج الادمان .

وأحييت هذه التجارب فى نفسى آمالا عديدة ، وأثارت فى الوقت ذاته أسئلة تفوق الآمال عدا ووزنا . ولعلنى قد استطعت أن أعاين هوية بعض هذه الآمال . اما الاسئلة فلا تزال تردنى عاجزا عن معاينتها أو حصرها واستيعابها .

عبد العظيم أنيس

برع جدى فى صناعة البناء ولقب به « المهندس »

ولدت فى شهر يوليو عام ١٩٢٣ فى حى الأزهر لعائلة لها ثمانية من الأبناء ، أربعة ذكور وأربع إناث ، وكنت أصغر الذكور وأصغر الإناث باستثناء واحدة ، وكان بيتنا يقع على بعد خطوات قليلة من الجامع الأزهر ، وكان هذا بيت جدى لأبى فى حقيقة الأمر الذى كان يعمل فى صناعة البناء ويطلق عليه من قبيل التجاوز لقب «مقاول» فقد كان لديه عدد محدود من المساعدين من بينهم أبى ، وشقيقاه يساعدونه فى بناء بيوت صغيرة أو مساجد متواضعة وقيل إن جدتى لأبى ساعدت جدى فى بناء البيت الذى كنا نسكن فيه بالأزهر .

كانت عائلة أبى جميعا من الحرفيين نزحت أصلا من إحدى قرى الشرقية واستقرت بجوار مسجد ابن بنت رسول الله تلتمس فى جواره البركة ، فمنهم من كان صاحب محل جزارة أو كان نجارا أو

احترف صناعة البناء كما فعل جدى . ولقد تعلم أبى وشقيقاه خبرة صناعة البناء عن أبيهم ثم انفصل كل واحد منهم عن أبيه بعد الزواج ، وارتبطت أعمال أبى بوزارة الأوقاف خصوصا لتركيته على بناء المساجد فى المراكز والعواصم المختلفة لمحافظة مصر ، بينما تخصص أعمامى فى عمليات ترميم المساجد الأثرية وبالتالي تركزت علاقتهم بمصلحة الآثار .

وكانت عائلة أمى ذات صلة أيضا بصناعة البناء ، ومن هنا تم زواج أبى بأمى ، فقد كان جدى لأمى مقاولا كبيرا نسبيا بمقاييس عصره ، وكان بارعا فى صناعته إلى درجة أنه أطلق عليه لقب «المهندس» وهكذا اكتسبت أسرته هذا اللقب من بعده ، ولقد كسب جدى لأمى كثيرا وأضاع معظم ما كسبه فى أهواء الشرب والنساء ، على عكس جدى لأبى الذى كان شديد الحرص على ماله ، فضلا عن أنه كان شديد الإسراف فى منزله ، وقد تزوج سيدة تركية الأصل هى جدتى لأمى لا أتذكر شيئا عنها وإن كنت أسمع دائما أنها من فرط سمنتها كانت عاجزة عن المشى فى السنوات الأخيرة من حياتها ، فكان أولادها ينقلونها على «صينية» عشاء كبيرة إذا أرادت الانتقال من غرفة إلى أخرى أو الذهاب إلى الحمام .

التعليم والأزهر

وعلى عكس عائلة أبى لم يمتحن أحد من أخوالى صناعة أبيهم ، فقد كان الوضع التقليدى فى أسرة أمى هو التوجه نحو التعليم كطريق مضمون للحراك الاجتماعى ، وكان التعليم آنذاك فى الأسرة يعنى الذهاب أولا إلى الأزهر لحفظ القرآن ثم من هناك إلى تجهيزية دار العلوم ثم إلى دار العلوم للعمل بالتدريس فى مدارس الحكومة . هكذا فعل خالى زكى المهندس ومن بعده شقيقه كامل ، وهكذا فعل من بعدهما شقيقى الأكبر إبراهيم . وكان أخوالى من الهمة فى التحصيل والتفوق فى الدراسة بحيث أرسل خالى زكى إلى بعثة لبريطانيا عام ١٩١٠ حيث قضى بها أربع سنوات وعاد للعمل فى تفتيش اللغة العربية كما أرسل شقيقه الأصغر كامل فى بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٢٣ وبقي فيها سبع سنوات وعاد عام ١٩٣٠ حيث عمل رئيسا لقسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية . وكان لهما شقيق أكبر - من الأم فقط - عرف فى الأسرة باسم الشيخ على الشهداوى درس أيضا فى الأزهر وارتبط بالحزب الوطنى حتى أنه أرسل فى بعثة على نفقة الحزب إلى فرنسا لمدة ثلاث سنوات كان فيها معاونا لمصطفى كامل ومن بعده عبدالعزيز جاويش .

ازدواجية الاسم

إنما أشرت إلى هذا الوضع داخل أسرة أمى بشئ من التفصيل

لسببين ... أولهما أننى عندما ولدت عام ١٩٢٣ أرادت أمى أن تسمينى باسم «كامل» تيمنا بأخيها كامل الذى كان على وشك الذهاب إلى بريطانيا عندما ولدت . لكن جدتى لأبى - وكانت صاحبة شخصية قوية - اعترضت حتى لا يظن أحد أننى قبضى فاقترح والدى أن يكون اسمى فى شهادة الميلاد «عبدالعظيم» متعا لأبى لبس بينهما ينادوننى فى البيت باسم شقيقها . وهكذا نشأت أحمل اسمين : واحدا فى شهادة الميلاد ولا يعرفه أحد فى العائلة وآخر فى المنزل وظل هذا هو الوضع حتى دخلت الجامعة مما أدى إلى مفارقات طريفة كثيرة فى حياتى ولم يختلف هذا الازدواج فى اسمى من حياتى إلا عندما تخرجت فى الجامعة وتزوجت فأصبح لى اسم واحد هو عبدالعظيم .

أما السبب الثانى للاستطراء عن أسرة أمى فهو أن جو التعليم الذى اندمجت فيه أسرة أمى أدى بطبيعة الحال إلى انحيازات سياسية مختلفة . فقد كان خالى الشيخ على الشهداوى من أنصار الحزب الوطنى بينما كان خالى الأصغر كامل شديد الحماس للوفد ولسعد زغلول . وكثيرا ما تصارع الاثنان حول شئون السياسة . وفى هذا الجو انحاز شقيقى الأكبر إبراهيم إلى جانب الوفد ، وكان وهو طالب فى دار العلوم كثير التردد على بيت الأمة ، يلقى القصائد الوطنية أمام سعد

زغلول ومن بعده مصطفى النحاس ولهذا كان انحيائنا الأول - أنا وأشقائي - إلى الوفد بطبيعة الحال .

ولقد بقيت فى حى الأزهر حتى سن الخامسة وذهبت إلى الكتّاب بعض الوقت وأنا فى الرابعة من العمر . لكنى لا أتذكر من هذا إلا أن الكتّاب كان بجوار منزلنا . وكانت هناك حنفية للمياه أمام الكتّاب يتزاحم حولها الناس للماء صفائحهم وأوانيتهم وكانت جدتى لأبى تأتى لزيارتى فى الفصل وتعطينى نكلة (مليمين) أشتري بها من المدرس بعض الكعك . غير أن جدى بنى منزلا فى العباسية الغربية قريبا من شارع الملكة نازلى (شارع رمسيس اليوم) . وكان البيت يتكون من دورين ويدروم سكنا نحن فى الدور الثانى وسكن عمى الأكبر فى الدور الأول بينما سكن عمى الأصغر البدروم . لقد تركنا حى الأزهر عام ١٩٢٨ فيما أظن وكانت أمى تقول آنذاك إننا «طلعنا» العباسية بعد موت سعد زغلول . وكنت أدهش من استخدامها فعل «طلع» فى هذا السياق وأتساءل إن كان هذا بمعنى أن العباسية كانت أعلى فى أرضها من أرض حى الأزهر ، أم أن «الطلوع» هنا بمعنى الصعود فى السلم الاجتماعى ، ولقد تعودت أسر البورجوازية الصغيرة المقيمة فى حى الأزهر على مشروع الانتقال إلى حى العباسية بمجرد أن تسمح الظروف المالية ببناء منزل فى هذا الحى الجديد نسبيا . كانت معظم

أراضى العباسية صحراوية ولذا كثر البناء فيها فى أوائل القرن وفى العشرينات وإليها انتقلت عشرات الأسر . وكانت القاعدة العامة هى أن الأسر الثرية تبنى لها فيلات فى العباسية الشرقية . أما أسر البورجوازية الصغيرة فكانت تبنى فى العباسية الغربية أو تستأجر لها مسكنا هناك . ويذكرنى هذا التاريخ بما حدث لنجيب محفوظ الذى انتقلت أسرته قبلنا من الأزهر إلى شارع رضوان شكرى بالعباسية الغربية . فى الحقيقة أن شارعنا لا يبعد عن شارع رضوان شكرى كثيرا .

ولقد كان انتقالنا إلى المنزل الجديد فى العباسية تحولاً كبيراً فى حياتنا . فقد وجدنا أنفسنا نمشى ونلعب فى شوارع واسعة ونظيفة ، وبالقرب من منزلنا كانت هناك حدائق غمرة الجميلة التى كانت تجمع أطفال الحي وتمثل متعة ما بعدها متعة لهم ، وكانت منطقة شارع أحمد سعيد مليئة بالغيطان المخصصة لزراعة الخضراوات ، وكثيراً ما كانت ترسلنى أمى إلى هناك لشراء السبانخ أو الكرنب . وكانت هناك أراض فضاء واسعة نلعب فيها الكرة ، وبعد سنوات صار الاحتفال بالمولد النبوى يجرى فى صحراء العباسية وأصبح الموكب المحمل بالكسوة الشريفة ينتهى هناك . ومع أن صلتنا لم تنته بحى الأزهر لأن جدتى وجدى لأبى ظلا هناك ، فإن هذه الصلة بدأت تفتر تدريجياً

خصوصا بعدما ماتت جدتى فجأة بالسكتة القلبية عام ١٩٢٩ وانتقل جدى للإقامة معنا فى العباسية بعد ذلك بسنوات قليلة .

ألم فراق جدتى وأمى

ولقد كان حادث وفاة جدتى صدمة لى وأول مواجهة لمعنى الموت وأنا فى هذه السن الصغيرة ، فقد كنا نحبها حبا جما ، وبدا لى اختفاؤها المفاجئ أمرا شديدا الصعوبة . وكنا قد تعودنا أن ننتظرها بالساعات عند موقف ترام غمرة حيث كان الترام رقم ٥ والترام رقم ٢٢ ينهيان ، عندما نعرف أنها ستأتى لزيارتنا ، حتى إذا ما نزلت من الترام صحبناها أنا وإخواتى وأولاد عمى فى زفة كبيرة من موقف الترام إلى البيت ، ولا عجب فى ذلك فقد كانت تحبنا وتنفحنا بالنقود وأنواع الحلوى المختلفة ، وحتى اليوم ما زلت أتذكر يوم هذا الحدث الجلل - حدث وفاتها - فقد دق بعض أقاربنا باب منزلنا قبل الفجر بقليل وهرول أبى وأمى بسرعة وهما يهمسان . فلما طلع الصباح أخذنا أخى حسن - نحن الأخوة الثلاثة الصغار - معه وذهبنا مشيا إلى الدراسة عن طريق شارع مصنع الطرابيش وعندما اقتربنا من منزل جدى سمعنا مصراخا وعويلا وبكى أخى حسن وقال لنا الخبر الحزين ، ولقد كانت الصدمة الثانية والأكبر فى حياتى إزاء الموت عندما ماتت أمى عام ١٩٤٠ نتيجة الإصابة بالحمى . وكنت قد أنهيت امتحان السنة

التوجيهية وكان عمرى آنذاك سبعة عشر عاما . وكنت شديد التعلق بأبى وأدت بى هذه الصدمة إلى تحولى إلى إنسان نباتى لا أذوق اللحم لسنوات ولم أستطع أن أخرج من إسهار هذه الأزمة إلا قرب تخرجى فى الجامعة .

عندما انتقلنا إلى حى العباسية كان من الطبيعى أن يدخلنى أهلى مدرسة تناسب سننى ، ولقد دخلت مدرسة البرامونى الأولية وقضيت بها عامين قبل التقدم لامتحان القبول بالمدرسة الابتدائية ، وكانت هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الأولية - تعيسة بالنسبة لى ، ولشرح ذلك ينبغى أن أوضح أننى قد تعرضت وأنا فى الثالثة لحادثة - ونحن مازلنا فى حى الأزهر - كادت تؤدى بحياتى ، فقد وقعت من على سلم منزلنا ونزقت من جرح فى الاسنان واللثة ، ولابد أن هذا الجرح قد أهمل أو عولج بالأساليب الشعبية مما أدى إلى حدوث غرغرينة فى اللثة العليا ، وذهب بى أهلى إلى المستشفى الإيطالى بالعباسية وأجريت لى جراحة عاجلة أزيل فيها جزء من اللثة وعظمة الأنف وقضيت أياما بين الحياة والموت . فلما عوفيت اتضح لأهلى أنه ترتب على هذه العملية بعض التشويه فى الفم . وفى المدرسة الأولية كان الأطفال وبعض المدرسين يعيرونى بهذا التشويه ، وكان مدرس اللغة العربية ينادينى للجابة فيقول «قوم يا أشرم» إشارة إلى هذا

العيب ، وأعتقد أن الخجل والانطواء فى شخصيتى آنذاك إنما يعود إلى تلك الظروف ، ولقد أدى هذا إلى كراهيتى للمدرسة وللذهاب إليها وإلى شدة تعلقى بأمى وكان ذهابى إلى المدرسة كل يوم مشكلة فقد كنت أبكى وأصرخ إلى أن يحملنى الخادم على كتفه إلى باب المدرسة وهناك يتلقفنى الشيخ ناجى المسئول عن طابور الصباح فيأمر الفراش أن يخلع لى حذائى ثم يقوم هو بضربى على قدمى بضع خيزانات لآكون عبرة للأطفال الآخرين ، وفى بعض الأحيان كنت أهرب من المدرسة فى فترة بعد الظهر .

معاناة الدراسة الأولى

ذكرت هذه الوقائع لأوضح أننى لم أتعلم الكثير فى المدرسة الأولية وعندما تقدمت عام ١٩٣١ لامتحان القبول بمدرسة الظاهر الابتدائية لم أنجح فى الامتحان بل رسبت بجدارة ، وعندئذ أسرع أخى إبراهيم بتقديم أوراقى إلى مدرسة الحسينية الابتدائية ونجحت بالكاد فى امتحان القبول . وهكذا قضيت مرحلة التعليم الابتدائى فى الحسينية الابتدائية (وهى قريبة من ميدان الجيش وقد شغلت المبنى بعد الثورة شركة مصر للمستحضرات الطبية) من عام ١٩٣١- إلى عام ١٩٣٥ ، كان التعليم الابتدائى بالمصروفات (عشرة جنيهات تدفع على ثلاثة أقساط) إلا للمتفوقين أو نسبة ضئيلة جداً يتم إعفاؤها بناء على تقديم

شهادة فقر . ولم أكن من المتفوقين ، ومع أن الأزمة الاقتصادية العالمية ١٩٢٩ - ١٩٣٢ قد أصابت أبى بضرر شديد وصل إلى حد الإفلاس إلا أننا لم نكن نرغب أن نتقدم بشهادة فقر . ورغم هذه المعاناة فقد دفعوا لى المصروفات فى السنة الأولى وجزء من السنة الثانية ، ثم أعفيت بعد ذلك من المصروفات بمناسبة شفاء الملك فؤاد وصدور قرار بإعفاء الخمسة الأوائل من كل سنة من سنوات الدراسة . ومع بدايتى المتواضعة كان اهتمام أشقائى بى فى المذاكرة قد أوصلنى إلى أن أكون من الخمسة الأوائل فى نهاية السنة الثانية وظل هذا حالى فى السنتين الثالثة والرابعة وتميزت بتفوق خاص فى اللغة العربية والحساب وربما يعود تفوقى فى اللغة العربية إلى طبيعة اهتمامات الأسرة التى تخرج العديد من أبنائها فى دار العلوم . أما شغفى بالحساب فلا شك أن لمدرسى آنذاك - الاستاذ المرففى - فضلا لا ينسى فيه .

وبشكل ما استطاعت الأسرة أن تجتاز تلك المرحلة بصعوبة ودون خسائر فادحة . ذلك أن أخى إبراهيم قد عين فى مدرسة خاصة بمرتب عشرة جنيهات . ومع أنه كان الثانى فى دفعة دار العلوم عام ١٩٣٠ فإنه لم يعين بمدارس الوزارة بسبب قرار صدقى باشا وقف التعيينات ، وكانت شقيقتى الكبرى عائشة تعمل مدرسة بالمدارس الابتدائية وساعدنا ذلك على تدبير أقساط المصروفات لى ولثلاثة من

الأشقاء . لكننا اجتزنا هذه المرحلة بتضحيات وآلام نفسية غير قليلة ولعل تلك المرحلة هي التي لفتت نظري - ولا تزال - لمسألة الفقر في الأوساط الشعبية والظلم الفادح الواقع على الملايين نتيجة الحرمان من التعليم ، والخسارة التي تصيب الأمة كلها نتيجة هذه الأزمة .

الابن القدوة

وينبغي أن أذكر هنا أن سلوك الابن الأكبر في العائلة في طريق التعليم يكون له في العادة أثر غير قليل على الأبناء الأصغر ، فهو القدوة والمثل خصوصا إذا كان فارق السن كبيرا . وفي حالتنا كان لتفوق شقيقى الأكبر إبراهيم أكبر الأثر عندي طوال مراحل التعليم . فبعد سنوات قليلة من التدريس أرسل في بعثة إلى بريطانيا عام ١٩٣٤ . وطول المدة التي قضاها بالخارج كان يرسل لى كل فترة خطابات على المدرسة يشجعنى فيها على التفوق الدراسى ويطلب منى أن أبعث له بأخبارى ومشاكلى . أتذكر مثلا أننى عندما كنت فى سنة الشهادة الابتدائية بالمدرسة الحسينية أن دخل ضابط المدرسة يوما إلى فصلى ونادى اسمى ، فلما وقفت ناولنى خطابا من إنجلترا وبالطبع كانت سعادتى وفخرى أمام زملائى فوق الوصف ، وقد حدث نفس الشئ لأكثر من مرة عندما دخلت مدرسة فؤاد الأول الثانوية وقضيت بها السنة الأولى والسنة الثانية .

فى المرحلة الثانوية (١٩٣٥ - ١٩٤٠) قضيت بمدرسة فؤاد السنتين الأولى والثانية، فلما فتحت مدرسة فاروق الأول أبوابها عام ١٩٣٧ كنت من ضمن المنقولين إليها وفيها قضيت السنوات الثلاث الأخيرة من المرحلة الثانوية ومنها حصلت على الشهادة التوجيهية عام ١٩٤٠ .

ولكن يحسن أن أشير إلى حادث مهم فى حياتى وقع له بمدرسة فؤاد الأول فى السنة الأولى من التحاقى بها . ففى العام الدراسى ١٩٣٦/٣٥ قامت فى مصر مظاهرات عارمة تهتف بسقوط وزير خارجية بريطانيا «صمويل هور» بمناسبة تصريح له ، ولقد خرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة إلى شارع العباسية حيث هاجمنا البوليس وضربنا بقسوة ، فعدنا إلى المدرسة وألقينا على قوات البوليس الطوب والأخشاب ، وكان شقيقى محمد فى طليعة فرقة قذف الطوب ، وكنت أساعده ، وفى المساء جاءت قوات من البوليس إلى المنزل وسألت عنى لأنهم وجدوا بعض كتبى على سطح المدرسة ، كنت فى الثانية عشرة وأخذت إلى قسم الوايلى حيث قضيت الليل مع ثلاثين آخرين فى زنزانة القسم ، وفى الصباح أخذونا إلى مبنى محافظة القاهرة حيث عرضنا على النيابة التى تولت التحقيق معنا ، ثم أفرجت عنى لصغر سننى . كان هذا الحادث أول مواجهة لى - وأنا مازلت طفلا لمسألة السلطة ، ولقد بكيت عندما جاءت أمى

لزيارتى فى قسم البوليس لكنى عندما عدت إلى المدرسة فى اليوم
التالى حاولت أن أنظاهر بالتسجاعة أمام زملائى ، وبالطبع ترك
هذا الحادث أثرا عميقا فى حياتى بعد ذلك ، مازلت أذكره بتفاصيله
كما أنى مازلت أذكر جنازة ويصا واصف التى مرت عام ١٩٣١ فى
شارع رمسيس أمام منزلنا وهتافات شباب الوفد فى تلك الجنازة
المظاهرة كقولهم «اشكى الظلم لسعد يا ويصا» .

تكوينى الثقافى

وفى هذه المرحلة - مرحلة المدرسة الثانوية - واطبعت طوال
الصيف على الذهاب إلى دار الكتب فى ميدان باب الخلق للقراءة
واستعارة الكتب ، فقد كانت ظروفنا المالية لا تسمح بشراء كتب للقراءة
العامة وإن كنت قد استغدت من مكتبة أخى إبراهيم بالمنزل التى تركها
عند ذهابه إلى بريطانيا ومنها قرأت مقامات الحريري وديوان المتنبى
وديوان الحماسة لأبى تمام وكتاب قدامة بن جعفر فى نقد النثر
وغيرها ، ولست أدعى أننى فهمت كل ما قرأت فى مكتبة أخى ، لكن
ذلك كان مقدمة لمواظبتى على الذهاب كل يوم خلال الصيف إلى دار
الكتب حيث أظل بها من العاشرة صباحا حتى الواحدة ظهرا ،
وساعدنى على هذا أن خالى الأصغر كان آنذاك رئيسا لقسم
الفهارس العربية بينما كان الشاعر أحمد رامى رئيسا لقسم الفهارس

الأجنبية فى القاعة المقابلة ، وكان موظفو قسم الفهارس العربية يرحبون بى ويساعدونى ، وفى تلك المرحلة قرأت معظم إنتاج طه حسين والعقاد وأحمد أمين والمازنى وتوفيق الحكيم وعبدالله عنان كما قرأت ديوان شوقى ومسرحياته وحافظ إبراهيم والبارودى ، وكان العقاد يلفت نظرى ويستحوذ على اعجابى بصفة خاصة خصوصا كتابه «سعد زغلول سيرة وتحية» فى مطالعته فى الكتب والحياة وتأملاته فى الفلسفة وكتاباه عن ابن الرومى ، لكن كتب العقاد التى صدرت فى مرحلة متأخرة من حياته لم أجد فيها نفسه العميق القديم .

وفى تلك المرحلة أيضا حرصت على قراءة بعض الكتب العربية التى تتناول قضايا الفلسفة بصورة مبسطة وشغلنى على وجه الخصوص سقراط وأفلاطون فى الفلسفة اليونانية وأفكار المعتزلة فى الفلسفة الإسلامية كما عرضها أحمد أمين ، وكان لكل هذه القراءات أثرها فى نشاطاتى بمدرسة فاروق الأول الثانوية . فمع مواظبتى على شراء مجلة «الثقافة» كنت مشتركا فى جمعية التمثيل بالمدرسة . وأذكر أنى قمت بدور الكاهن «أنوبيس» فى مسرحية كليوباترا لشوقى عندما قدمناها فى آخر العام ، وكنت ضمن هيئة تحرير مجلة المدرسة «الفجر» واشتركت مع آخرين فى تكوين «الجمعية الرياضية» تحت إشراف المدرس الأول للرياضيات بالمدرسة . وقد شجعتنى هذا النشاط على

مواصلته فى مرحلة الجامعة حيث انتخبت رئيسا للجمعية الطلابية
للعلوم الرياضية والطبيعية بكلية العلوم جامعة القاهرة لعام
١٩٤٤/٤٣ .

ولقد واجهت مشكلة عسيرة عام ١٩٣٩ إثر حصولى على شهادة
الثقافة العامة إذ كان على أن أختار إحدى الشعب الثلاث للسنة
التوجيهية (آداب ، علوم ، رياضيات) . فقد كنت محبا للغة العربية
والآداب والفلسفة ، كما كنت محبا أيضا للرياضيات ومتفوقا فيها . ومع
أنه بدا لى أن الجمع بين الرياضيات والفلسفة هو أمر طبيعى لأن
أفلاطون كتب على باب أكاديميته : «لا يدخلها إلا المشتغلون
بالهندسة» إلا أن نظام التعليم فى جامعاتنا لم يكن يسمح بذلك ،
فإما أن ألتحق بكلية الآداب لدراسة الفلسفة أو بكلية العلوم لدراسة
الرياضيات ، ولقد اكتشفت فيما بعد أن الجمع بين الدراستين يتحقق
بسهولة فى الجامعات الأوربية والأمريكية حيث تقوم الجامعة على
الأقسام كالوحدات الأساسية وليس الكليات وحيث جدول الدراسة من
المرونة بحيث يسمح بالجمع بين تخصصات تبدو متباعدة تماما فى
جامعاتنا ، وفى ظنى أن إحدى نقاط الضعف الأساسية فى جامعاتنا
هو هذا الوضع الجامد الذى لا يسمح بالجمع بين الفلسفة
والرياضيات معا أو بين الرياضيات والاقتصاد ... وهكذا .

وظللت فى هذه الحيرة طوال صيف ١٩٣٩ ثم تصادف حضور أخى إبراهيم من لندن لزيارتنا فقام بإقناعى بدخول كلية العلوم لدراسة الرياضيات وقال آنذاك إن فى مقدورى دراسة الفلسفة أو الأدب وحدى بالقراءة والمثابرة فى أشهر الصيف بينما أنا أدرس الرياضيات بكلية العلوم ، لكن العكس صعب وإن لم يكن مستحيلا ، وأذكر أنه قال لى كآخر حجة فى جعبته إن الفلسفة والأدب لا يطعمان أحدا ١ .

واقترعت ودخلت شعبة الرياضيات فى السنة التوجيهية ثم قسم الرياضيات فى كلية العلوم ولم أندم على ذلك أبدا . وفى مرحلة المراهقة والنزعات الافلاطونية بدت العلوم الرياضية - البحتة لا التطبيقية - ذات جمال خاص ، وما كان يذهلنى حقا هو معنى هذه الحقائق الرياضية فى الهندسة والجبر التى بدت وكأنها مستقلة عن أى خبرة . إنه عالم المثل إذن كما كان يقول أفلاطون واحتضنت بقوة كتاب الرياضى الانجليزى الكبير هاردي «الرياضة البحتة» كما احتضنت أفكاره المثالية كذلك .

وعندما أتأمل اليوم نظرتى إلى هذا التاريخ القديم لأفكارى وآرائى كطالب بالمرحلة الثانوية ثم الجامعية أحس كم تغيرت الآن عن ذلك الزمان ، وربما كان السبب فى ذلك دراستى للفكر الماركسى بعد تخرجى فى الجامعة عام ١٩٤٤ وتعيينى معيدا فى كلية العلوم جامعة الاسكندرية .

استغرقتنى السياسة فأعطيتها كل حياتى

فى مايو سنة ١٩٤٤ حصلت على الدرجة الخاصة فى الرياضيات بكلية العلوم جامعة الملك فؤاد الأول (القاهرة) وعينت فى أوائل سبتمبر من نفس العام معيدا بكلية العلوم جامعة الملك فاروق (الاسكندرية) . ومع أنه كانت هناك فرصة لتعيينى بجامعة القاهرة إذا انتظرت ، فأننى أثرت عدم الانتظار لأسباب عديدة فى مقدمتها أننى كنت حريصا على أن أعيش حياة مستقلة عن الأسرة خصوصا بعد وفاة والدتى وبداية تفكك الأسرة بزواج الكثير من أبنائها .

لكنى ذهبت إلى الاسكندرية وأنا أحمل فى داخلى ذكريات علاقات عديدة بالقاهرة لعبت دورا مهما فى تحديد مسار حياتى واهتماماتى بالاسكندرية . لقد ساعدت ظروف تربيتى وما صادفته الأسرة من مصاعب بسبب الحرص على التعليم على اهتمامى منذ وقت مبكر فى شبابى بالعمل العام وعلى توفر إحساس مبكر بالالتزام قبل الآخرين خصوصا إذا كانوا من الفئات المضطهدة والمطحونة اجتماعيا . فمثلا عندما جاءت وزارة الوفد إثر أزمة فبراير سنة ١٩٤٢ بين الملك والانجليز - وسط غارات جوية ألمانية وإيطالية على القاهرة والاسكندرية - وكانت قوات روميل قد وصلت إلى العلمين ، تطوعت للالتحاق بمدرسة الوقاية من الغارات الجوية بالزيتون التى كانت قد انشئت لتدريب المشرفين على أعمال الوقاية من الغارات ، وكان سنى آنذاك لا يزيد

على ستة عشر عاما ، وعندما خصصت الجمعية التعاونية للبترول خمسة فى المائة من أرباحها السنوية للخدمة الاجتماعية وقامت بإنشاء مبرتين للأطفال الفقراء (مبرة الأميرة فادية بالدمرداش ومبرة الأميرة فريال بالقلعة) سارعت وأنا طالب بالجامعة بالتطوع للعمل المجانى فى المبرة الأولى التى كانت قريبة من منزلنا ، وقضيت فترات الصيف لثلاثة أعوام متتالية أعمل متطوعا بتلك المبرة فى فصول محو الأمية وفى الطواف على منازل الأطفال الفقراء بالمحمدى لبحث الحالة الاجتماعية لأسرة كل طفل واقتراح معونة مالية لها . وكان يشرف على هذا العمل من قبل الجمعية التعاونية للبترول اثنان من كبار المولين فيها كامل عبدالرحيم وكيل الخارجية المساعد آنذاك وسفير مصر فى واشنطن بعد ذلك والمستشار عبدالمنعم رياض الذى كان من قضاة محكمة النقض .

الشباب والخدمة الاجتماعية

ولقد استطعت إقناع بعض زملائى - ومنهم د. محمد عجلان - بالاشتراك فى هذا العمل التطوعى الخيرى خلال فترة الصيف ، ونجحت فى ذلك مما أسعد المسئولين عن هذه المبرة ، خصوصا كامل عبدالرحيم الذى كان يرى فى هذا العمل نقطة تحول فى توجهات الشباب نحو الخدمة الاجتماعية . وساعد على توثق صلتى به أنه قد بدأ يكتشف أن موظفى وزارة الشئون المنتدبين للعمل بالمبرة

كانوا يختلسون بعض الأموال المخصصة للإنفاق عليها ، فما كان منه إلا أن كلّفنى بمسئولية الانفاق على المبرة يوميا وتقديماً كشف حساب له كل شهر . وعندما تخرجت فى كلية العلوم وعينت معيدا بالاسكندرية أقام كامل عبد الرحيم حفلة شاي بمنزله بمصر الجديدة لتحيتى وتوديعى وأهدانى باسم المبرة أربعة كتب فى الرياضيات قيل لى إنها سوف تفيدنى فى حياتى العلمية الجديدة .

كانت تلك إذن صورة سريعة لاهتماماتى بالعمل العام - الخدمة الاجتماعية - عندما ذهبت إلى الاسكندرية . ولقد أشرت إلى ذكريات العلاقات الكثيرة مع زملاء لى التى حملتها معى عند ذهابى إلى الاسكندرية ، وهنا يجدر أن أشير إلى علاقتى بالدكتور عبدالمعبود الجبيلى - وزير البحث العلمى فى السبعينيات ومدير مؤسسة الطاقة الذرية قبل ذلك - كان عبدالمعبود معيدا بقسم الكيمياء تخرج قبلى بعامين وكان محل انتباه الانظار بالكلية له لتفوقه العلمى وذكائه واهتمامه بالشئون العامة ولقد حاولت اجتدابه للعمل معنا فى الخدمة الاجتماعية بمبرة الأميرة فادية فلم أجد منه الحماس الذى توقعته ، وأدى بنا هذا إلى حوار طويل حاول فيه إقناعى بأن الخدمة الاجتماعية لن تؤدى إلى تغيير حقيقى فى الاحوال المتردية للمجتمع المصرى وأنها لا تزيد على أن تكون مسكنا من المسكنات مثل الاسبرين،

وأن الحل الحقيقي الجذرى هو الثورة على النظام الملكى القائم ، وأن مثل هذا العمل فى حاجة إلى إعداد طويل .

وشينًا فشيئًا بدأت أشك فى أنه مرتبط بشكل ما بتنظيمات ماركسية غير معلنة ، ثم تيقنت من صحة هذه الشكوك عندما بدأ يتحدث معى ببعض الصراحة ويعيرنى بعض الكتب الماركسية الانجليزية مثل «ما هى الاشتراكية» لإميل بيرنز ، وكتاب «الامبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» للنين ، وملخص لكتاب «رأس المال» لماركس ، وكتب أخرى ترضى اهتمامى بالفلسفة مثل كتاب «الايدولوجيا الألمانية» ، «ضد دهنونج» لماركس ، وكتاب «المادية والنقد التجريبي» للنين . ولقد التهمت كل هذه الكتب وتصورت أننى فهمت وإن كنت قد أدركت فى فترات لاحقة أن الفهم الحقيقى لا يتحقق إلا بمعرفة السياقين الاجتماعى والثقافى اللذين ألفت فيهما هذه الكتب . غير أن أهم كتاب أثار اهتمامى آنذاك هو فى الحقيقة كتاب إنجلز «جدل الطبيعة» ، وهو محاولة من المؤلف - على ضوء اكتشافات العلوم الطبيعية فى القرن التاسع عشر - لاستخلاص قوانين الجدل من تلك الاكتشافات . وهذا الكتاب بالذات كان محل انبهارى الشديد فى تلك الفترة من شبابى لأنه بدا لى أنه يقدم تعميما مثيرا لبعض النتائج العلمية - فى الرياضيات والفيزياء والبيولوجى - لم أسمع به من قبل ، ولقد لفت

نظري على وجه الخصوص كيف أكون رجلا مثل إنجلز يكون على هذا المستوى من المعرفة مع أنه غير متخصص فى العلوم .
وبالطبع فعندما أنظر الآن إلى هذا الكتاب أشعر أن هذا الإعجاب المبكر كان مصدره جهلى بأشياء كثيرة من العلم . وقد يكون كتابا جيدا بمعنى تاريخى ، لكن التطورات العلمية للقرن العشرين قد تجاوزت نتائجه بون شك وبعض نتائجه فيما يتعلق بالرياضيات التى تبدو لى اليوم ساذجة كان مصدرها معرفة إنجلز السطحية بهذا العلم .

الثورة هى الحل

تلك كانت البداية إذن .. مناقشات مستمرة مع عبدالمعبود الجبيلى وغيره من الأصدقاء وقراءة متصلة فى كتب ماركسية كان يعيرني إياها ، وكل هذا انتهى بى إلى الاقتناع بوجهة نظره بأنه لا يوجد حل لمشاكل مصر الاجتماعية غير الثورة ، وأن خير ما يفعله شاب مثلى هو المشاركة فى الإعداد لها . وهكذا ارتبطت بمنظمة «إسكرا» التى كان الجبيلى أحد قياداتها . وعندما تمت الوحدة بين «إسكرا» وبين «الحركة المصرية للتحرر الوطنى» عام ١٩٤٧ وتكونت منظمة «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى» (حدثو) أصبحت واحدا من أعضائها .

ولقد كانت مصر - فى ظل الأزمة الطاحنة التى كان يجتازها النظام الحاكم - نموذج بتنظيمات غير قانونية كثيرة من بينها بالطبع تنظيم

الضباط الأحرار الذى كان يقوده البكباشى جمال عبدالناصر ، ومع أننى لم أكن على علم بتنظيم الضباط الأحرار فقد كنت أشعر بشكل غامض أن هناك شيئا يجرى داخل الجيش بين ضباطه الصغار وكان مصدر هذا الشعور أننى قابلت آنذاك عددا من الضباط الصغار ذوى الميول الاشتراكية من بينهم الملازم أول أحمد حمروش ، وقد فهمت أنهم يؤدون بعض الخدمات التنظيمية الثورية مستفيدين من سيارات الجيش .

ولقد كانت هناك حاجة شديدة لدى منظمة «إسكرا» لتكوين مجموعة مصرية قوية من المثقفين بالاسكندرية . لقد كان لها وجود نشيط ضمن أجناب الاسكندرية ، لكن وجودها ضمن المصريين كان قريبا من الصفر ، ولذا لا أشك أن مجموعة المعيدى بكلية العلوم بالاسكندرية قد لعبت دورا رئيسياً فى تشكيل تنظيم مصرى فى أوساط طلاب الجامعة وشبابها . وساعد على ذلك أننا نجحنا فى إنشاء ناد ثقافى بحى الأزاريطا بالاسكندرية كان محل لقاء الشباب المتحمسة بالشئون العامة ، وفى تأسيس رابطة للمعيدى تدافع عن مصالحهم النقابية . كما أن صدور مجلة «الجماهير» الأسبوعية بالقاهرة كان عنصرا مهما فى تجنيد العناصر المتحمسة لقضية الثورة .

وبطبيعة الحال كانت هناك خواطر من الحيرة والريبة تلم بنا نتيجة إدراكنا أن هناك تنظيما لإسكرا فى أوساط الأجانب لانعرف عنه شيئا

ولكن مما خفف هذا الوضع علينا فى الاسكندرية أننا كنا نعمل بنجاح كبير فى أوساط الطلاب العمال ، وكان الانفصال الكامل بين التنظيم المصرى والأجنبى يساعد على أن ننسى هذه المسألة على الأقل فى السنوات الأولى .

وكانت تلك الفترة (١٩٤٥ - ١٩٤٨) تتميز بجيشان جماهيرى واسع وتحركات شعبية من السخط والاحتجاج ضد الاحتلال البريطانى الرابض فى القاهرة والاسكندرية وضد النظام الملكى الذى كان قد فقد شعبيته وبالتالي شرعيته تماما . وبشكل عام كانت أحوال المعيشة سيئة بالنسبة للغالبية من المطحونين اجتماعيا وكانت الأوبئة تكتسح البلاد - الكوليرا مثلا - وتفتك بالآلاف ، وكان الرأى العام - وخصوصا الشباب - معاديا للنظام الملكى ولفاروق خصوصا بالرغم من الجهود الحثيثة التى كان يبذلها الاخوان مصطفى وعلي أمين لتقديم صورة زائفة عن الملك وأسرته أمام الرأى العام .

صراع مع الانجليز

وعندما أتأمل اليوم أحداث تلك الفترة تتدافع إلي ذاكرتى أشياء عديدة قد يكون من المفيد أن أشير إلى أهمها باعتبارى واحدا من شهودها أو المشاركين فيها . وأولها بطبيعة الحال اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت مظاهرات ٢٦ فبراير سنة ١٩٤٦ ضد الاحتلال فى

ميدان التحرير وفي مواجهة ثكنات قصر النيل البريطانية (وكانت هنا مبنى الجامعة العربية وفندق هيلتون النيل) ، مما أدى إلى سقوط العشرات من الشهداء برصاص قوات الاحتلال . لقد كان هذا العمل الجماهيري المجيد حدثا تاريخيا بمعنى الكلمة ، وحتى اليوم مازال الطلاب فى العالم يحتفلون بهذا اليوم (٢١ فبراير) سنويا باعتباره (يوم الطلاب العالمى) .

ولأنى كنت فى الاسكندرية فلم يكن لى أدنى صلة لا بتشكيل تلك اللجنة ولا بمظاهرات ذلك اليوم المجيد . وإنما ذكرته هنا لأن هذا الحدث الجليل كان له رد فعل غاضب بالاسكندرية يوم ٥ مارس حيث وقعت المصادمات التى كنت من شهودها بين مواقع البوليس الحربى البريطانى بمحطة الرمل والمنشية وأدت إلى مصرع عدد من جنود الاحتلال .

بعد هذه الأحداث بنحو شهرين أو ثلاثة فيما أذكر وقعت مصادمات أخرى بين طلاب جامعة الاسكندرية وقوات البوليس المصرى التى كانت تحاصر مبنى الجامعة فى محرم بك حيث كانت توجد كلية العلوم وكلية الحقوق وانتهت بحادث فاجع وهو مقتل ضابط من قوات الشرطة . وجن جنون قوات الأمن فأمطرت الجامعة سيلا من الرصاص واعتقلت كل من خرج من الجامعة سواء من الطلاب أو هيئات التدريس ، وظل الحصار مضروبا حول الجامعة إلى منتصف الليل عندما حضر وزير التعليم - محمد العشماوى - من القاهرة فى طائرة وأمر برفع الحصار . وخلال

فترة الحصار قمت مع مجموعة من معيدى كلية العلوم بكتابة عريضة احتجاج على الحصار وجمعنا توقيعات العديد من أعضاء هيئات التدريس الذين كانوا معنا فى الحصار بما فى ذلك توقيع عميد كلية العلوم - الدكتور حسين فوزى - وعميد كلية الحقوق الدكتور عبدالمعطى خيال . واتصلت تليفونيا بأحد الأصدقاء خارج الجامعة وأبلغته نص عريضة الاحتجاج طالبا منه أن يبرق بها إلى صحيفة المعارضة الوفدية (صوت الأمة) . وبالفعل صدرت الجريدة فى صباح اليوم التالى وفى صفحتها الأولى نص البرقية فى برواز كبير موقعا عليه باسمى نيابة عن الموقعين ، وكان ظهور اسمى بهذا الشكل مجرد مصادفة إذ أن موظف التلغراف أصر على وجود اسم يتحمل مسؤولية هذه البرقية فكان أن أعطاه صديقى اسمى ، واستشاط رئيس الوزراء - اسماعيل صدقى - وكلف وزير التعليم بالتحقيق فى الموضوع . واعتقد أننى كنت على وشك الفصل من الجامعة بسبب هذه العريضة لولا أن الوزير اكتشف أن عميدى العلوم والحقوق من الموقعين فضلا عن عدد كبير من أعضاء هيئة التدريس ، ولم يكن من السهل إذن تحميلى المسؤولية .

محاولة فاشلة لاعتقالى !

ولابد أن تلك الواقعة كانت ذات صلة بوضع اسمى فى كشوف حملة اعتقالات اسماعيل صدقى التى نفذت فجر ١١ يوليو سنة ١٩٤٦ واعتقل فيها إلعديون من بينهم محمد زكى عبدالقادر والدكتور محمد

مندور وعبدالرحمن الشرقاوى وهنرى كورييل وآخرون كثيرون ،
والتي قصد بها فى حقيقة الأمر تصفية النشاط الجماهيرى البارز
الذى كان اليسار المصرى - بالتعاون مع الطليعة الوفدية - قد نجح فى
قيادته ، ولم يتمكن بوليس الاسكندرية من اعتقالهم لأنهم ذهبوا إلى
عنوان كنت قد تركته منذ أسابيع قليلة . وشاء الحظ العاثر للضابط
المكلف بالعملية أن يفتش منزل أحد نواب حزب السعديين بحثا
عنى ، ورفض أن يعترف أن لهذا المنزل حصانة برلمانية . وفى اليوم
التالى تقدم النائب باستجواب فى البرلمان ، وكانت العلاقات بين
اسماعيل صدقى والسعديين قد بدأت تتوتر لأسباب أخرى فحمل النواب
حملة شديدة على الوزارة واضطر رئيس الوزراء إلى أن يلقى بيانا فى
البرلمان يشرح فيه ملابسات خطأ الضابط الذى كان مكلفا باعتقال
ضمن الحملة ، وقدم اسماعيل صدقى اعتذارا للنائب عما حدث وأعلن
أن الضابط قد نقل إلى الصعيد عقابا له .

قرأت كل هذا وأنا فى مخبئى عند أحد الأصدقاء بالاسكندرية وقد
تردد اسمى كثيرا فى كل هذه المساجلات البرلمانية . وفى أوائل سبتمبر
كانت النيابة قد أفرجت عن جميع من اعتقلوا فى حملة يوليو وحفظت
التحقيق . فعدت إلى الجامعة وعند خروجى منها ظهرا فى أحد الأيام
وجدت ضابطا فى انتظارى حيث قضيت فى قسم محرم بك ليلة شديدة

الطرافة ، وفى الصباح توجهت إلى النيابة بالمنشية ، فما كان من وكيل النيابة إلا أن سألنى بضعة أسئلة شكلية وتولى هو الاجابة عليها ثم رجانى أن أذهب إلى الجامعة فور خروجى من مكتبه . ولم أفهم السبب فى هذا الطلب إلا عندما علمت عند وصولى إلى الكلية بإضراب الطلاب احتجاجا على اعتقالى .

أما الواقعة الثالثة الجديرة بالإشارة هنا فتتعلق بأحداث ٥ ، ٦ ، ابريل سنة ١٩٤٨ المعروفة باسم «إضراب البوليس» . لقد كان لضباط البوليس وجنوده مطالب تتعلق بزيادة الرواتب وتحسين ظروف العمل . وقد فشلوا فى إقناع رئيس الوزراء النقراشى الذى كان عنيدا إلي حد الحماسة ، بعدالة تلك المطالب . وعندئذ دعوا إلى إضراب عام لهم فى يوم ٥ إبريل ، وكان لهذه الدعوة إلى الاضراب امتدادات جماهيرية واسعة فى الاسكندرية على وجه الخصوص . فقد تزامن هذا الموضوع الخطير - إضراب البوليس - مع مطالب نقابية خاصة بالأجور لعمال الغزل والنسيج وغيرهم ، كما تزامن مع موضوع طلابى آخر عرف آنذاك باسم «قضية سعد فريد» .

كان سعد فريد طالبا بكلية العلوم قبض عليه فى حى كرموز وقيل إنه كان يوزع منشورا يساريا عند أبواب شركة الغزل الأهلية . وفى إجراءات حكومية عاجلة ومقصودة للتخويف حوكم سعد فريد وصدر عليه حكم بالسجن ستة أشهر ، وقد أثار هذا الحكم تأثرة طلاب

الجامعة لأنه كان أول حكم يصدر ضد طالب . كل هذا كان قد جرى قبل ٥ ابريل بشهر على الأقل . لكن غياب البوليس فى هذا اليوم المشهود كان فرصة مواتية لمظاهرات عارمة التحم فيها العمال مع الطلاب مع جنود البوليس فى مظاهرات ملأت ميدان المنشية ، وكان جنود البوليس يرفعون سناكى بنادقهم وعلى قممها رغيف عيش إشارة إلى مطالبهم . واتجهت بعض هذه المظاهرات إلى سجن الحضرة لإطلاق سراح سعد فريد . ونزلت قوات الجيش بالدبابات والعربات المصفحة إلى الميادين وأطلقت النيران وسقط العديد من القتلى والجرحى . وفى هذا اليوم - أو ربما اليوم التالى ٦ ابريل - وزعت منشورات باسم (حدثو) كان عنوانها «تسقط الملكية وتحيا الجمهورية» . وكانت تلك أول مرة توزع فيها مثل هذه المنشورات الثورية بين الجماهير . ولقد أشرت منذ سنوات فى مكان آخر إلى هذه الواقعة وذكرت أن كاتب المنشور كان فى الحقيقة الشاعر كمال عبدالحليم الذى كان آنذاك المسئول السياسى فى (حدثو) لمنطقة الاسكندرية ، وأن كاتب هذه السطور هو الذى قام بطبع المنشور فى أحد مطابع محرم بك وتنظيم توزيعه ، وكنت آنذاك مسئول الدعاية والتثقيف فى نفس لجنة المنطقة .

اعتقالات بالجملة

لقد كان هذا المد الثورى بالاسكندرية والقاهرة هو السبب الحقيقى لقيام حكومة النقراشى بإعلان الأحكام العرفية فى ١٥ مايو سنة ١٩٤٨

رغم أنها اتخذت من موضوع فلسطين تكتة لهذا الإعلان ، ولعل الدليل الواضح على ذلك أنها لجأت إلى اعتقال كل القوى السياسية المناوئة للنظام بادئة باليسار ثم قوى الطليعة الوفدية ثم الاخوان المسلمين بعد ذلك بشهور . وكنت بالطبع واحدا من المعتقلين الذين أودعوا فى معتقل (أبو قير) بالاسكندرية ثم نقلت بعد ذلك بشهور مع آخرين إلى المعتقل المخصص للقاهرة (معتقل الهاكستيب) ، ثم نقلت مع آخرين إلى معتقل (الطور) على ساحل البحر الأحمر بالقرب من دير سانت كاترين ، وقد تجمع فى هذا المكان الذى كان أصلا مخصصا للحجر الصحى الآلاف من اليسار والاخوان المسلمين ، وكان الهدف هو عزلهم تماما عن القاهرة والعالم الخارجى ، وكانت وسيلة الإتصال الوحيدة بين المعتقل وبين السويس هى الباخرة «عايدة» التى كانت تأتى لنا بالمؤن والماكولات والخطابات كل أسبوعين .

وقد قضيت فى تلك المعتقلات نحو عام ونصف مرصت فى آخرها ونقلت إلى مستشفى الدمرداش وبقيت فيه من سبتمبر سنة ١٩٤٩ حتى أفرج عني فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عندما أجريت الانتخابات العامة وعادت الحكومة الوفدية فأفرجت عن جميع المعتقلين .

ومن الضرورى الإشارة إلى أن قصة الاعتقالات هذه قد تزامنت مع

الانقسامات العديدة التى وقعت فى صفوف اليسار وأدت إلى تضعضع نفوذه . صحيح أن الخلافات وبداية الانقسامات كانت قد بدأت قبل إعلان الأحكام العرفية والاعتقالات ، وذلك بانقسام شهادى عطية الشافعى الذى عرف آنذاك بـ «تكتل سليمان» . ولكن قضية فلسطين والموقف من مشروع التقسيم وبداية اعتقالات ١٥ مايو سنة ١٩٤٨ ... كل ذلك خلق مناخا مواتيا لانقسامات أوسع بين مؤيدى مشروع التقسيم ومعارضيه فى صفوف اليسار ، وكان من الطبيعى أن يثور فى هذا المناخ وضع الأجانب واليهود داخل قيادة (حدثو) وخصوصا هنرى كورييل .

ولقد حاولنا فى الاسكندرية تجنب انقسامات القاهرة ونجحنا فى ذلك إلى حد كبير فى أول الأمر ، لكن اشتداد حملة الاعتقالات ثم ذهابنا إلى معتقل الهاكستيب حيث الانقسامات كانت مكرسة بالفعل أدى بطبيعة الحال إلى أن أصبحت الاسكندرية جزءا من هذه الانقسامات التى صارت أمرا واقعا . ولقد حلت الحكومة موضوع الاجانب فى معظمه بترحيلهم إلى خارج مصر ، ولم يعد لهذه المشكلة وجود داخل مصر وإن كان بعض هؤلاء المتصرين من اليهود قد حاولوا إنشاء تنظيم لهم فى باريس باسم (مجموعة روما) . ولاشك أن الانقسامات قد أضعفت نفوذ اليسار إلى حد كبير وأصبح من الواضح لكل ذى عينين

أنه إذا قدر اليسار أن يستعيد حيويته ونفوذه فى يوم من الأيام فإن ذلك سوف يستغرق زمنا طويلا .

عندما أفرج عنى فى ١٠ يناير سنة ١٩٥٠ عدت إلى جامعة الاسكندرية كما عاد زملائى الآخرون من المعيدى ، لكننا وجدنا تقاعسا من الكلية فى تسليمنا العمل من جديد . وعدت إلى القاهرة ساعيا لمقابلة وزير التعليم الجديد بالوزارة الوفدية - الدكتور طه حسين - لشرح الأوضاع له ، ولقد نجحت فى ذلك بفضل سكرتيه الخاص (حسين عزت) ومدير مكتبه (سعيد العريان) . ولقد كان موقف الوزير رائعا على الرغم من أنه لم يكن يعرفنى أصلا .. أنصت باهتمام كعادته لكل ما قلته ثم أشار إلى حسين عزت أن يطلب له مدير جامعة الاسكندرية تليفونيا . وقيت فى غرفة حسين عزت إلى أن استدعانى الوزير مرة أخرى لمقابلته فإذا به يطلب منى أن أذهب إلى الاسكندرية لتسلم عملي ، وقد علمت بعد ذلك عندما عدت إلى الاسكندرية أنه شدد على مدير الجامعة بضرورة عودتنا إلى عملنا .

بداية مرحلة جديدة

ولقد كانت عودتى إلى العمل بكلية العلوم بداية لمرحلة جديدة انتهت فيها - بعد مراجعة فكرية طويلة - إلى ضرورة اتخاذ موقف جديد من النشاط السياسى نتيجة ما استجد من ظروف . لقد تمزقت قوى اليسار إلى كيانات صغيرة بلا وزن حقيقى ، واتضح لى سذاجة تفكيرنا

السياسى الذى كان يتوهم أن ثورة بقيادة قوى اليسار هى على الأبواب . ولقد كنا محقين فى الوصول إلى نتيجة أن نظام فاروق قد أصبح كالثمرة العفنة التى على وشك السقوط ، لكن الخطأ كان فى تصور أن اليسار كان قادرا على التصدى لقيادة التحول . ولقد ثبت تاريخيا أن ضباط الجيش بتوجههم الوطنى العام (وإن ضموا عناصر تنتمى إلى اليمين والوسط واليسار) هم الذين كانوا مؤهلين لقيادة معركة التحول فى معركة سرعان ما تم التخلص فيها من عنصر اليسار الموجود فى القيادة (خالد محيى الدين) .

وكل هذا التحليل قد انتهى بى إلى ضرورة السفر إلى الخارج للحصول على الدكتوراه مادمت سائقى فى الجامعة . وطلبت من صديق لى كان قد عاد من بريطانيا بعد حصوله على الدكتوراه أن يحجز لى مكانا فى إحدى كليات جامعة لندن ، وعندما تم هذا بدأت أستعد علميا للسفر ، إذ أن مشاكل العمل السياسى كانت قد أبعدتني عن اهتماماتى العلمية ، وهكذا سافرت فى أوائل سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى لندن .

ومن المفارقات الغريبة التى وقعت لى قبل سفرى بأقل من شهرين أن وزير الداخلية فى وزارة الوفد - فؤاد سراج الدين - استدعانى إلى مقابلة فى مكتبه بلاطوى سنة ١٩٥٠ كما استدعنى زميلى د. محمد

عجلان . وقد أجرى معنا حوارا سياسيا طويلا حول أفكارنا وبرنامنا
السياسى تحدثنا معه بصراحة حول قضايا الإصلاح الزراعى وبرنامج
النهوض بالريف وحول قضايا التأمينات (خصوصا شركة قناة
السويس) وحقوق الحركة العمالية النقابية إلخ ، وكان رأى الوزير
أن الكثير مما ندعو له موجود فى برنامج الوفد ولم نوافق بالطبع على
هذا رأى . وقد فهمت السبب الأساسى لدعوته عندما قال إن تقارير
القسم المخصوص له تقول إننا مستمرون فى نشاطنا السياسى غير
القانونى ، ولم يكن هذا صحيحا بالمرّة فقد كنت أستعد للسفر إلى لندن
ومشغولا بإعادة تأهيل نفسى من الناحية العلمية .

ولقد أوضحت هذا للوزير الذى فوجئ بنبأ استعدادى للسفر إلى
لندن . ولقد ذكرته فى الرد على تقارير القسم المخصوص الزائفة بما
كان يهتم هو به عام ١٩٤٩ من نفس هذه الأجهزة بأنه يدبر مؤامرة
لاغتيال رئيس الوزراء آنذاك النقراشى - ولم يملك الوزير إلا أن يبتسم
ويسكت عند سماعه كلامى . ومن طرائف هذا اللقاء أن ضابط القسم
المخصوص الذى حضر هذا اللقاء واستمع إلى هجومى على تقارير
القسم المخصوص هو ممدوح سالم الذى صار رئيسا للوزراء بعد ذلك
فى عهد السادات .

★ ★ ★

قضيت فى بريطانيا عامين بالتمام والكمال من سبتمبر سنة ١٩٥٠ إلى سبتمبر سنة ١٩٥٢ لإعداد رسالة الدكتوراه فى الإحصاء الرياضى بإحدى كليات جامعة لندن . ومع أنى قضيت فيما بعد نحو خمس سنوات أخرى فى بريطانيا كمدرس بالجامعة (طوال سنتى ١٩٥٥ ، ١٩٥٩) وكأستاذ زائر لإحدى جامعتها (ثلاث سنوات خلال السبعينيات) إلا أن فترة الدكتوراه كانت نقطة تحول شديدة الأهمية فى حياتى العلمية وتكوينى الثقافى .

وفى العادة يستغرق الاعداد للدكتوراه فى الفروع العملية للعلوم الطبيعية حوالى أربع سنوات أو أكثر ، لكن فى الرياضيات بالذات يصبح من الممكن - ولو أنه نادر - أن ينتهى الطالب من إعداد رسالته خلال عامين ميلاديين إذ ساعده الحظ فى موضوع البحث أرهق نفسه بالعمل المتواصل وهو ما حدث معى إذ رغم سوء حظى فى مناسبات عديدة من حياتى فإن الموضوع الذى اقترح على بحثه كان أصلاً قد بدأ على يد المهندسين المدنيين . وقد وصل إلى أستاذى من خلال أستاذ الهندسة المدنية بنفس الكلية التى التحقت بها (الكلية الامبراطورية) . والموضوع يتلخص فى أن مهندساً استشارياً بريطانياً مرموقاً - هيرست - عمل فى مصر سنين طويلة وارتبط اسمه بدراساته المنشورة عن نهر النيل كان قد نشر فى مجلة الهندسة المدنية الامريكية بحثاً مهماً

يحاول فيه بناء نظرية للتخزين القرنى (مائة سنة) للمياه فى بحيرة فكتوريا . وقد صادف هذا البحث العديد من المسائل النظرية العامة فى علم الاحتمالات والاحصاء . وكعادة المهندسين فقد حاول هيرست أن يعطى إجابات تقريبية على مسائل من نوع : كم يكون حجم الخزان إذا أريد له ألا ينضب خلال المائة سنة وعلى أساس تصرف مائى متوسط معين كل عام ؟ ولقد كان المطلوب منى هو معالجة منهجية لهذه القضايا وإعطاء إجابات دقيقة غير تقريبية عليها ، وهذا ما نجحت فيه فى نهاية الأمر وأدى بى إلى علاقة خصبة مع هيرست بعد ذلك .

ولقد اقتضى هذا العمل المتواصل صباحا فى حضور محاضرات لطلبة الدراسات العليا وطلبة ما قبل البكالوريوس ، وبعد الظهر فى الذهاب إلى مكتبة الكلية ومكتبة المتحف العلمى البريطانى ، وفى المساء فى مواصلة القراءة بالمنزل فى كثير من الأحيان ، ولا شك أنها كانت مرحلة أساسية فى تكوينى العلمى .

تكوينى الثقافى

غير أن هذه المرحلة لم تكن أساسية فى تكوينى الرياضى فحسب ، وإنما كانت أيضا شديدة الأهمية فى تكوينى الثقافى العام ، إذ انفتحت فيها على الجوانب الإيجابية العظيمة فى الثقافة الغربية عموما وفى الثقافة الانجليزية خصوصا . ومن حسن الحظ أن الكلية التى

التحققت بها كانت فى أحد أحياء لندن المشهورة (سوٲ كيننز نجتون) وهو حى المتاحف الكبيرة ... متحف فيكتوريا وألبرت ، المتحف العلمى البريطانى ، متحف التاريخ الطبيعى .. إلخ ، كما أن به قاعة ألبرت الشهيرة والتى كانت تعقد بها الحفلات الموسيقية الكبيرة والاجتماعية الجماهيرية الضخمة وكل هذا كان يبعد عن غرقتى بالكلية خطوات ، ولا شك أننى مدين لقاعة ألبرت بتذوقى للموسيقى الكلاسيكية خصوصا بيتهوفن وموتسارت وهما أحب موسيقيين إلى قلبى ، كما حرصت فى عطلات نهاية الأسبوع على التردد على المسرح البريطانى والاستمتاع بروائعه ، ولم أفلح مع ذلك فى تذوق الاوبرا والاهتمام بها .

كما كانت إقامتى فى بريطانيا فرصة للقراءة فى الأدب الانجليزى وحضور ندوات ثقافية واجتماعية وسياسية وزيارة العديد من المدن البريطانية . ورغم هذا البرنامج الحاشد لم أفقد اهتمامى بتتبع شئون مصر السياسية ومشاكلها وكتبت بين الحين والآخر مقالات لصحيفة ديلى وركر البريطانية باسم (ص . الايوبى) ، كما حرصت على التردد على النادى المصرى يومى السبت والأحد للالتقاء بزملائى الدارسين لمناقشة الأوضاع فى مصر . وقد استطعنا تشكيل «اللجنة الوطنية» لتابعة الموقف فى مصر والاستجابة له بالعمل الطلابى الصحيح ، وأذكر من أعضاء هذه اللجنة د . حكمت أبوزيد وزير

الشئون الاجتماعية خلال المرحلة الناصرية ، د . فائق فريد نائب وزير الكهرياء الاسبق .

وقد قامت هذه اللجنة بأعمال مهمة عديدة ومنها أنها كانت تصدر نشرة غير دورية عما يجرى فى مصر سياسيا وثقافيا عرفت باسم «السلام والاستقلال» ، وكنا نرسلها إلى النقابات والهيئات البريطانية بالبريد . والحقيقة أن هذه النشرة كان يصدرها أصلا د . عبد المعبود الجبيلى فى باريس وكان يرسلها لى فنتولى ترجمتها إلى الانجليزية وطبع أعداد كافية منها وإرسالها إلى النقابات والهيئات .

ولقد نجحت اللجنة الوطنية فى عقد مؤتمرات مختلفة للطلاب المصريين فى بريطانيا بالنادى المصرى فى المناسبات السياسية والاجتماعية المختلفة ، وقد تميزت تلك الفترة فى مصر بأحداث سياسية واجتماعية مهمة ومتدافعة مما ساعد على اهتمام الطلاب المصريين بحضور تلك المؤتمرات فى لندن . غير أن أهم عمل اضطلعت به تلك اللجنة ونجحت فيه المؤتمر الضخم الذى عقد بالنادى المصرى أثر هجوم القوات البريطانية على محافظة الاسماعيلية وحريق القاهرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، وكانت نفوس الطلاب تغلى سخطا على الأوضاع فى مصر التى أدت إلى تلك الكارثة الرهيبة ، وفى هذا الاجتماع تحدثت طويلا عن المؤامرة التى دبرها الاحتلال مع الرجعية المصرية لاسقاط

وزارة الوفد وحرق القاهرة ، كما تحدث غيرى من الطلاب فى هجوم صريح على النظام الملكى فى مصر محملين فاروق وقوات الاحتلال المسئولية الأولى فيما حدث ، بل لقد وقف أحد الدارسين (د . عبد الحميد أمين) وطالب بضرورة أن يتنازل الملك فاروق عن العرش كبداية لحل الأزمة المستحكمة . ولقد صفق الطلاب طويلا لهذا الاقتراح ولكنه تسبب فى إحراج شديد لسدير مكتب البعثات - د . عبد العزيز عتيق - الذى كان زوج شقيقة عبد الحميد أمين ، وهو نجل كاتبنا الكبير أحمد أمين .

ولم يمض على هذا المؤتمر سوى شهور قليلة حتى تحول الضباط الاحرار للاستيلاء على السلطة فيما عرف باسم ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وفى هذه المناسبة دعونا لمؤتمر حاشد من جميع مدن بريطانيا لمناقشة الوضع الجديد . وكانت المعلومات المتاحة شحيحة عن طبيعة وتوجهات هذه الحركة الجديدة ، إلا أن الحدث الذى دفعنا إلى تأييد حركة الجيش بشكل حاسم هو طرد فاروق من مصر وتنازله عن العرش ، فقد كان هذا مطلبنا من مطالبنا فى مؤتمر أواخر يناير سنة ١٩٥٢ . وأرسلت باسم اللجنة والمؤتمر برقية تأييد للثورة أذيعت من راديو القاهرة ، وازدادت قناعتى بصحة هذا الموقف عندما أعلنت الجمهورية لاحقا .

قرار بالفصل من الجامعة

بعد وقوع الثورة بشهرين قدمت رسالة الدكتوراه ونجحت في الحصول على الدرجة وعُدت إلى مصر متفائلاً ببداية مرحلة جديدة . ولم أذهب إلى جامعة الاسكندرية كما كان مفروضاً وإنما صدر قرار وزاري بنقل إلى كلية العلوم جامعة القاهرة لأحل محل د . طلبة عويضة الذي كان قد أُعير إلى العراق . وبقيت في قسم الرياضة بالبحث بالكلية المدرس الوحيد بين عدد من الأساتذة المساعدين وأستاذاً واحداً أتحمل عبء تدريس ١٤ ساعة أسبوعياً حتى وقعت أزمة مارس سنة ١٩٥٤ فأنحزت إلى دعوة الديمقراطية مع خالد محيي الدين ومحمد نجيب ، وكنت من الموقعين على العريضة التي طالبت بعودة الجيش إلى ثكناته . وكان أن صدر قرار من مجلس قيادة الثورة في ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٥٤ بفصلي مع ٤٢ عضواً من هيئات التدريس بالجامعات معظمهم من الذين اتخذوا هذا الموقف . وكان من بين هؤلاء د . عبد المنعم الشراوى د . لويس عوض ، ومحمود أمين العالم ، ود . فوزى منصور (من جامعة الاسكندرية) وآخرون كثيرون .

ولقد كان صدور هذا القرار صدمة كبيرة لى فقد كنت قد قضيت عامين في جامعة القاهرة أدرس وأبحث واكتب مقالات في الأدب والثقافة في جريدة المصرى ومجلة روز اليوسف . وفي مايو سنة ١٩٥٤

طلبت إجازة في الصيف للسفر إلى بريطانيا لاستكمال بعض الأبحاث العلمية هناك ، وقد وافقت جامعة القاهرة وسافرت فعلا وقضيت الصيف كله في لندن منقطعا لأبحاثي وعدت إلى القاهرة بالفعل يوم ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٥٤ و دون أن أعرف أن قرارا من مجلس قيادة الثورة قد صدر يوم ٢٤ سبتمبر بفصلى من جامعة القاهرة . ومن المفارقات الغريبة أن أستاذى فى جامعة لندن الذى أشرف على رسالة الدكتوراه استدعانى لمقابلته قبل ترك لندن بأيام وفاجأنى أنه قد طلب منه أن يرشح أحد تلاميذه لشغل وظيفة محاضر فى الإحصاء بإحدى كليات الجامعة وأنه قد خطر فى ذهنه أن يرشحنى لشغل هذه الوظيفة . وقد اعتذرت فورا وقلت له إن جامعة القاهرة أولى بجهودى . وبعد هذا اللقاء بأيام عدت فعلا إلى القاهرة لأجد قرار مجلس قيادة الثورة فى انتظارى ، وهكذا أصبحت فجأة فى القاهرة بلا عمل وبالطبع أبرقت إلى أستاذى أخبره أنني قبلت عرضه وأن خطابا فى الطريق يشرح لماذا غيرت رأى .

واستأنسى فضل الذين حاولوا مساعدتى فى هذه الظروف ومنهم د . عبد المنعم الشافعى الذى كان آنذاك وكيلا لوزارة الشؤون ، والذى رشحنى للعمل فى معهد الإحصاء الدولى (فرع بيروت) . وبالفعل سافرت إلى بيروت فى نوفمبر سنة ١٩٥٤ وقضيت هناك نحو أربعة شهور أدرس فيها لطلاب معهد الإحصاء الدولى . ومن بيروت سافرت

إلى بريطانيا فى فبراير سنة ١٩٥٥ وبقيت فيها نحو عامين محاضرا بكلية تشلسى للعلوم والتكنولوجيا حتى تأميم قناة السويس فى يوليو سنة ١٩٥٦ وعندهذا قررت أن أقدم استقالتى من عملى لأتفرغ للدفاع عن قرار التأميم أمام رأى العام البريطانى . والغريب أن إحسان عبد القدوس - وكنت على صلة به وأبعث له مقالاتى فينشرها فى روز اليوسف - كان قد كتب فى فبراير سنة ١٩٥٥ مقالا طويلا على صفحتين فى مجلته عنوانه «الرجل الذى سرقه الانجليز» يدعو فيه إلى إعادتى إلى جامعة القاهرة ويطالب الثورة بتصحيح هذا الخطأ ، وكان مقالا شجاعا فى تلك الظروف . ثم جاءت مسألة التأميم واستقالتى من عملى فى لندن فوضعت القيادة فى مصر فى موقف حرج . والغريب أن الملحق العسكرى فى السفارة المصرية بلندن طلب منى ألا اشترك فى العمل الجماهيرى فى بريطانيا المدافع عن التأميم والمناهض للحرب لانه كان يتصور أنني سأقف فى هذا العمل معارضا لعبد الناصر باعتبارى مفصولا من الجامعة لكنى رفضت طلبه بالطبع واتخذت الموقف الذى أملاه على ضميرى الوطنى وهو الدفاع عن التأميم وعن عبد الناصر فى موقفه من الجزائر وبنادونج .

ولقد تعاونت فى هذا النشاط مع «حركة تحرير المستعمرات» التى كان الجناح اليسارى من نواب حزب العمال هو القيادة الحقيقية لها

(توفى بن وأخرون) واشتركت بهذه الصفة في اجتماعات جماهيرية حاشدة في المدن البريطانية المختلفة ، انتهت إلى اجتماع ميدان «الطرف الأغر» بعد بدء العدوان الثلاثى على مصر بأيام . وبعد هذا الاجتماع بأيام عدت إلى القاهرة عن طرق الخرطوم التى بقيت فيها حتى حضور أول طائرة من القاهرة فوصلت القاهرة في أوائل ديسمبر لأجد عرضا من خالد محيى الدين بالعمل معه في صحيفة المساء . وقبلت العرض وتحولت من أستاذ جامعى إلى صحفى منقطع للعمل فى بلاط صاحبة الجلالة .

أمينة السعيد

فشلى فى بداية حياتى دفعنى لاحتلال أرفع المناصب الصحفية

رحلتى مع الحياة العملية تزيد على الخمسين عاما ، تبدأ من المرحلة الثانوية يوم اختارتنى السيدة هدى شعراوي للعمل معها ، وفى الجامعة مارست العمل الصحفى، من خلال المقالات التى كنت أرسلها لبعض الصحف والمجلات باسم مستعار يوم التحقت بدار الهلال للعمل بها ، وطردنى أميل زيدان، وجاء زوجى لكى يقدم لى النصيح، ويصحح لى بعض الاخطاء التى وقعت فيها، ويوضح السبب الذى جعلهم يستغفون عن خدماتى بدار الهلال، واشترى لى هدية قيمة مازلت أقتنيها وأضعها أمامى فى منزلى، وهى الموسوعة الانجليزية والتى أفادتنى كثيرا فى حياتى العملية.

وبدأت أقدم برامج إذاعية من خلال قراءتى فى تلك الموسوعة ..
 وعدت إلى دار الهلال مرة أخرى بعد محاولات من جانب إميل زيدان
 الذى أعده صحفيا لا مثيل له وأنا مدينة له بالكثير ..
 بدأت الكتاب قبل عام ١٩٣٥ وكنت طالبة بالجامعة، كنت أكتب
 بإمضاء مختلف (مصرية)، (مواطنة) وليس بإمضاء أمينة السعيد، حتى
 لا يقولوا إننى مازلت طالبة! وسافرت إلى الهند عام ١٩٤٦ وكانت
 الحرب الأهلية مشتعلة بين المسلمين والهندوس وأرسلتنى السيدة هدى
 شعراوى للاشتراك فى أحد المؤتمرات، كما اشتركت فى مؤتمرات لم
 تكن هدى شعراوى تستطيع السفر إليها فى بلاد بعيدة خاصة أننى
 أجيد اللغة الانجليزية .

التنس .. جريمة

أذكر أن مصطفى أمين له دين كبير فى عنقى. فذات يوم وأنا طالبة.
 بكلية الآداب، كنت ألعب التنس فى وقت الفراغ مع مدرب هذه اللعبة
 بملاعب الجامعة، وشاهدنى أحد الرجعيين مثل هؤلاء الذين نشاهدهم
 اليوم، وعلى الفور ذهب إلى الجامعة وهو يصيح إحققنا.. وإسلاماه
 هناك بنت قد اعتدت على الإسلام، فجاءت مجموعة من الطلاب تهول
 بمن فيهم مصطفى أمين، ليروا هذا الاعتداء فوجدونى أقف لابسة ثيابا
 محترمة بأكمام طويلة، والمدرّب يقوم بتدريبي على لعبة التنس.

بعد اكتشافهم هذا الكذب المزعوم، حاول البعض منهم الحضور لمشاهدة هذه التدريبات، فكنيت أغضب، وحينما حاولت طردهم غضبوا منى واعتبروا ذلك إهانة، وقاطعوني فى الجامعة ، فلا أحد يكلمنى أو يجلس بجانبى، بل إمعانا فى غضبهم كانوا يتركوننى أجلس فى الصف الأول ويجلسون بعدى بثلاثة أو أربعة صفوف، يعنى (شغل عبال) واستماتة فى مضايقتى ومقاطعتى.

ولكننى استمرت فى سياستى، وكانت النتيجة أنهم تغيروا، وعادوا إلى طبيعتهم الأولى فى علاقات جامعية جيدة، وعابت المودة والصداقة بيننا من جديد وقتها أحس مصطفى أمين أن لدى قسما كبيرا من الشجاعة فأخذنى إلى الأستاذ محمد التابعى وقدمنى إليه، وكان رئيساً لتحرير آخر ساعة، وقمت بعمل عدة موضوعات، ولكنها تسببت فى مشاكل كثيرة واجهتنى فى بداية عشقى وحبى للعمل الصحفى.

من بين هذه الموضوعات أنهم طلبوا منى الذهاب إلى الإسكندرية وأحاول أن أدخل حماما مغلقا للسيدات فى سان ستيفانو لأستمع إلى ما تقوله زوجات الوزراء عن أزواجهن..

كنت وقتها قليلة الحيلة، وليس لدى تجربة، فذهبت بالفعل إلى هذا الحمام، وظللت أستمع إلى هؤلاء السيدات، وكتبت مقالا بدون إمضاء وفور نشره حدث نفور كبير من جانب هؤلاء الوزراء وزوجاتهم، وصممت

الحكومة على غلق «آخر ساعة» وطلبوا أن يعرفوا هذا «المجرم» الذي كتب هذا الكلام الخطير كنت. عقب نشر المقال في حالة سيئة يملؤني الخوف والفرع، وقال البعض إن كاتب هذه الصفحة هو أمينة السعيد، وكان على علوية باشا صديقا حميما لوالدي.. جاء ليسألني، هل صحيح كتبت هذا الكلام؟ ومن شدة الخوف كذبت عليه وقلت له : لا .. قال لي . أنا أصدقك، فلا أتصور أن تكتب أمينة السعيد مثل هذا الكلام

وجعلتني هذه التجربة أفكر وأوقن بأن من يكتب أسرار الناس، يعد في نظري سارقا لأخبارهم، ويعد إنسانا غير سوى واحتقرت نفسي بشدة على هذا العمل ، ولم أكرر هذه التجربة على مدى خمسين عاما من العمل في الصحافة.. لم أأخذ أبدا حديثا استمعت إليه في السر، ولم أمنع إمضائي عن أي موضوع قمت فعلا بكتابته .

في هذه الفترة قرأت لعظماء الأدباء والكتاب من الغرب وكانت النتيجة أن تفتح ذهني بشكل كبير، وأخذت كثيرا من روح هذا الأدب، ولذلك فكل مكتبتي تقريبا لهؤلاء الكتاب الكبار.

بعد تجربتي مع «آخر ساعة» أقنعتني الأستاذ إبراهيم عبده بالعمل في مجلة «كوكب الشرق» فذهبت معه لمقابلة أحمد باشا ماهر وكان رئيسا لتحرير المجلة، والذي رحب بي ترحيبا شديدا وأعطاني صفحة

أسبوعية نسائية بذلت جهدا كبيرا في تحريرها، وكانوا قد وعدوني بمبنى راتبها، ولكن في نهاية الشهر لم تكن لديهم أموال وبعد عدة أشهر اضطررت لتركهم .

وتلقفني بعد ذلك الأستاذ فكرى أباطة وكان صديقا حميما لوالدى، وكان تلميذه في ثورة ١٩١٩ وكنا وقتها بمدينة أسيوط التقيت به بعد وفاة والدى ..

أخذنى إلى إميل زيدان والذي حدد راتبها شهريا قدره ثلاثة جنيهات ، وكنت وقتها اكتب كلاما (هلس) حيث لم تكن لدى الخبرة الصحفية والتي تجعل منى قيمة لدى الآخرين ، واضطر إميل زيدان أن يرسل لى خطابا يذوب رقعة وأدبا ورفقتنى ، وتضمن خطابه. إن مرتبك الكبير وقدره ثلاثة جنيهات لا يتناسب مع إنتاجك الضئيل، وحزنت جدا وبكيت لدى تسلمى هذا الخطاب، وأحسست بأن الدنيا قد اسودت فى عيني.

الموسوعة .. هدية .

فى هذه الأثناء كنت مخطوبة للدكتور عبدالله،، وحينما قصصت عليه ما حدث لى فى دار الهلال قال لى إنك مخطئة، فالصحافة مثل التجارة والصناعة، ولا بد من إنجاز العمل الصحفى بفن وعناية شديدين، حتى تجنى من وراء ذلك الشيء الكثير فلو كنت مثقفة ثقافة عالية ، لأعطيت

المجلة الجهد الذى تستفيد منه، لكن بسبب ضعفك الثقافى، جاء عملك ضعيفا ولا يتناسب مع احتياجاتهم فى هذا العمل المهم.

أسفت جداً على هذا القول وقلت للدكتور عبدالله كيف تقول لى ذلك وأنا طالبة بقسم اللغة الانجليزية ويدرس لى أساتذة عظماء وأكدت على «أننى مثقفة» .

قال لى ٠ إن الثقافة ليست هى الجامعة أو الشهادة الجامعية، والجامعة لا تتثقف، ولكن دورها أن تعلم الإنسان كيف يتثقف نفسه إذا أراد أن يتثقف، الجامعة تضىء لك طريق الثقافة وربما تضعك على أول الطريق، لكى تواصلى مسيرة الحياة . استفتدت كثيرا من هذه النصيحة الغالية، خاصة أنه قدم لى على الفور هدية قيمة هى الموسوعة الانجليزية والمكونة من ٣٠ جزءا ، وتضم آداب العالم منذ العهود المتقدمة حتى وقتنا هذا ، وبدأت أقرأها لمدة عامين متصلين وساعدتنى كثيرا فى حياتى الصحفية.

وأذكر أن الإذاعى المعروف محمد فتحى رحمه الله - وكان زميلا لى بالجامعة - دعانى إلى تقديم بعض الأعمال التى أترجمها من هذه الموسوعة بالإذاعة، وكنت أقرأها بصوت مميز ، وظللت أقدم هذا البرنامج بانتظام كل ثلاثة أسابيع ، وبدأ اسمى يلهم، وبدأ الناس يتبعون كل ما أقدمه .

ومرة أخرى عاد فكرى أباظة ليخبرنى بأنهم يريدوننى أن أعمل بدار الهلال والتي طردت منها من قبل ! .

ورفضت هذا العرض على الفور قائلة لن أذهب إلى هؤلاء الناس الذين طردونى بشكل مزر لا أرضى عنه على الإطلاق فقال لى: تعالى معى، وقولى لهم هذا الكلام، وكان فكرى أباظة بالطبع يسر فى نفسه بأننى لن أستطيع أن أفعل ذلك .

ذهبت إلى دار الهلال وقال لى إميل زيدان نحن نريدك.
قلت له : وأنا لا أريد العمل لديكم.

قال لى . لماذا ؟

قلت له . لأنكم عاملتمونى فى المرة الأولى معاملة غير كريمة وأنا لا أود العمل لديكم .

قال لى إميل زيدان: لكنك لم تكونى بمثل هذا المستوى الثقافى والفكرى، فقد طورت نفسك فى السنتين الماضيتين، وأصبحت لك شخصية مميزة وثقافة جيدة.

لكننى رفضت برغم كلماته الرقيقة .

وعلى الفور حدد لى مرتبا قدره أربعون جنيها برغم أن راتبى السابق لم يتجاوز ثلاثة جنيها ! .

ومع ذلك قلت له : أنا لا أتاجر .. أنا لا أريد التعامل معكم !

وتصور الرجل أن المرتب ضئيل، فقال نزيده إلى ستين جنيها .
ورفضت أيضا .

قال مرة أخرى . ما الذى يرضيكى؟

واتفقنا أخيرا على أن أكتب بالقطعة (أى بالموضوع) وكل ما أقدمه
لدار الهلال إذا أعجبهم نشره، وإذا لم يعجبهم فلا داعى لنشره، وكان
ذلك فى عام ١٩٣٦ بعد تخرجي مباشرة فى كلية الآداب قسم اللغة
الانجليزية وبالفعل بدأت أنشر فى «الهلال» وفى مجلة «الأثنين»، ووجد
إميل زيدان أننى أحصل على مبلغ كبير شهريا، فعاد يقول لى نود
الاتفاق على مرتب شهرى، وكان أكبر مرتب ثابت حصلت عليه من دار
الهلال ستين جنيها، وظل مرتبى يتزايد إلى أن أصبحت رئيسا لمجلس
إدارة دار الهلال ولأحصل على أكبر مرتب فى الدولة.

تجربتى مع حواء

وفى حياتى تجربة مهمة ورائدة فى مجلة حواء ..

فحينما فكر إميل زيدان فى إصدار مجلة نسائية، رأيت بعينى مدى
الاهتمام الذى كان يبدية مدير الإعلانات، ورأيت كيف رفض أكثر من
فكرة بحجة أن هذا المشروع لا يحقق مزيدا من الإعلانات، وطرح اسم
درية شفيق لرئاسة تحرير حواء وكانت علاقتها بالأميرة شويكار سببا
فى اعتذارها، وحسم إميل زيدان هذا الأمر بقوله علينا أن نختار أمينة

السعيد ابنتنا وابنة دار الهلال، وفرحت جدا بهذا الاختيار، وقد ساعدنى على المضى من نجاح إلى نجاح أن الإدارة تذلل كل المشكلات التى يمكن أن تواجهنا فى بداية الأمر، وكان ذلك فى عام ١٩٥٥.

ولم تكن الأمور تسير سهلة يسيرة، بل كان البعض ينتقدنى، والبعض الآخر يأتى إلى أمى فى منزلنا يحرصونها ضدى، ويقولون كيف نعمل ابنتك «جرناجية»، وكانت تحزن لذلك كثيرا، وفى المقابل كنت أفخر بكل قرش أكسبه من مهنة الصحافة.

ثقتى فى النجاح كانت بلا حدود، وتلك المشكلات والمصاعب لم تفت فى عضدى، ومع مرور الأيام ، بدأ عدد كبير من كبار رجال الدولة والمستشارين يتصلون بى، ويرجونى فى تعيين بناتهم للعمل فى حواء، وأظن أن هذا العدد الكبير من اللاتى تعلمن فى مدرسة حواء، يدل على صدق التجربة ونجاحها، ومن جانبى لم أكن أبخل عليهم بإعطاء الفرصة والانطلاق فى أول مجلة نسائية فى الوطن العربى، حملت الفكر المستنير، وخاطبت المرأة فى كل ميادين الحياة.

لكن النجاح لأبد أن يعقبه نجاح، فقد بدأت فكرة باب «إسألونى» ويعود الفضل فيه إلى الصحفى لطفى رضوان..

كان من عادة إميل وشكرى زيدان أن يجريا تجديدا فى تحرير المجلات التى تصدر عن دار الهلال، فى أكتوير من كل عام، وحينما حضرت اجتماعا للمصور اقترح لطفى رضوان أن ننشىء بابا عنوانه

«اسألني» تنشر فيه بعض المشكلات النسائية، ويرد عليها بعض النساء
أو الكاتبات المعروفات في ذلك الوقت.

وبالفعل صدرت الأعداد الثلاثة الأولى، وكتبت المشكلة والرد، ولم
تصل للمجلة خطابات من القارئات ! .

فعادوا مرة أخرى ليضيفوا إلى أعبائي، مسئولية هذا الباب، وبدأت
العمل فيه بشكل جاد جدا، وكنت أضع نفسي في مكان صاحبة
المشكلة، ووصلتني ثلاث رسائل مرة واحدة، وكلها تطلب أن أرد على ما
تتضمنها من مشكلات، وذهبت إلى إميل زيدان أعرض عليه الأمر، فقال
ردى عليهم ..

واستمر هذا الباب يصدر، وبدأت تصلني مشكلات من الرجال
ووصلني عتاب على اسم الباب، وأنه يتضمن تخصيصا للمرأة فقط،
فضلا عن أنه من وجهة نظرهم يسخر من الرجال واقترح أن يتحول
اسم الباب إلى «إسألوني» حتى يضم الرجال والنساء سويا.

وقد عرضني هذا الباب لمشكلات كثيرة من بينها أنني لم أكن
اتفق مع صاحبة المشكلة أو صاحبها ، كما أنني كتبت عن التطرف ،
وجاءتني خطابات تهديد بالقتل ، لم أعبأ بها . ولم تفت في عضدي
لأنني دائما أومن بكل كلمة أكتبها ، مهما كلفني ذلك من متاعب
ومشكلات ! .

كرمنتى ثورة يوليو

أحب أن أشير إلى نقطة مهمة، وهى أننى لم انضم منذ بداياتى فى العمل الصحفى إلى حزب من الأحزاب السياسية.

ومنذ بداية ثورة يوليو كنت حريصة على ألا أدخل فى صراعات سياسية، فقط كنت منصرفة إلى الاستغراق فى الصراعات الاجتماعية ومعالجتها وبالطبع كانت آرائى لا تعجب قلة من الناس، وكثيرا ما وصلتني خطابات وعيد وتهديد ! .

وكان الرئيس جمال عبدالناصر معجبا جدا بحواء وبكتاباتى فيها، وقد قلدى نيشان الاستحقاق من الدرجة الأولى فى عيد العلم وقد أعطى لأول مرة إلى سيدة بعد أم كلثوم .

وزادنى تكريما وأنا أستلم منه النيشان ليقول لى إننى أقرأ «حواء» من الغلاف إلى الغلاف، واعتبرت هذا تكريما آخر.

ونفس الشيء حدث فى عهد الرئيس السادات ، فقد نلت إعجابه وتقديره لى، فأهدانى نيشان الجمهورية من الطبقة الأولى، وفى عهد الرئيس حسنى مبارك أهدانى وسام العلوم والفنون من الدرجة الأولى. وبذلك أكون السيدة الوحيدة التى حصلت على أعلى الأوسمة فى عهود ثورة يوليو الثلاثة.

أنا وهدى شعراوى

أعتبر نفسى بنتا لهدى شعراوى .. وهى بمثابة أُمى الروحية وقصة تعرفى بها جاءت نتيجة كبرها فى السن، واحتياجها إلى من يساعدها

فى إلقاء خطبها، ومساعدتها فى العمل الاجتماعى من خلال جمعيتها الشهيرة .

عرفتنى بها السيدة إنصاف زوجة منصور باشا فهمى ، وكانت مديرة المدرسة الثانوية التى تعلمت بها ..

فى بداية اللقاء كانت معى زميلة لى اسمها سعاد بنت شقيقة الزعيم مصطفى كامل، ألقىت أمامها الشعر وبعض الخطب، وفعلت ذلك زميلتى سعاد، واختارتنا نحن الاثنتين، وبدأنا نقرأ خطبها فى الحفلات الخيرية التى كانت تقيمها.

وبعد وفاة سعاد، تمسكت بى أكثر من ذى قبل، واعتبرتني بذرة طيبة من الممكن أن تصبح قيادة جيدة، والتقيت بشريفة محرز وليلى دوس، وكل هؤلاء اعتبرتهن أخواتى فى الاتحاد النسائى الذى كونته هدى شعراوى، وظللنا نعمل معها بكل الإخلاص والتفانى حتى آخر يوم فى حياتها ..

ولفرط ثقتهما بى أرسلتنى فى عدة مؤتمرات بالخارج فى الهند وفى باكستان نيابة عنها.

لم يحدث بينها وبينى أى خلاف طوال فترة علاقتى بها، حتى فى الوقت الذى حاولت فيه الأميرة شويكار إغرائى بالانضمام إلى جمعيتها فقد تصورت هذه الأميرة التركية المتعجرفة أن سبب شهرة هدى

شعراوى بسببى، وأن الخطب الرائعة التى كنت ألقياها أنا التى أكتبها وأدبجها .

وفى ذات يوم انتظرت حتى سافرت هدى شعراوى إلى المنيا للإشراف على وقف لأسرتها هناك، ووصلتلى فى هذا اليوم دعوة رقيقة من الأميرة شويكار، فسألت اختى كريمة السعيد، هل أذهب أم أعذر عن الدعوة، وشجعتنى على الذهاب، وذهبنا سويا لنعرف السر وراء هذه الدعوة المفاجئة ! .

وحينما دخلت إلى الباب ، إذا بواحدة من توابعها تضع شارة جمعية شويكار على صدرى، وكان مندوب الأهرام يقف متحفزا، وعلي الفور التقط صورة، نشرها مع خبر انضمامى إلى جمعية الأميرة شويكار.

قرأت هدى شعراوى الخبر لدى عودتها من المنيا، وكما علمت تأملت بشدة، وتصورت أننى خنتها وذهبت إلى غريماتها الأميرة شويكار والتى كانت تقوم بأفعال غير لائقة لم تكن نرضى عنها، وكانت هدى شعراوى تهاجمها بعنف على ذلك ! .

أسرعت بالذهاب إلى هدى شعراوى، وذكرت لها كل ما حدث، ولكنها فاجأتنى بقولها، إذ كنت فى حقيقة الأمر لا تودين الانضمام إلى جمعيتها فاجلسى الآن، واكتبى لها استقالة، وأنك لن تذهبى إليها ،

وأملتنى هدى شعراوى بنفسها الكلمات التى تضمنت الاستقالة ،
وبالطبع لم أسلم من التهديدات لى ولأسترتى من هذه الأميرة التركية ! .
وعادت العلاقة، وظللت ربيبة وحبيبة لهدى شعراوى، تلك السيدة
العظيمة التى درست الحركة النسائية على يديها، ورأيت كفاحها
ونضالها، وشاهدت كيف تساعد خريجات الجامعة وتشد من أزرها،
وتعلى من شأنهن لدى المجتمع.

ورحلنى مليئة بالعمل والإنتاج فلدى ١٧ كتابا، تضم القصة والرواية
وأدب الرحلات ومن بينها «مشاهداتى فى الهند» «آخر الطريق»،
«الثائرة».

ونشرت فى الهلال موضوعات كثيرة، ونقلت بعض هذه الموضوعات
إلى كتب المطالعة ويدرسها الطلاب والطالبات بسوريا..
ويحضرنى الاحتفال بمرور مائة عام على هذه المجلة العريقة، ذات
التاريخ العظيم والتى أتمنى أن يتم الاحتفال بالعام الألف على إنشائها،
فهى تستحق كل هذا التكريم.

وأختم مشوارى بأئنى عشت محبوبة فى دار الهلال منذ بداية عملى .
إلى أن وصلت إلى منصب رئيس مجلس إدارة وفى تلك الأثناء أحبنى
واحترمنى كل العاملين بهذه المؤسسة العريقة، وكانت العلاقة طليئة بينى
وبين الجميع.. كنت صارمة وحازمة، ومع ذلك مازلت أشعر بالسعادة
والبعض يقول «ولا يوم من أيام أمينة السعيد» ..

حافظ محمود

هاجمنى أستاذى فأصبحت صحفيا !

التكوين الثقافى لى لم يجىء وليد الصدفة ، لكن الحياة التى
عشناها سهلت لنا كثيرا أن ننهل من المعرفة والأدب سواء فى المدرسة
أو بين جدران الجامعة ..

على أننى وأنا أمارس أنشطتى الثقافية عشقت الصحافة ، ودخلتها
من أوسع أبوابها وكنت أصغر رئيس تحرير يعين فى مجلة أسبوعية
وجريدة يومية بعد ذلك .

وأنا لست صاحب فضل فى تكوينى الثقافى فى الصغر ، ولكن هذا
يعود للنظام الفكرى الذى كان سائدا فى ذلك الوقت حيث كانت توجد
الجمعيات والنوادر الثقافية ، وكان من أشهرها الموسم الثقافى الذى
تنظمه جامعة القاهرة ، وكان اسمها فى ذلك الوقت جامعة فؤاد .. وكان

هذا الموسم الثقافي يقام بالجمعية الجغرافية وأمامها مباشرة قاعة «إيرارات» التي تنافسها فيما تقدمه من ندوات ومحاضرات .. كانت مى زيادة تحاضر فى هذه القاعة عن الموسيقى والفن والأدب وبهدف اجتذاب الشباب ، ولكى تتغلب الجامعة على ذلك كانت تستقدم العلماء والمفكرين من الخارج فى إطار هذه المنافسة ، ومن بين من شاهدناهم الشاعر الهندى العظيم طاغور الذى قام وقتها بإثبات أن النبات يتأثر بالموسيقى .

ولنا أن نتصور أن أديبا مثل الدكتور طه حسين جاء ليفتح الموسم الثقافى - فى الثلاثينات - وكان وقتها عميدا لكلية الآداب . وأذكر أن زوجته حضرت قبله بقليل فاستقبلها جميع الوزراء الذين جاؤا لحضور هذا الافتتاح وصافحوها وأفردوا لها مكانا فى الصف الأول ، لفرط ذكائها وحينما لمحت زوجها يدخل القاعة وقفت وصفت له ، فقام الوزراء وأكثر من ألف شخص كانوا فى القاعة ، وبدأ التصفيق، حتى صعد طه حسين إلى المنصة وألقى محاضرة الافتتاح .

وهذا يوضح لنا كيف كان الاهتمام بالثقافة .. لم يتوقف اهتمامى عند هذا الجانب ، فقد كان لنا بيت وقف فى حى السيدة زينب وكنت طالبا بالثانوى، فاستأذنت أبى فى أن أخذ غرفة لى تصبح جمعية أدبية اجتمع فيها مع زملائى من محبى الأدب، وافق الرجل على الفور محدثا

نفسه بأن ذلك أجدى وأنفع من اللعب فى الحارة ، واشترى لنا بعض الكراسى فتحولت الغرفة إلى قاعة للمحاضرات وكنا مازلنا فى أوائل المرحلة الثانوية عام ١٩٢٩ .

كان الجو العام فى مدارسنا يوحى بالثقافة ، حيث كان هناك العديد من الجمعيات : جمعية للشعر وأخرى للأدب وثالثة للتمثيل والموسيقى وللصحافة .. ولم نكن نلاحق هذا الجو المفعم بالثقافة والفكر أذكر أننا أنا ومجموعة من زملاء الدراسة كنا ذات يوم نمثل إحدى الروايات فى شارعنا وكان معى المرحومان أحمد حسين وفتحى رضوان ، وفى تلك الاثناء مر نبيل الكردانى ناظر مدرسة الخديوية الثانوية وكان أول ناظر مصرى بعد النظار الانجليز يتسلم عمله بتلك المدرسة واختبأنا ، ولكنه طلب منا أن نستكمل عرضنا المسرحى ، وفى اليوم التالى أمر بإنشاء فرقة مسرحية بالمدرسة فى عام ١٩٢٩ . وعظمة الجانب التربوى لدى هذا الرجل انه لم يطلب من وزير التربية أن يفتتح أولى حفلات المدرسة المسرحية ، بل جعل تلميذا من المدرسة اسمه حافظ محمود يفتتح الحفل، بدلا من الوزير ! وكتبت الصحف عن ذلك الموقف الشجاع لناظر المدرسة .

كانت الروح الأدبية منتشرة فى ذلك الوقت. وكانت الصحف تشجع هذه الحركات الأدبية ، لذلك شجعتنا الصحف ، حيث كانت تنشر

الأخبار التي كنا نبعث بها عن نشاطنا المتنوع وأما هوايتي وحبى
للصحافة فقد جاء نتيجة قراءتي لجريدة السياسة الأسبوعية والتي
ظهرت في مارس ١٩٢٦ ، وكانت توزع وقتها ثلاثة أضعاف الأهرام ،
وبالرغم من فضل «السياسة» فإننى أعجب لماذا لا يذكرونها الآن، فقد
كانت أول جريدة أسبوعية لها مكاتب في دمشق وبيروت والخرطوم
وبغداد ، وكان المشرفون على هذه المكاتب كبار الأدباء والمثقفين ، وكان
التوزيع في الخارج لجريدة السياسة أعلى منه داخل البلاد ..

لقد تتلمذت على هذه الصحيفة ، وتعلمت الصحافة منها . وهناك
حدث مهم في أول عشقى وحبى للصحافة ، ربما كان وراء نجاحى فى
الصحافة ، فقد طلب منى الدكتور أحمد ضيف رحمه الله عمل بحث ،
وعلق عليه ، وأعطانى أقصى الدرجات فى النجاح ، بعدها قال لى لقد
تحدثنا فى العلم ، ولكننى أود الحديث معك فى شىء آخر .. فأسلوبك
لا يصلح لكى تكون كاتبا أو صحفيا ولا حتى أدبيا .. أسلوبك علمى
زيادة عن اللزوم ! هذه الكلمات ألتنى وجعلتنى أتعلم بالصحافة
وأعشقها ، بعد أن أصبحت صحفيا زارنى الدكتور أحمد ضيف وهو
يعتذر عما بدر منه فقلت له : على العكس مما تقول ، فأنت صاحب
الفضل ، ولولا كلامك لى لما أصبحت صحفيا ولا كاتبا .

بدأت أتجه إلى الصحافة وأنا صغير السن نحيل الجسم، حينما

كنت أذهب إلى أى صحيفة لمقابلة مسئول فيها كان يقول لى : يابنى
اذهب وذاكر دروسك بلا لعب عيال ! ،

وصممت من باب العناد على أن أنشر فى أكبر جريدة فى ذلك
الوقت هى السياسة الأسبوعية ، كان مقرها بجوار مبنى دار الهلال
ومازال مبناها موجودا حتى الآن ، وللأسف فإنه يستخدم كمخزن ! ..

كان يوضع بجوار باب الجريدة صندوق لتلقى المقالات ، وكنت أذهب
لكى أضع مقالتي فى هذا الصندوق وأنصرف ، بالفعل نشرت لى مقالة
على أثرها هاجموا الدكتور محمد حسين هيكل ، وقالوا كيف ينشر
مقالا لولد صغير ، وأسأنته لم يحصلوا على نفس الفرصة ويحدث عنى
د. هيكل ولما ذهبت إليه ضحك حينما رآنى وقال «والله لهم حق أنت
طلعت أقل مما يجب» .. صغير جسما وسنا .

قلت له : يابك أنا أسف !

قال لى : أسف إزاي !

قلت : لأنك تدافع عنى

قال : أنت لم تر الهجوم الذى حدث لى بسببك .

قلت : وماذا أفعل ؟

قال : تكتب مقالا أفضل من مقالك السابق وأنشره حتى يعلموا أنني

لا أنشر كلاما فارغا ! .

وبدأت الصلة بيننا إلى أن كتبت سلسلة مقالات بعنوان «إلى خطيبتى فى الخيال» .. وجاءت ربود واستدعانى الدكتور هيكل ليقول لى . «هو الجرنال ده مكتب غرام لحضرتك» .

قلت : لماذا ؟!

قال : اتفضل لتشاهد بنفسك خطابات ملونة ومعطرة، وكانت الرومانسية فى ذلك الوقت هى السائدة فى حياتنا .

قلت : أعتذر لك بشدة لأننى أسبب لك المتاعب . وحاولت الانصراف فقال : تعال هنا .. أين أنت ذاهب .. خذ هذه الخطابات وإذا استطعت أن تخرج منها تحقيقا صحفيا ، فسوف أعينك فى الجريدة وإذا لم تستطع فدعنى لا أرى وجهك مطلقا .

لم أنم طوال الليل وقمت بعمل التحقيق وفى الصباح قرأه الدكتور هيكل وأعجب به ، وعلى الفور نادى محمد زكى عبدالقادر وكان سكرتير التحرير قال له خذ هذا «الوليد» واعتبره ابننا وضمه للأسرة كمتمرن ..

كل ذلك حدث وأنا مازلت طالبا بكلية الآداب قسم الفلسفة ، وظللت أعمل بهذه الجريدة متمرنا ، وحينما تخرجت كانت «السياسة» قد أغلقت ثم أعاد الدكتور هيكل إصدارها من جديد ، ويحث عن كل من كان يعمل بها من قبل واستدعانى وقال لى سوف تعمل معى «واللى فى الدست

تطلعه المغرفة» فأننا وأنت شركاء كان وقتها زعيما للمعارضة والظروف المالية الخاصة بالجريدة كانت محدودة للغاية، لهذا قرر أن نكون شركاء وما تدره الجريدة نقسمه سويا ، ويعد عام عين وزيرا فتفاعل بى ، وقال لى لا أعرف كيف أكافئك فأننا لا أملك شيئا ، ولكن الشيء الوحيد الذى أملكه ، هو أن أصدر لك قرارا بأن تصبح رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية ..

عينت رئيسا لتحرير السياسة الأسبوعية وعمرى ٢١ عاما ، كما عينت بعد ذلك رئيسا لتحرير السياسة اليومية وعمرى لما يتجاوز السابعة والعشرين، وكونى أخلف رئاسة التحرير بعد الدكتور هيكل، كان بالنسبة لى شرفا كبيرا، خاصة أنه كان مصرا على أن الصحافة للصحفيين ويرفض تماما تعيين حفنى محمود قائلا إنه تربيتى وسوف ترون مايمكن أن يحققه من نجاحات وبالفعل كنت عند حسن ظنه بى . الطريف أن الصحف فى ذلك الوقت كانت كثيرة جدا وأى صحفى كان ينتقل بين الصحف لتحسين ظروفه المالية - مثلا - وقد يذهب إلى أكثر من صحيفة أو مجلة ، لكننى على مدار عملى فى الصحافة لم أعمل سوى فى السياسة الأسبوعية ثم اليومية ، وبعد عام ١٩٥٢ وبعد أن أغلقت مجلة «القاهرة» المسائية التى عملت رئيسا لتحريرها ، ثم رئيسا لمجلس إدارتها ، عملت فى الجمهورية حتى الآن ، وأذكر بعد أن أغلقت

القاهرة لظروف خاصة بعد موت صاحبها ، قال لى الدكتور عبدالقادر حاتم أن الرئيس جمال عبدالناصر طلب بأن أعمل فى الجمهورية ، ولم أنفذ هذا القرار إلا بعد أن عمل كل زملائى الذين وصل عددهم إلى ثلاثمائة ..

وأذكر تلك الحادثة بالضبط فحين طلب منى د. عبدالقادر حاتم هذا الطلب قلت له إذا كان عبدالناصر يعرف إسمى ، فكيف يذهب ٣٠٠ إنسان مسئولون عن أسرهم ، قلت لا أستطيع أن أنفذ هذا القرار وزملائى فى الشارع ..

قال : التعليمات الموجودة عندى خاصة بك فقط .

قلت : هذا شيء لا تحتمله عواطفى إطلاقا إن أناسا كنت أراهم ومسئولا عنهم ، ثم فجأة يجدون أننى اشتغلت وقبضت ، وما زالوا هم فى الشارع بلا عمل ، وظل هذا القرار معلقا لفترة سنة كاملة وكتبت وقتها فى الهلال كثيرا ، ولم يكن لى مورد سوى الهلال فى أوائل عام ١٩٦٠ التقيت بصلاح سالم ، وكان رئيسا لتحرير الجمهورية وهو فى نفس الوقت ابن حارتنا فى السيدة زينب ..

قال : نفسى قبل أن أموت أن تعمل معى فى الجمهورية ، وإزاي عبدالناصر كل يوم يسألنى حافظ جاء أو لم يجيء ، وبالفعل ذهبت للجمهورية بعد اطمئنائى على كل زملائى فى جريدة القاهرة المسائية وتعيينهم فى وظائف مناسبة .

قد يتساءل البعض عن أسلوبى فى حياتى 'الصحفية' ..
وأقول : أنا الوحيد بين الصحفيين الذى لا يلتزم فى الكتابة بوقت
معين ولا شكل معين ولا حتى مكتب معين .
قديمًا كنت حينما أبدأ فى الكتابة أطلب فنجان قهوة وأدخن
سيجارة وحتى هذه العادة أقلعت عنها الآن ، وقبل أن أكتب هذا الكلام
صباح اليوم وأنا أتناول إفطارى وأشرب الشاي جاء تنى فكرة مقال
وعلى الفور تركت افطارى وبدأت كتابة المقال ، ومعنى هذا أننى لا ألتزم
بوقت محدد فى الكتابة ليلاً أو نهاراً كما أننى أكتب مرة واحدة وهذه
تسبب لى مشكلة ورداءة الخط ، فضلاً عن ضعف البصر فى هذه السن
المتقدمة ..

وأذكر أن خطى كان جيداً أثناء الدراسة ، ولكن مع ممارسة العمل
الصحفى والسرعة فى الكتابة ، وصل إلى ما وصل إليه الآن .

أنا والهلال

أذكر حينما تعلقت بالصحافة فى بداياتى الأولى بعثت مقالا لمجلة
الهلال وفوجئت بشيء ياليت كل الصحف تفعله الآن ..
وصلتنى بروفة للمقال مرفق بها ورقة مكتوب بها .. رجاء مراجعة
هذه التجربة والإمضاء عليها ، مغها. شيك بعشرة جنيهات ، وكان ذلك
فى الثلاثينات .

هذه الجنيهاات العشرة كان يحصل عليها طه حسين وهيكى باشا
وعباس العقاد ، وكان أقصى أجر .. ذهلت حينما رأيت المبلغ الكبير ،
فقد ظنوا أننى كبير فى السن وفى العلم ، ولكن وراء ذلك قصة ..
فالبحت الذى تقدمت به للدكتور أحمد ضيف وقال لى إن أسلوبه علمى
بحت ، كان عن ألف ليلة وليلة، وهذا البحث نشرته مجلة الجامعة، التى
كانت تختار البحوث الجادة، بما فى ذلك محاضرات الأساتذة، الأديب
محمود تيمور حين قرأه ظن أنه لأستاذ جامعى ونشر البحث وعلق عليه
ضمن مقدمة طويلة أن الدكتور حرص على نشر الأدب المحلى بشكل
جيد ..

ويعث خطابا للأديب الكبير قائلا .. أنا لست بأستاذ ولا بدكتور
جامعى بل أنا طالب أحب الأدب وأهوى الصحافة .. وكانت تلك بداية
صداقة بينى وبين هذا الرجل النبيل .

نشرت مقالات كثيرة فى الهلال .. لكننى لا أنسى لقاء بينى وبين
إميل زيدان رحمه الله .. كنا قد كونا جمعية اسمها « المصرى للمصرى
« لمقاومة البضائع الأجنبية ، انضم لهذه الجمعية طلاب وأساتذة من
الجامعة وكان صاحب هذه الفكرة سلامة موسى ، وكان يعمل بدار
الهلال ثم اختلف معهم ، ولأنه وجد نفسه زعيما فى ذلك الوقت بدأ
يهاجم دار الهلال، والتى أصدرت ضده عددا من مجلة «الدنيا المصورة»
.. وزعته مجانا.. بعد هذا العدد أعدنا انتخاب مجلس إدارة الجمعية

واختارنا رئيسا آخر غير سلامة موسى وصاحب الفضل في قيام الجمعية حيث لم نحتمل الهجوم الذي وجهته ضده دار الهلال . وعلى أثر ذلك التقيت بإميل زيدان والذي عرض عليّ أن أعمل بدار الهلال فقلت له «أنا أعمل سكرتير جمعية المصري للمصري، ولا ترضى لي أن أصبح موظفا عندك ، فالمعنى واضح أن البعض سوف يقول إنها رشوة» . قال الرجل معك حق . ومادام هذا رأيك فأنا أحترمه .

إنني أقول في مناسبة احتفالات الهلال بمرور ١٠٠ سنة على صدورها أن تلك وحدها شهادة ، شهادة كبيرة . وكتبت مقالات نشرتها في الجمهورية حول هذا الحدث المهم في حياتنا الثقافية والصحفية لم يعيش في مصر على مدى مائة عام سوى الهلال والأهرام والجازيت مع أن مصر شهدت مئات الصحف ، وزمان كانت تصدر صحف جديدة في كل يوم ، لكنها لم تعيش ويكون مجلة تتماسك بانتظام إلى درجة الحياة لمدة ١٠٠ سنة فهذه شهادة ودليل على عمق ماتقدمه من فكر وأصالة المنهج الذي تسير عليه على أنني هنا وأرجو أن يذكر شيء عن جرجي زيدان وأثاره العظيمة وروايات وتاريخ الإسلام .. فضلا عن أنه كان رجلا جادا في عمله، واستطاع أن ينهض بالهلال ومن بعده أبنائه . فتحية للهلال ولنشئ ممتنيا أن يواصل مسيرته المهمة في حياتنا الثقافية والفكرية .

د . نعمات أحمد فؤاد

الدين .. النيل

محوران التقيا على تشكيل حياتي منذ نشأتى الأولى وطبعاما
بطابعها .

كنا معا ، نهجا واضحا انتظمت عليه خطواتى، حرص أبى الذى
لمس التقاط ذاكرتى ما أسمع ، على تحفيظ القرآن الكريم فجاء لى
بمن يقوم بهذه الغاية ثم حرصت جدتى على تقديمى طفلة إلى شيخ
مشيخة القراء ، وكان قريبها فسمعنى الرجل ورضى عن جهدى الباكر
وعلمنى المد والغن ويصر وصحح.. وتوثقت صلتى بالله وكتابه فى فجر
العمر.. وزادتها الأيام رسوخا وبقينا فاستضاءت حياتى بنور ليس كمثله
شئ..

أما أثر النيل فله ، بعد ، مقام عريض وحديث مستقل طويل ،
نقطة تحول :

أتممت دراستى الابتدائية فى بلدتنا مفاغة من أعماق المنيا

بالصعيد، وأتممت معها حفظ القرآن الكريم. ولما كانت بلدتنا ليس فيها مدرسة ثانوية للبنات فى ذلك الوقت، فقد اتجه والدى الذى كان يتحمس لتعليم البنات وله فى هذا كلمة محفورة فى ذاكرتى ، كان يقول (البنات المتعلمة تدل على الأسرة أكثر من الولد) .. وصعب الحق، فإن الأسر المصرية جميعا تهتم بتعليم الصبيان من بنيتها وهنا يكون تخير الأسرة التى تحتفل بتعليم بناتها. هنا موقف ودلالة تقول.

كنا نريد مدرسة ثانوية بها داخلية فاستشرطنا إلى مدرسة حلوان الثانوية للبنات. هذه المدرسة علامة ونقطة تحول فى حياتى عرفت فيها كيف تكون رسالة المدرسة، وعرفت فيها خلاوة التفوق، وعرفت فيها الأثر البعيد للرعاية والجزاء والتقدير، وعرفت فيها بحكم الداخلية، الخلو للدراسة والتحصيل الذى طبقته بعد هذا فى حياتى فعرفت معنى الخلو للعلم والعكوف عليه فامتألت حياتى ، كبيرة بالقراءة والكتابة والرحلة والندوة والقيم الجادة بقدر ما أستطيع.

خطوط عريضة لها تفاصيل كثيرة أتذكرها وأذكرها كاملة كأنها وقعت اليوم لا أمس.. صورة عن عينى لا تغيب. ولكنى أريد هنا أن أتحدث عن حلوان نفسها ..

كان طريقى إليها قطار باب اللوق.. كنت أفرح بركوبه وأحفظ المحطات التى تتوالى بين الواحدة والأخرى دقائق معدودة.. حتى إذا

نزلت فى حلوان تمتعت عيني بضاحية هادئة تحيط بها الصحراء ..
 الشارع الرئيسى فيها هو الذى يصل بين المحطة ومدرسة حلوان
 الثانوية للبنات.. كان هذا الشارع يبدو فى عيني طويلا جدا هل السبب
 أنى كنت أقطعه سيرا على الأقدام أو أنى أتعجل الوصول إلى المدرسة
 فقد أحببتها منذ اليوم الأول وانتميت اليها عاطفيا .. مرة أخرى أقول
 بحكم الداخلية.. لقد كانت بيتى الثانى.. أنتزع نفسى مرة أخرى من
 الحديث عنها لأعود إلى وصف حلوان المدينة لا المدرسة . كان الشارع
 الرئيسى تكاد تعد المارة به.. ولاحظ والدى هذا فكان حريصا
 على اصطحابى إلى المدرسة فى أول العام الدراسى ثم اصطحابى أو
 من ينيب عنه من فرع الأسرة فى القاهرة عند الأعياد ومواسم
 الأجازات .

حلوان :

كانت حلوان واضحة المعالم يقصدها الناس للعين المعدنية ،
 والحديقة اليابانية، والجو الصحى للاستشفاء وللشقاء.. كانت
 حلوان مشتى من مشاتى مصر كأسوان والأقصر، وبها مثلهما فنادق
 كبيرة جميلة أحدها خلف مدرستى. وكانت حلوان دارا للأسرة
 الكبيرة.

ويناديني الحنين إليها بعد أن بعد عهدى بها فأنزورها ولكن ماذا
 أرى؟ صورة غير الصورة. ومدينة غير المدينة.. لا أصدق عيني أن

الجميلة الهادئة الناعمة تعج بكل هذا الخلق، وتضج بكل هذا الصخب..
لقد غدت معقلا من معازل الصناعة.. لا بأس ولكن المصانع فى بلد
كمصر تمثل الصحراء ٣٠/٢٩ منه يجب أن تقوم المصانع على أطراف
المدن، وحيث الصحراء تتعطش الى التعمير والحياة ولكن هذا موضوع
آخر .

كانت مدرستى حلوان الثانوية هى الفصل والديقة والملعب والمطعم
والسرير والنوم واليقظة والصديقة والرفيقة والزميلة والحدوتة والحكاية
والضحكة والحلم والأمل.. كانت الشوق إلى الأهل فى البعد والحديث
عنهم فى القرب. كانت الخطاب يصلنى من أبى ويصلنى به.. كانت
الانتظار واللهفة. كانت الامتحان والدرجة .. كانت الفرحة والبسمة ..
كانت الحقل وعمرى به نبتة تترعرع وتورق وتزهو .. كانت الصبا بعد
الطفولة. كانت التجربة الصغيرة ببراعتها وعفويتها وتلقائيتها وكل شىء
فى هذا العمر، طفولى برىء التصرف والاحساس .

كانت زميلاتى من القاهرة وضواحيها الأخرى يصرح لهن أهلن
بالخروج فى نهاية كل اسبوع وكن سعيدات بهذا أما أنا فكنت أخرج
على مدار العام كله ثلاث مرات.. فى العيدين وفى نهاية العام
الدراسى ..

كانت تتنابنى ظهر الخميس من كل أسبوع وحشة فقد كانت

الغائبات يتركن فراغا تسكن معه المدرسة فى الخميس والجمعة بعد حركة كخالية النحل.. وكنت أيضا أعبطهن للتغيير ورؤية الأهل على مسافات قصيرة ، ولكنى أعود سريعا إلى دنياى الخاصة فأأخذ من الخميس والجمعة فرصة لتنظيم خطوطى فأعيد تنسيق ملابسى ، وكانت الدراسة تتطلب من الأهل أن يزودوا البنات بست وحدات من كل نوع سواء من الملابس الداخلية أو الخارجية ..

مما كان يشكل فى عينى زحاما يحتاج إلى إعادة تنسيق أو تنسيق دورى.

الداخلية فى حلوان الثانوية :

كان الخميس والجمعة، مجالين لنوم أطول ولو أن كل شىء فى أى يوم محدد بجرس فى وقت لا يتقدم ولا يتأخر .. الطعام.. اللعب.. إطفاء النور ليلا.. الاستيقاظ من النوم صباحا.. الرجوع إلى الفصول بعد الظهر للاستذكار.. ولكن وجبة الافطار فى يوم الجمعة، كانت تحين بعد موعدها التقليدى بنصف ساعة .. لون من التغيير أو الترفيه على أى حال .

كان الخميس والجمعة مجالين للسماح بسماع الراديو . فأتمتع بصوت أم كلثوم وسرعان ما التقط الجميع شغفى بها وولوعى فكان فريقين فريقاً يسعدنى بالتنبيه إلى بدء غنائها ومواعيده بل مشاركتى

فى الاستماع.. وفريقا يداعبنى بمحاولة النقد المفتعل فأنبرى للإشادة بها.. كل هذا وأنا داخلية وقادمة من الريف لم أرها ولم أقابلها.. كم هو حلم متعم الحب بلا مقابل.. الحب لذاته.. حب الجمال والفكرة والمعنى .

إن تذوق الجمال، نعيم احساس ونعمة من الله يرزقها السعيد. وكبرت وكبر معى هذا الاحساس حتى أنى كتبت مرة منذ شهور أن الناس يعدون الفنون بأنها فن الأدب، وفن الموسيقى ، وفن النحت وفن الرسم ، وفن التصوير، وفن التمثيل ينسون فنا مهما هو دعامتها جميعا ذلكم هو فن الرؤية .

هكذا تعيش فى داخلى .. فى أعماقى ، أيامى الباكورة.. أيامى الأولى.

دور الأب :

بدأ تعلقى بصوت أم كلثوم طفلة فى بلدتنا.. حتى كنت أغلق على نفسى باب حجرى لأخلو إليها.. وإذا كان الوقت ليلا أطفئ النور حتى لا يشغل حواسى شئ عنها. كنت أستعذب الصوت والنطق واللفظ.. لعل سر هذا هو السر الحقيقى أنى حفظت القرآن طفلة فعرفت وأحسست مافى نطقها من صقل وحلاوة أداء. وكان الفضل فى هذا لأبى الذى حرص على تنشئتى نشأة إسلامية وأدبية.. فقد علمنى

القراءة.. بل علمني «الاختيار» فقد كان يقرأ ويسجل في كراسة ما يستوقفه من معان وأساليب ثم يعطيني الكتاب أو المجلة لأقرأ وحدي وبعد هذا يسألني سؤال السميع الصديق ثم يطلعني على رأيه الذي سبق له تدوينه .

هذا الاهتمام أذكى حواسي وأشعل حماسي ، وأيقظ طموحي. عرف أبي وهو من رجال الاعمال لا التعليم كيف يشعل، في الطفلة ، الشرارة المقدسة .

حلوان الثانوية تمثل ست سنوات من عمري فلا تلوموني أن وقفت عندها في هذه الصفحات طويلا.. إنها كما يقول رامى قصة حبي وقصة عقلي بل قصة قلبي أيضا .

في مدرسة حلوان الثانوية ومنذ البداية أى في سنة أولى كتبت موضوع الانشاء فإذا بمدرس فصلى يطلع عليه المدرس الأول اللغة العربية.. وبعد هذا وسرعان ما ذاع لى صيت فى المدرسة .

مسابقة فى اللغة العربية :

أراد المدرس الأول للغة العربية أن يرسى معنى معينا هو أن الفنون ومنها فن الأدب، مواهب تأتى الدراسة فتصقلها وتثريها فأعلن فى المدرسة عن مسابقة فى اللغة العربية عبارة عن موضوع واحد تكتب فيه جميع الفصول من السنة الأولى الى السنة السادسة ، ويشمل هذا

بالطبع فصل التوجيهية التى أطلق عليه فيما بعد الثانوية العامة. وقبل أن تعلن المسابقة وجدت المدرسة كلها طالبات وأساتذة ، الكل يجمعون أن موضوعى فقط ليس الأول فحسب ولكنه خارج المباراة ولكم يا أعزائى القراء أن تتصوروا السعادة التى يمكن أن تغمر ناشئة فى بداية تعليمها.. بل بلغ الأمر أن طالبات الفصول الكبيرة كن يأتين إلى مع أن سنة أولى كانت تتهيب الحديث مع الفصول الكبيرة خاصة سنة رابعة وخامسة وسادسة.. ولكن هؤلاء جميعا كن يأتين إلى تطلب إحداهن أن أفتح لها الموضوع على حد تعبيرها والأخرى أن أختتم لها الموضوع بعبارة قوية وثالثة أن أكتب سطرين والمعنى مفهوم ، لقد كتبت فى يوم من أيام تلك المسابقة ثلاثة وثلاثين موضوعا وبالطبع كان كل موضوع يختلف عن الآخر تحقيقا لرجاء صاحبه وتقاديا للحرص .

وأعلنت المسابقة ومنحني الأستاذ الدرجة النهائية وهذا لا يحدث فى مادة الانشاء العربى ثم كتب لى عبارة منقوشة فى عقلى ووجدانى لا أنسى منها حرفا بعد السنين العديدة التى مرت عليها .

سحر التقدير :

كتب أستاذى بالمدرسة لى من الثناء ما لا أستطيع وصف نفسى به ولكنى أذكره هنا من باب القصة . وأهم من هذا من باب تركية المدرس وتأكيد دوره فى حياة الطلاب ومن باب الاعتراف بفضل الذين علمونى.. رحم الله شاعرنا شوقى فقد أصاب وأثاب يوم قال :

أعلمت أشرف أو أجل من الذى

يبنى وينشأ أنفسا وعقولا

كتب أستاذى فى كراسى :

(ستكونين زهرة فى روض الأدباء، وماسة فى جبين العلماء،

وينبوعا عذبا من ينابيع البيان، فسيرى قدما إلى الأمام) .

ودوت فى المدرسة هذه العبارة التى خرجت على كليشيه (أحسنت)

و (أجدت) .

كان لهذه العبارة دوى امتد أسابيع ، وتوالى بعدها عبارات هذا

الاستاذ الذى أدين له حتى كانت الفصول تسعى الى قراءة ما كتب فى

الموضع الجديد .

وأصبح «تقليدا» .

انتقلت إلى السنة الثانية فكان أستاذى الجديد كمن يستلم

الشعلة، يكتب لى أيضا عبارات رنانة بعد كل موضوع .

من أساتذتى من كتب لى عقب موضوع فى وصف السوق الخبرى

الذى افتتحته الملكة: (أقمت من كلامك سوقا للخير) .

وكتب آخر فى موضوع شبيهه (عاطفة فياضة بالخير فى أسلوب

أشهى إلى نفسى من تغريد الطير) لولا الحياء من الاسترسال فى

كتابات الذين باركونى ورشوا على طريقى النور، كلمات مضية وضيفة ،

لمئات صفحات وصفحات .

ماذا صنعت بى حلوان الثانوية :

لقد خلقتنى هذه العبارات خلقا ، كانت كل عبارة تبيننى التزمت أى ألزمت نفسى بالإجادة - لأحتفظ بمستوى يتوج بهذه العبارات وألزمت نفسى بالقراءة والتعمق رغبة فى التجويد والتجديد ، وألزمت نفسى حتى بقواعد الخط العربى لأوفر لموضوع الشكل بعد المعنى ، وألزمت نفسى بمربع من سطرين قبل الموضوع وعنوان أدبى خاص بى ثم عرفت فيما بعد أن هذا كان طابع أدباء الرومانسية فى القرن التاسع عشر ولكنى فعلت هذا بتلقائية ووحى الفطرة .

وألزمت نفسى بتكثيف الجهد فى المواد الدراسية الأخرى حتى لا يחדش أى نقص الهالة التى أحاطنى بها مدرسو اللغة العربية فضلا عن أنى ذقت حلوة التفوق والنجاح .

ومن هنا قلت إن عبارات التشجيع خلقتنى خلقا جديدا.. إن التقدير غذاء لروح الإنسان. إن قيمة الجواهر تعزى إلى عين مكتشفها .

مرة أعاد أستاذ لى ورق الامتحان وكانت الدرجة النهائية خمسين . ولكن قال لقد جمعت درجات الأسئلة فحصلت نعمات على ٤٨ ولكنى خجلت من نفسى ألا أضع لها خمسين ، وهنا اقتضتني الأمانة أن أضيف إلى كل ورقة فى الفصل درجتين . كم أسرتنى وطوقتنى هذه العبارة .. لقد بكيت من فرط التأثر.. لقد كنت اعتدت على الدرجات

النهائية حتى غدوت أتوقعها ولكن هذه القصة لم أتوقعها ..
والتفت حولى بعض الزميلات يردن معرفة مكان الخطأ وإذا بواحدة
منهن تجمع الدرجات فتجدها خمسين وهرعت إلى الاستاذ الذى أعاد
الجمع واكتشف أنه التبس عليه الجمع وأنى أستحق الخمسين بدون
إضافة ولكن هذا لم يقلل شيئا عندى من جميله .. من لفتته ذات الدلالة
الكبيرة .

وتمر الأيام وينقضى عام دراسى ويهل عام وكل منها يحمل لى
وأحمل له هناءات جديدة من هذا اللون أى خيوط ملونة فى نسيج القصة
قصتى مع حلوان الثانوية .

وقد توجت هذه القصة بمسابقة الأدب العربى التى كانت تعقد
للمتفوقين فى اللغة العربية من طلبة التوجيهية التى سميت بعد هذا
الثانوية العامة وذلك على مستوى مصر كلها .

لم تعلن ناظرة المدرسة عن هذه المسابقة لسببين فى رأيها :

الأول : أن هذه المسابقة كل عام لم تنجح فيها بنت واحدة .

الثانى : وهو مرتبط بالأول هو صيانة الوقت والكرامة حتى تتفرغ

الطالبات لامتحان آخر العام : التوجيهية .

وطلبت إلى مدرسى اللغة العربية التكتم على موعد المسابقة .. ولكن

أحدهم كان يكتم ضيقه بصعوبة شديدة ظننتها ، فى أول الأمر ، لشيء

يتعلق به فلما كان اليوم الأخير لانقضاء موعد التقدم لهذه المسابقة ثار وأعلن أنه ضامن، إذا دخلت المسابقة أو دخلت المدرسة بى المسابقة ، النجاح بل الأسبقية بين الناجحين .

وعلمت المخبوء واكتشفت أو تكشف لى المضمّر فبكيت بكاء شديدا بل انتحبت . وهنا انضم إلى المدرس الانسان زملاؤه وأسأتذتى مدرسو اللغة العربية بالمدرسة.. وضغطوا على الناظرة ضغطا شديدا لم تملك معه إلا أن طلبت إلى أن أملا الاستمارة الخاصة وذهبت بنفسها وقدمتها بعد انتهاء مدة التقدم موضحة ما حدث فقبل المسئولون فى الوزارة الاستمارة .

وجاء موعد الامتحان التحريرى ثم الشفوى وبالطبع كان أعلى مستوى .. أعلى كثيرا من منهج الثانوية العامة .. وظهرت النتيجة فإذا بالوزارة تهنىء الناظرة والمدرسة لقد كنت الأولى على البنين والبنات لأول مرة فى تاريخ هذه المسابقة ويكت الناظرة هذه المرة واختلط ثنائها باعتذارها عما حدث والذي دفعها اليه خوفها على نتيجة شهادة اتمام الدراسة الثانوية .

كان يوما مشهودا لم ينقصه إلا غياب أبى الذى كان ينتظر هذا اليوم منذ وضعت قدمى على عتبة المدرسة الثانوية . كان حلمه الكبير أن يكون لى قلم . ليته رأى كتابى التاسع والثلاثين بعد أن خرج من المطبعة ..

كان وزير المعارف فى ذلك الوقت الدكتور محمد حسين هيكل صاحب (فى منزل الوحى) ، و (حياة محمد) ، ودعا الناجحين ليوزع عليهم الجوائز بالاضافة الى إعلان حقهم فى مجانية الجامعة واختيار أى كلية يشاءون .

وكننت أول من تقدم إلى المنصة وأول من سلم عليه وأهدى إلى مجموعة كتب أدبية لكبار أدباء العصر وظرفا به «عشرون جنيها» ، وكان هذا المبلغ يمثل شيئا فى الخمسينات أو بالنسبة لمن هن فى مثل سنى فى ذلك الوقت .

ومنذ ذلك الحين اتصلت حياتى بل التحمت بالأدب قراءة وكتابة واستشفافا وثقفا .

تخرجت فى الجامعة .. جامعة القاهرة الأم بعد أن درست اللغة العربية أدبا وتاريخا وفقه اللغة ودرست التاريخ المصرى والإسلامى ودرست من اللغات الشرقية : الفارسية والتركية ودرست من اللغات الغربية الانجليزية والفرنسية بل اللاتينية باعتبارها الجنور فى عين الغرب .

أقول هذا من باب المفارقات فقد كانت أمنية جدتى أن أفك الخط فلما كتبت أو شخبط أ- ب تمننت أن اكتب الجواب لتعرف أحوال وقف أبيها فى القاهرة وعندما حققت لها حلمها بعد سنوات، بليت الشرابات .

وغاب والدى قبل الأربعين من عمره وكانت صدمة حفرت أثرها فى أعماقى .

وهنا أعاننى الإيمان على الوقوف على قدمى من جديد .. بدأت ألتمس الطريق وأتجنب الخطى .. عرفت الخوف والرغبة عرفت الحيرة وسىالا من الدموع .

ثم أضت نفسى إلى السكينة من قرار عميق أحسست أن الله معى وكفى .

سرت وسارت الأيام عشت فى القاهرة مع جدتى لأبى الذى كانت تؤثرنى وتبالغ فى اعزازى وتؤمن بنجاحى بل تؤمن بكل كلمة أقولها أو أكتبها وهى لا تقرأ ولا تكتب ولكنه الحب وذكاء الفطرة معا .. ولها فى هذا الباب نواذر وحكايات لا تسعها هذه العجالة ..

وفى القاهرة عرفت الجامع الأدبية .. وفى القاهرة ارتدت المعارض الفنية .. وتزاوج فى نفسى الأدب والفنون .. غدت فى حياتى ، صحبة .. واصطبغت كتاباتى ، بالتعدد مع تعدد اهتماماتى .. وهى نعمة أحمد الله عليها .. ومن الرزق ما يفوق المال بلا حدود ، كالموهبة .. إنها حظ عظيم وثراء عريض .

ومن المواهب بهجة الرؤية .. وفن التنويع .

وفى القاهرة التقيت بقمم رفيعة الذرى ..

رأيت العقاد ولطفى السيد وأم كلثوم وطه حسين وأحمد حسن
الزيات ومحمود تيمور وعبد الوهاب عزام ورامى ويبرم التونسى وزكريا
أحمد والسنباطى ..

رأيت محمد حسين هيكل ورأيت حسين فوزى .
رأيت من رجال السياسة والدبلوماسية محمود فوزى .
بلا ألقاب سجلت هذه الأسماء لأنها أكبر من الألقاب .. كل
الألقاب .. أكبر كثيرا ..

زرتهم وزارونى فى بيتى وأنا لم أتجاوز بعد، فى ذلك الوقت، مرحلة
الشباب وحللت من نفوسهم مكانة كنت أنا نفسى أغبط نفسى عليها..
كان الزيات يدعونى . ابنته .. وكان يطلب الى أن أناديه : بابا .. كان
يقول : أنه لم يرزق فى حياته بنتا ولكنه وجدها كما يتمنى أن تكون..
وكم كان قوله هذا يغنينى ويشجينى .. كان أبا يقلق إذا مرضت ، ويقلق
أكثر إذا ولدت، حتى إذا زال عنى رهقى ، كان أول الداخلين إلى
حجرتى .. كان يفرح إذا كتبت ، ويسعد إذا تفوقت ، ويفخر إذا تقدمت
الصفوف .

ومن الطريف أن الاستاذ الزيات حين كان يصدر مجلة الرسالة حال
سكرتيره ببنى وبينه على الرغم من وجود موعد سابق .. والقصة تبدأ
حين كنت طالبة بالسنة الأولى بكلية الآداب جامعة القاهرة. كنت أكتب

أبحاثا نقدية فى الأدب وأرسلها إلى مجلة الرسالة التى يرأسها أحد كتابى الأثيرين الذين كنت أقرأ لهم منذ كُنت فى العاشرة من عمري . كان يرأسها الأستاذ الزيات .

وكنت على طرءة السن، فرحة سعيدة بانتسابى إلى كلية الآداب أيام كانت كلية الآداب بأعلامها المرموقين ومواقفهم المرموقة الشامخة فى الحياة المصرية لا الأدبية فحسب.. وكنت أترجم اعتزازى بها فى امضائى الذى أقرنه دائما باسمها .

وكانت مقالاتى وأبحاثى فى هذه السن الغضة تنشر فى مجلة الرسالة بعناية ظاهرة .. وعرفت فيما بعد أن الاستاذ الزيات ومعاونيه فى المجلة كانوا يحسبوننى أستاذة فى كلية الآداب لا طالبة قياسا على هذه الأبحاث ..

وشجعنى هذا على أن أطلب لقاء الاستاذ الزيات وما كان صوتى يصله عبر أسلاك التليفون أو المسرة ، كما يريد المجمع أو الهاتف كما يقول إخواننا فى سوريا حتى جاعى صوته مرحبا متهللا ويسرعة حدد لى موعدا .

” وذهبت فى الموعد بعد أن احتشدت طالبة السنة الأولى له فإذا بالسكرتير وقد رانى فتاة صغيرة ، يتطوع بالحيلولة بينى وبين لقائه، متعللا بتعلات سكرتيرى المكاتب الكبيرة ..

أتراه حسب أنى أنتحل شخصية الكاتبة الجديدة وليست هى التى تقف أمامه ؟ أرجح هذا .. أو هو بالطبع .

ومضى على هذه الواقعة أربع سنوات وتخرجت فى كلية الآداب ومالت الصحف والمجلات والحياة الأدبية كتابة ونشرا .. ومن هذا المقال الذى نشرته سنة ١٩٥٦ بعد تأميم القناة بعنوان (من أجل هذا يحاربوننى) فإذا بالاستاذ الزيات يرد فى الصحيفة نفسها .. الشعب .. مسترسلا فى المعنى مستهلا كل فقرة من فقراته :

(وكما قلت فى مقالك الأدبى الجميل يا سيدة نعمات...) .

ولم ألبث أن طرقت باب بيتى عصر ذلك اليوم طارق.. وأفتح الباب فإذا بى وجهها لوجه أمام سكرتيره الذى صدنى عنه منذ بضع سنوات، يطلب تحديد موعد ليزورنى من ؟

الأستاذ الزيات !!

واهتسم لى القدر ..

واتصلت الأصابع .

وكان الأستاذ العقاد يلقى الناس يوم الجمعة من كل أسبوع وبينهم صفوة من الأدباء والمفكرين ونخبة من مريديه وتلاميذه وكان يلقانى وحدى كل سبت من الخامسة إلى التاسعة مساء.. ويلغى مواعيده فى هذا اليوم من أجلى - كما قال لى - يحدثنى حديث الأدب والفن والسياسة .

كنت فى ذلك الوقت حديثاً التخرج أحضر رسالة الماجستير عن
المازنى رفيق عمره وصديقه على امتداد أربعين عاماً لم يذكر صفاءهما
كدر، أو يشوب علاقتهما طائف ينال .

وكان أستاذ الجيل لطفى السيد يطلب من ممرضته أن تدعه معنا
زوجى وأنا وترجى طلباتها فيما يتعلق بصحته حتى الدواء والعشاء كان
يرجئهما على الرغم من إلحاحنا عليه بتعاطيه .

ومن الطريف أنه أهدى إلى يومنا كتابه صفحات مطوية وكتب فى
الاهداء «إلى صديقتى» .. ثم استدرك فى خفة روح أو كمن يستدرك وقد
نظر إلى زوجى ، وأضاف كلمة الشابة أى إلى صديقتى الشابة..

كم سعدت وكم سمعت وكم تعلمت وكم رأيت وكم وعيت وكم أثريت
الثراء الذى يرتفع كثيراً على الأرصدة والمكاسب والأرباح مما يشغل
عباد المال .

ويسألوننى فى برامج الإذاعة وفى لقاءات الصحافة فيما يسألونه عن
مولدى فأقول المنيا أم التوحيد وأم تل العمارنة حيث أرسل العظيم
اخناتون سبحاته.. المنيا التى كرمت المرأة الى الحد الذى اتخذت معه
«نفرتيتى» شعاراً لها .. المنيا المعطاء على مسار التاريخ .

ولكن إذا كانت المنيا التى أعتد بها ، وأعتز بأمجادها ، مسقط
الرأس ، فإن القاهرة ، بعد سنوات مرفع الرأس .

فى المنيا ميلادى الأول وفى القاهرة ميلادى الثانى .
فى المنيا نشأت وفى القاهرة شببت وتعلمت وكتبت وتزوجت وأنجبت
وحققت ذاتى بألوان من الأمومة ليس آخرها بنوة الأبناء .

شريط طويل حافل ، حياتى فى القاهرة ، والقاهرة فى حياتى وكم
يطيب لى الحديث المفصل عمن ذكرت من الصفوة الأعلام لولا أنى كتبت
عن «الأدباء» منهم كتابة مستفيضة فى كتابى (قمم أدبية) وكتبت عن
«الشعراء» فى كتابى (خصائص الشعر الحديث) وكتبت عن أعلام الفن
الموسيقى، فى كتابى (أم كلثوم وعصر من الفن) وكتبت عن التشكيليين
فى كتابى (فكر - ادب - فن - سياسة) ولهذا اكتفيت بلمحات منهم
اقتضاها السياق فى قصتى مع القاهرة مكتفية بما جاء فى كتبى
الأخرى من تحليل متوسع بل أفردت لبعض هذه الأسماء النوايح، كتابا
مستقلا لكل منهم مثل : العقاد - المازنى - رامى - أم كلثوم .

شئ كبير أن يكون للإنسان قلم .. ولكن شئ نفيس أن يكون
للإنسان موقف ومن نعم الله على أن وهبنى الكلمة.. والقرار أعنى
القدرة على الاختيار الصعب، فعرفت المواقف ، وتحملت فى سبيل
مواقفى .. الكثير عرفت المواقف وعلوت على الاغراءات والعروض
والمناصب والبريق ،

أعز منها جميعا تراب هذا البلد بكل ذرة من هذا التراب .

يكفينى من الدنيا دفاعى المستميت عن هضبة الأهرام .
يكفينى من الدنيا رفضى دفن النفايات الذرية للنمسا فى شرق
لقاهرة .

يكفينى من الدنيا دفاعى عن حماية الآثار الإسلامية .
يكفينى من الدنيا دفاعى عن قبة الإمام الحسين .
يكفينى من الدنيا دفاعى عن نهب مصر . من خلال الرئاسة السابقة
لمبنك العربى الأفريقى، فى هذا وغيره كفاء .

محمود أمين العالم

بداياتى اتسمت بالتمرد والتساؤل والقلق

أمسك بالقلم لأكتب عن سنوات التكوين يثب إلى خاطرى سؤال إشكالى مشاكس: هل هناك سنوات محددة للتكوين؟ سنوات لها بداية ونهاية؟ أم أن التكوين بداية متجددة مستأنفة لا تتوقف أبداً؟ هل هناك حد يبلغ عنده تكوين الإنسان مداه فلا يتعداه. أذكر أننى منذ أكثر من أربعين عاماً ترجمت موضوعاً فى مجلة علم النفس التكاملى عن أن السنوات الخمس الأولى من حياة الإنسان هى سنوات تكوينه النهائى، وأن كل مايتلوها بعد ذلك من سنوات هو امتداد لجذر تثبت، وتفريع على أصل اكتمل، هل هذا صحيح؟ اليوم.. ما أظن ذلك..

إن ما أشعر به - عن خبرة وبقين - بعد كل هذه السنوات، أننى وأنا أختتم العام الأول بعد السبعين من عمري، لا أزال أكون، لا أزال

أحتاج إلى مزيد من الخبرة والتكوين، لاتزال تغمرنى الدهشة ويغمرنى القلق والتوتر والهوس أحيانا امام كل لحظة وخبرة جديدة. لايزال يشتعل فى كيانى كله الاستعداد والرغبة فى التجدد والتغيير والتجاوز، لكل ماسبق أن مارسته قبل هذه اللحظة الراهنة فى مجالات المعرفة أو التذوق أو الشعور أو العمل.

هل أقول إن هذا هو ما تكونت عليه؟ هذا هو تكوينى، الذى هو التكوين المتصل المتجدد - لو صح التعبير - وليس التكوين النهائى؟ هناك بغير شك مغالاة فيما أقول . فثمة ملامح لشخصيتى قد تحددت بالفعل ، أرت أم لم أرد ، وثمة رؤيا إنسانية وثقافية قد تبلورت وإن لم أقل إنها استقرت وجمدت نهائيا .. هل يمكن القول - خروجا من هذا الاشكال - بأن حياة الانسان هى مزيج من الكينونة والسيورة، من الثبات والتغير، وأن بين هذين الطرفين جدلا حيا متصلا لا ينقطع أبدا؟ لعل هذا ان يكون أقرب الى الصواب.. فالحق أنه لا نهاية ولا حدود للتكوين والتكوين، وللتجديد والتجاوز فى تاريخ الفرد أو فى التاريخ الانسانى العام، وإلا أصاب هذا التاريخ - الفردى أو العام - نوع من تصلب الشرايين، ففقد تاريخيته - أى فقد حياته حتى وإن استمرت فى ظاهرها، ولعل هذا هو مايجعلنى أكاد أبصر سنوات حياتى مراحل مختلفة متغايرة من التكوين والتكوين، ولا أكاد أشعر بالحدود النهائية لكل مرحلة، ولا أكاد أشعر حتى اليوم بتوقفها أو اكتمالها، ولا أقصد

كمالها، ولهذا أقول لنفسى، وأنا اكتب بصوت عال، أكتب بتلقائية ، وبغير إعداد مسبق، أقول لنفسى ليكن حديثى إذن عن السنوات الاولى للتكوين، وليس عن سنوات التكوين على اطلاقه. ولا أستطيع هنا أن أغوص فيما هو ثابت ومتغير، فيما هو موروث ومكتسب ، وما دار بينهما منذ بداية العمر- ولا يزال حتى اليوم - من حوار وصراع وتداخل باطنى، حسبى أن أحاول أن أرسم على الأقل - بعض التضاريس الخارجية فلعلها أن تساعد على تحديد بعض المعالم الدالة.

بين أحياء القاهرة القديمة

ولدت فى اليوم الثامن عشر من شهر فبراير عام ١٩٢٢ فى حارة الكحكيين بحى الدرب الاحمر بالقاهرة، وما أذكر إننى غادرت سكنى هذا الحى وحى الازهر عامة قبل أن أبلغ الثلاثين من عمري عندما تزوجت، على أنى انتقلت مع اسرتى داخل إطار هذا الحى نفسه بين حارة الكحكيين وحارة القريية ودرب المحروق ودرب الدليل وحيطان الموصلى. وكان من الطبيعى كذلك أن يكون تعليمى الأولى والإبتدائى والثانوى فى احضان هذ الحى الشعبى العريق. بدأت تعليمى الأول فى كتاب الشيخ السعدنى فى مدخل حارة السكرية عند بوابة المتولى، ومازلت أذكر الشيخ السعدنى بوجهه المتجهم دائما وعصاته الطويلة التى ما كانت. تعجز عن الوصول الى أى تلميذ منا ونحن نحفظ معه

القرآن الكريم، ولا أدري لماذا تثب إلى ذاكرتى الآن زيارتى فى هذه السن المبكرة مع شقيقى محمد شوقى أمين لأديب كبير كان يسكن فى حارة السكرية فى بيت من البيوت الاثرية القديمة هو حسن القاياتى ، ما أعتقد أن جيلى فضلا عن الأجيال التالية يعرف هذا الأديب الكبير، ولا أدري لماذا لا أزال أذكر حتى اليوم ظلال بعض ما أخذ يلقيه علينا فى هذا اللقاء من شعر، بل لا أزال أذكر بعض ألفاظه التى تتسم بالعرفاة اللغوية.. بل لا أزال اذكر نكتة عن صديق له، حكاها لنا وانطلق يضحك هو وأخى شوقى عليها، أما أنا فلم افهمها إلا بعد أن أخذ يشرحها لى أخى شوقى بعد خروجنا من عنده، قال الاستاذ حسن القاياتى انه أرسل الى صديق له يدعى فؤاد رسالة بدأها بقوله: سمي قلبى يافؤاد. فرد عليه صديقه فؤاد برسالة بدأها بقوله: سمي قلبى ياحسن ! طبعا لم أفهم آنذاك أن الفؤاد هو اسم مرادف للقلب، أما حسن فليس اسما أو مرادفا للقلب! عذرا على هذه الانعطافة من كُتَّاب الشيخ السعدنى الى هذه الزيارة العابرة للاستاذ الأديب حسن القاياتى.. ولكن لعلها تشير إلى ما زالت تحمله وتحياه الذاكرة من عطر أدبى قديم عريق، وما انتهيت من كُتَّاب السعدنى حتى التحقت بمدرسة الرضوانية الأولية بالقريبة، وهو جزء من حى درب الأحمر كانت تصنع فيه قرب الماء التى كان يستخدمها السقاءون فى ذلك العهد. وما أعتقد

أن المجال يسمح لى بأن أترك بعض ذكريات هذه المدرسة تفرض نفسها - كما تحاول الآن معى - على هذه السطور الوصفية الخارجية عن حياتى فى هذه المرحلة . المهم أننى التحقت بعد مدرسة الرضوانية بمدرسة النحاسين الابتدائية بالقرب من ميدان بيت القاضى على مقربة من جامع سيدنا الحسين، وقد علمت بعد ذلك أن جمال عبدالناصر كان تلميذا فى نفس المدرسة وإن كان يسبقنى بعامين. وكان الالتحاق فى هذه المدرسة بمصروفات، لأنى مازلت أذكر حتى اليوم أننى لم أتمكن من دخول المدرسة عندما أخذنى أبى إليها فقد أخرج كيس نقوده الدمورى، واكتشف أن مافيه لايكفى لدفع المصروفات فتركنى وذهب الى قريب لنا هو الشيخ منير الدمشقى صاحب المكتبة المنيرية المشهورة فاقترض منه مايكمل به مصروفات دخولى المدرسة، وعاد الى وأنا فى انتظاره على باب المدرسة، وبعد أن حصلت على الابتدائية من مدرسة النحاسين التحقت بمدرسة الاسماعيلية الثانوية بميدان السيدة زينب.. وكان ذلك فى عام ١٩٣٥، وكان عاما عاصفا بالأحداث السياسية التى لا أزال اذكر الكثير منها، على أنى لم أمكث فى مدرسة الاسماعيلية - وكانت مدرسة أهلية - غير سنة واحدة، انتقلت بعدها الى مدرسة حكومية هى مدرسة الحلمية الثانوية - بحى الحلمية - التى حصلت فيها على الشهادة الثانوية، وانتهت بهذا المرحلة الاولى من حياتى التعليمية - بل المرحلة الأولى من تكوينى الثقافى.

وقد يعطى سكناى فى حى الدرب الاحمر وانتقالى بين مدارسه.. لا مجرد إطار عام لهذه السنوات الأولى من حياتى، وإنما يعطى كذلك عمقا له دلالة خاصة، ففى هذا الحى الشعبى الدينى قضيت الثلاثين عاما الأولى من عمرى، تجولت فى كل حواريه وأزقته ، وعرفت كل آثاره، وصليت فى كل مساجده ، واختلطت بناسه بمستوياتهم الاجتماعية المختلفة وتمثلت ومارست تقاليده وعاداته، ومن أحد منازلها فى منطقة «الباطنية» كنا ونحن أطفال نستطيع أن نمضى رأسا الى جبل الدراسة، وأن نشتبك هناك فى معارك مع الأحياء الأخرى بالطوب والمقاييع، ومازلت أذكر هتاف حارتنا آنذاك «إحنا بتوع الباطنية واللى يعاديننا مين».

ومنطقة «الباطنية» كانت مشهورة وأظنها لاتزال ـ بتجارة الحشيش وما أكثر ما كنت أشاهد آنذاك عمليات بيع الحشيش فى ميدانها الصغير.

أجمل علاقات الصداقة

وفى أثناء سكنا فى درب المحروق عاصرت البدايات الأولى لمحمود شكوكو الذى كانت عائلته من سكانه أيضا ومازلت أذكر بعض مونولوجاته الأولى . وفى جامع المردانى بشارع الغورية، بالقرب من بوابة المتولى كنت أذهب لأذاكر فوق قاعدة نوافذه الكبيرة، أو فى باحته

الواسعة.. ولا أكاد أنسى أبدا حتى اليوم نسائمه الرخية على وجهى. وبالقرب من هذا المسجد الجميل كانت تسكن عائلة ناظر مدرسة النحاسين آنذاك وهو عبد الهادى برادة، كانت تسكن بيتا كبيرا - كما هو فى ذاكرتى الآن - كنا نلعب فى حوشه الواسع، فقد كنت على علاقة طيبة مع أولاده وخاصة ابنه كمال الذى ما أزال أحمل له الود العميق رغم هذه السنوات البعيدة التى فرقت بيننا، وفى شارع قريب كذلك من المسجد كانت تسكن أسرة المناديلى، وهى أسرة تجارية عريقة، كان لها محل مانيفاتورة مشهور آنذاك فى حى الغورية ولا أزال أحمل عطر علاقات الصداقة مع أطفال وشباب هذه الأسرة الكريمة، ولا أدري كيف وجدت طريقى فى هذه السن المبكرة الى السير الشعبية.

بداياتى مع السير الشعبية والقراءة

كان لى صديق من منطقة الباطنية عرفنى على مكتبة من مكتبات شارع الأزهر، لعلها مكتبة صبيح أو مكتبة أخرى، وكانت هذه المكتبة تعيرنا ملازم مفروقة من بعض السير الشعبية لقاء ملايم تقريبا. كنا نأخذ الملزمة نقرأها ثم نعيدها ونأخذ الملزمة التى تتلوها وهكذا حتى ننتهى من قراءة السيرة، وأذكر فى هذه السن اننى قرأت سيرة الأميرة ذات الهممة، وعنترة ولكننى تعلقت تعلقا شديدا بسيرة عمر العيار ولا تزال فى نفسى من هذه السيرة أطياف بطولية لا تختفى. كما تعلقت بعد ذلك فى بداية مرحلة الدراسة الثانوية بقصص اللص المصرى الشريف

حافظ نجيب ثم بأرسين لويين، على أن أخطر ما أتاحة لى هذا الحى الى جانب هذه العلاقات الانسانية والمعنوية هو قربيه الشديد من دار الكتب بباب الخلق، كنت أذهب اليها لاقراً وأستعير ما أشاء من كتب . وكان يجلس بجوار مبنى هذه «الكتبخانة» بائع صغير للكتب فى مثل سنى، كنت اشتري منه بعض القصص باللغة الانجليزية التى كنا نتعلمها تعلمنا جادا فى هذه المرحلة الابتدائية، وفى دار الكتب كنت أغامر كثيرا بالاطلاع على كتب لا أحسن فهمها تماما، بل أحيانا لا أفهم منها شيئا، كان يغرينى بها عنوانها اساسا.. اذكر فى بداية المرحلة الثانوية.. وقوعى على كتاب بالانجليزية فى مكتبة باب الخلق أغرائى عنوانه وهو «حب الحياة فى الطبيعة» ، كان الكتاب فى البداية مستغلقا على فهمى، ولكنى أخذت أحاول أن أستوعب بعض دلالاته وأذكر أننى استطعت أن أفك بعض رموزه أخيرا، واعتقد إنه كان البداية السحرية لى لتعرفى على نظرية التطور وعلى أننى فى مدرسة النحاسين الابتدائية أتيح لى الحصول على كتابين كان لهما أكبر الأثر فى تشكيل بعض ملامح حياتى الفكرية، ولازلت أذكرهما جيدا، وكان حصولى على هذين الكتابين فى إطار مصادفة نادرة، لولاهما ما واصلت تعليمى، فقد كنت فى السنة الثالثة فيما أذكر - وعجزت اسرتى عن دفع مصروفاتى المدرسية ، ففصلت من المدرسة ومكثت فى البيت - وأخذتني

أمى الى زوج خالتي الشيخ منير الدمشقي صاحب المطبعة المنيرة الشهيرة الذى اشترت اليه من قبل، وكان هدفها أن اتعلم صنعة بدلا من مكثى عاطلا فى البيت، وفى بضعة أسابيع استطعت أن اتعلم جزءا كبيرا من صندوق الحروف وتركيب الجمل والعبارات وربطها بالخيط مع غيرها من الجمل الأخرى، وابنى صفحة كاملة من الرصاص، على أنى فى أغلب الاوقات كنت أعمل مساعدا للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى هذه المطبعة، لافى الأعمال الطباعة أساسا وإنما فى الخدمات الصغيرة كإحضار الشاى وشراء السجائر لهم إلى غير ذلك.

المجانية والتفوق

ولم تطل غيبتى عن المدرسة، إذ سرعان ماجاء خطاب رسمى منها يدعونى الى العودة معفى من أداء المصروفات، وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشفى، فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية فيما يبدو.. وهكذا عدت الى مدرسة النحاسين لأواصل دراستى بها، على أن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد أجريت فيما يبدو مسابقة عامة نجحت فيها، فحصلت على جائزة من وزارة المعارف آنذاك.

وكانت الجائزة تتمثل فى كتابين: أولهما هو كتاب أحمد حسنين

باشا عن رحلته فى الصحراء الغربية واكتشافه لواحة من واحاتها..
والثانى هو كتاب يعقوب صروف عن مكتشفات العلم الحديث، أو مايقرب
من هذا العنوان.

ولانتزال مغامرة أحمد حسنين فى مجاهل الصحراء، والمغامرات
العلمية التى عشتها فى كتاب يعقوب صروف تواصل رفيفها الحى فى
وجدانى حتى اليوم.. ولعل هذين الكتابين قد أثرا فى مسلكى العمل
والفكرى عامة، على أنى ما زلت أحمل من هذه السنوات المبكرة فى
حياتى سواء فى حى الدرب الاحمر أو فى مدرسة النحاسين بعض
الذكريات السياسية فمازلت أذكر مظاهرة شاركت فيها بعض
طلبة مدرستنا مع بعض طلبة مدارس الحى - كمدرسة الجمالية
مثلا..

لست أذكر كيف! ولكنى أتذكر صداما مع البوليس آنذاك فى ميدان
بيت القاضي، وأتذكر بقايا هتافات واهازيج لاتزال ترن فى أذنى مثل
«احيه يانسيمُ يا أبو عقل» «تخين» . ونسيم هو نسيم باشا الذى كان
رئيسا للوزارة آنذاك.. ويبدو أن المدرسة كان يغلب عليها الاتجاه الوفدى
شأن القاعدة الشعبية عامة فى هذه السنوات على أن أول مظاهرة
سياسية اشتركت فيها كانت قبل ذلك.. وكانت محصورة فى حارة
القريبة أمام بيتنا.. كنت حدثا صغيرا.. وكان العام هو عام ١٩٣٠.

وكان مصر كلها تغلى بالمظاهرات الوفدية ضد صدقى باشا. وفى هذه الايام، اعتقل اخى شوقى.. على أن المظاهرة التى قامت فى الميدان الصغير أمام بيتنا لم تكن احتجاجا على اعتقاله، وانما كانت جزءا من الاحتجاج الشعبى العام الذى كان يشارك فيه الكبار والصغار.. وأذكر فى هذه الايام ، أن بعض أفراد اسرتى صحبنى الى سجن قراميدان بحى القلعة فى محاولة للاتصال بأخى من خارج الأسوار بالطبع، عن طريق النوافذ الصغيرة لزنازين السجن التى كان أخى شوقى يقبع فى إحداها ومازلت أتذكر جيدا هذه الزيارة، ولم أكن أدري حينذاك أننى سأكون داخل أسوار هذا السجن، وفى إحدى زنازينه بعد أكثر من ثلاثين عاما! .

أبى والشيخ محمود خطاب

على أن اعتقال اخى شوقى كان شيئا شاذاً فى اسرتنا.. فأسرتنا لم تكن تهتم بالسياسة، فقد كان أبى من رجال الدين، وكان من اتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية، وكان أبى على صداقة حميفة بالشيخ محمود خطاب ، فكان يصحبه فى رحلة صيد من حين لآخر نصحه بها الاطباء، وكان يذهب اليه عصر كل يوم فى مسجده الذى بناه فى حارة فى المغربلين بعد نهاية شارع الخيامية، هذا الشارع الفريد الذى يغطيه - ولازال - سقف خشبى. وكنت أذهب مع أبى أحيانا.

كنا ننتظر الشيخ محمود خطاب عند أسفل السلام الداخلية لبيته الذي كان ملحقا بالمسجد، ويقبل الشيخ محمود فى عباعته الفضفاضة وجماله المضيء الفريد، ويتجه الى مجلسه بالقرب من ساحة المسجد، ويتعلق حوله مريدوه.. وكان للشيخ محمود خطاب مهابة ما أزال استشعرها حتى اليوم، ما أزال استشعر صفاء وجهه وشفافية نفسه.. وعندما مات حزنت عليه حزنا شديدا، وتولى بعده ابنه الشيخ أمين، وأذكر انه كان رجلا طيبا للغاية.. ولكن لم تكن له مهابة الشيخ محمود، وكنت أحرص فى نهاية كل عام دراسى، وأنا فى المرحلة الابتدائية - أن أحمل الى الشيخ محمود خطاب شهادة نجاحى. وكان يطلب منى أن أقرأها فى مجلسه أمام الجميع وكان يمنحني دائما قطعتين لامعتين من الفضة، أظن أن كل قطعة منهما كانت تساوى عشرة قروش، وكنت أفرح جدا بلمعانهما ورنينهما ولكن أبى كان دائما يأخذهما منى.. وكنت أحزن لهذا كثيرا، على أنى أنكر- بخجل شديد - أننى آخر مرة حصلت على هاتين القطعتين، ولم يكن أبى حاضرا بالمصادفة ، استوليت على إحداهما ، وكذبت على أبى وقلت له: أن الشيخ محمود لم يعطنى إلا قطعة واحدة.. واستغرب أبى كثيرا. واعتقد انه شك فى كلامى.

بدايات التمرد

على أنى كنت مغرما آنذاك بأفلام توميكس فى سينما أولبيا. وكنت فى العادة أشاهد أفلامه فى التيرسو. وكانت الصالة فى العادة مزدحمة

جدا والمتابعة فيها مرهقة ولهذا صممت أن أذهب لمشاهدة أحد أفلام توميكس فى الدرجة الثانية، واصطحبت معى اختى أمة الله التى تصغرنى ولقد كان هذا السلوك جزءا من حالة تمرد أخذت تملأ نفسى فى هذه السن المبكرة فى مواجهة أبى.. وأذكر أننى بعد خروجى من الفيلم قررت أن أقوم بعملية تمرد أخرى أشد خطورة . فذهبت واشترت «سردينا» وأكلته أنا واختى فى الطريق وأخذنا نبذل جهودا لازالة رائحته عنا قبل عودتنا الى المنزل.. ذلك أن أبانا كان يعتبر أكل الفسيخ والسردين من المحرمات ، لانهما من الميتة، ومازلت أذكر كتابا حول هذا الموضوع هو «الف سيخ فى عين من أكل الفسيخ». ولقد كان تذوقى لطعم السردين المملح لأول مرة تذوقا يمتزج فيه الاحساس بالمتعة بالاحساس بالخطيئة فضلا عن الاحساس الواعى بالتمرد، والحقيقة أن علاقتى مع أبى منذ طفولتى المبكرة وحتى وفاته كان يطفى عليها دائما طابع التصلب والتوتر على خلاف علاقتى الحميمة مع أمى.. وما أكثر التفاصيل المعقدة التى تصلح للسيرة الذاتية وليس لهذا الاستعراض الوصفى الخارجى لهذه المرحلة الأولى من سنوات التكوين.. على أن أبى لم يكن رجل الدين الوحيد فى بيتنا.

أخى وعطر الثقافة العريقة

كان هناك أخى أحمد.. وكان كفيفا، يدرس فى الازهر، وواصل دراسته حتى حصل على شهادة كلية الشريعة . وكان للشيخ أحمد

فضل معرفتى بالتراث القديم منذ هذه السنوات المبكرة، لم تكن معرفة بالمعنى الحقيقى، وإنما اقرب الى المعاشية الخارجية لتون هذا التراث وهوامشه والتلمس الغامض السحرى لبعض دلالاته ، فقد كان الشيخ أحمد يحرص على أن ينقل كل كتبه الدراسية الى طريقة بريـل، كنت أملـى عليه، ويقوم هو بتخريم أوراق خاصة مثبتة على لوح خشبى بمسطرة معدنية مستخدما لهذا ما يشبه المسمار المثبت فى قبضة خشبية، ولقد ظللت أملـى عليه، وأقرأ له منذ أن استطعت القراءة حتى سن المراهقة، خائضا فى مختلف كتب التفسير والحديث وأصول الدين وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك ، أفهم بعض المعانى، ويغيب عنى أغلبها، ولكنى كنت أعيش عطر ثقافة عريقة لا يزال رحيقها الغامض يغمر نفسى، رغم استيعابى ومعرفتى بعد ذلك بل قيامى بتدريس بعض جوانب هذا التراث العظيم، وكان الشيخ أحمد عضوا - مثل أبى - فى الجمعية الشرعية - ، كان متطوعا لاهياء صلاة الجمعة وإلقاء خطبتها فى أحد مساجد هذه الجمعية المنتشرة فى القاهرة وخارجها .. وكنت أصبحه دائما أو فى أغلب الاحيان، وكان هذا يغىظنى كثيرا رغم محبتى الشديدة لأخى أحمد وحرصى الدائم على مساعدته ، ذلك أن أيام الجمعة كانت تعنى عندى المشاركة فى ماتشات الكورة فى أحواش جبل الدراسة، أو الذهاب الى حمام سباحة وزارة المعارف فى الجزيرة، الذى

كنت مشتركاً فيه طوال سنوات المدرسة الابتدائية . ولكنني في الحقيقة كنت استمتع بصحبة أخي أحمد، فقد كان على جديته العلمية والدينية ، شخصاً مرحاً فكها لا يعرف التجهم والتزمت. ولقد مات للأسف دون أن أراه، علمت بموته من بعض الجرائد التي كانت تهرب إلينا ونحن في سجن الواحات الخارجية، وحزنت عليه كثيراً .

وكان شوقي هو الأخ الأكبر. وإن كان لي أخ أكبر منه ولكني لم أراه. مات قبل أن أولد، قيل لي أنه مات في ثورة ١٩ في ميدان الأزهر ، وكان اسمه فهمي، وأنني أشبهه تماماً ولهذا عشت فترة طويلة من حياتي استشعر أنني امتداد له. وعندما قرأت شخصية فهمي في الجزء الأول من ثلاثية نجيب محفوظ خيل إليّ أنني أقرأ شخصية أخي فهمي . وأعود إلى أخي شوقي الذي كان في الحقيقة أكثر من أخ ، كان العائل الحقيقي للأسرة وخاصة بعد أن فوجئنا بأن أبانا قد باع بيتنا في حارة القربية الذي كان يدر علينا بعض الدخل ولهذا كان علينا أن نبحث عن سكن وعن مصدر للرزق! وحمل أخي شوقي العبء وكنا أسرة مكونة من سبعة أفراد، فإلى جانب الوالد والوالدة وشوقي، كان هناك أحمد وأمة الله وعائشة وأنا..

وكنا نحن الأربعة لانزال في مرحلة التحصيل العلمي. ولهذا كان شوقي مشغولاً بنا دائماً، ومشغولاً عنا دائماً. كان طالباً

فى الأزهر مثل أخى أحمد، ولكنه وهو مازال طالبا فى الابتدائية ألف كتابا صغيراً فى نقد الأزهر ورجاله بعنوان «الأزهر فوق المشرحة». ففصل من الأزهر. وكان محبا عاشقا للأدب واللغة.. فراح يشق طريقه للعلم والكتابة، وأخذ اسمه يلمع على صغر سنه، وأخذ ينشر مقالاته الادبية واللغوية فى جريدة الاهرام، وكان من أوائل الداعين لإنشاء مجمع اللغة العربية، ولهذا كان أول المعينين فيه عند إنشائه، ثم أصبح بعد ذلك ويعد جهاد علمى طويل عضوا من أعضائه..

وفى منتصف هذا الجهاد كان عليه أن يحمل عبء أسرة بكاملها ما أكثر ما عطلت مسيرته العلمية الصاعدة ! ولقد كانت مكتبة أخى شوقى ، البحر المحيط الذى رحت انهل منه كنوز المعرفة التراثية القديمة، والجديدة، العربية والغربية المترجمة، والحديث عن هذه المكتبة وعن بعض ما كان فيها، مما كان له أثر عميق فى توجيهى وتكوينى فى هذه المرحلة المبكرة من حياتى، حديث يطول، ولكن حسبى أن اشير الى أثر واحد هو مجموعة مجلة الرسالة للأديب الكبير أحمد حسن الزيات، وجدت أمامى فى هذه المجموعة منذ بدايتها ، فضلا عن استمرارها، ما فتح لى آفاق الثقافة الرفيعة فى مختلف مجالاتها، وما أكثر ما قرأت فيها من صفحات أرعشتنى وهزتنى وأقلقتنى ولكن حسبى أن أكتفى داخل هذه الآفاق الثقافية أن أذكر ترجمة فيلكس فارس لكتاب نيتشه «هكذا

تكلم زارادشت» التى اطلعت عليها بل عايشتها معايشة حميمة بعد ذلك بسنوات. وكانت الخطوة الحاسمة الأولى فى حياتى نحو التخصص فى دراسة الفلسفة.

أخى شوقى وكامل كيلانى

على أن فضل شوقى علىّ لم يقتصر على مكتبته وعلى شخصه النبيل وعلمه الوافر، وإنما قد أتاح لى أفقا آخر كان له أثر كبير كذلك فى تطويرى الثقافى المبكر.. كان أخى شوقى صديقا حميما للاستاذ كامل كيلانى نقيب الأدباء كما كان يلقب فى ذلك العهد، وكان كامل كيلانى صاحب المبادرة العظيمة فى التأليف للأطفال.. تأليفا موسوعيا متنوعا يجمع بين التراث العربى القديم والحديث والغربى، الأدبى منه والعلمى والتاريخى والجغرافى ، وكان للاستاذ كامل كيلانى مكتب خاص فى شارع حسن الأكبر غير بعيد عن بيتنا، وكان أخى شوقى يصحبنى معه فى ذهابه الى مكتب كامل كيلانى. وما اسرع ما جعل منى كامل كيلانى معياراً للقراءة على قراءة كتبه وتفهمها وتدوقها. وهكذا أصبحت أوجد فى مجالسه التى كانت تضم أبرز الادباء من مصر ومن سائر البلاد العربية، وأقوم بقراءة بعض صفحات من كتبه.

وأعتقد اننى قرأت كل ما كتبه ونشره كامل كيلانى من كتب فى هذه المرحلة.. ولم تتوقف قراعتى عند كتبه المخصصة للأطفال ، وإنما امتدت

لكتبه الأخرى التى كان يكتبها للشباب، فضلا عن دراساته العلمية المتخصصة الأخرى عن أبى العلاء وابن الرومى وغيرهما . واعترف إننى عرفت لأول مرة عن طريق كامل كيلانى شكسبير وبوكاتشو بوجه خاص والعديد من الادباء والمفكرين العرب والغربيين الآخرين فضلا عن العديد من المنجزات والحقائق العلمية التى كان يكرس لها سلسلة من سلسله ، وبين طائفة الكتب الخاصة التى كانت موجودة فى مكتب شارع حسن الاكبر وجدت كتاب تاريخ الفلسفة ترجمة أحمد أمين وزكى نجيب محمود وكانت قراءته تعميقا لتوجهى المبكر نحو دراسة الفلسفة.

ولست أذكر تماما فى أى سنة من هذه السنوات علمت أثناء وجودى فى مكتب كامل كيلانى أن بيرم التونسى قد استطاع أن يتسلل داخل مصر، متحديا القرار القديم بإبعاده ونفيه، وأن عدداً من الادباء يسعى لحمايته والتدخل لدى السلطات الرسمية للسماح له بالبقاء ويممارسة حقوقه المدنية .

وأذكر أن كامل كيلانى والشاعر الشعبى محمد همام وأدباء آخرين من بينهم أخى شوقى راحوا يبذلون جهوداً مختلفة فى هذا الشأن، وأذكر اننى حضرت حفلا أقيم للترحيب بعودة بيرم التونسى الذى كان لايزال مختفيا ولم يحضر الحفل.. ولا أكاد اتذكر بعض رفيف من كلمة كامل كيلانى فى هذا الحفل.

وأذكر اننى فى هذه المرحلة كنت اشعر بوحدة شديدة، لعلى اخترتها اختياراً، أو لعلى وجدت نفسى فى اسارها . لقد كان حديثى مع نفسى أكثر من حديثى إلى غيرى.. بل لم يكن هناك من أتحدث إليه، فالواقع أن هذه العلاقات الثقافية الكبيرة التى أتاحتها لى أختى شوقى، وهذه الأفاق الثقافية التى أتاحتها لى مكتبته ومكتبة باب الخلق (الكتبخانة) وقراءتى الخاصة، قد أخذت تعزلنى عن تلاميذ مدرستى من ناحية ، وعن معاشة ابناء الحى الشعبى الذى كنت أعيش فيه من ناحية أخرى، ولهذا أصبحت علاقتى بالثقافة، بالمونولوج الداخلى الذاتى، أكثر من علاقتى بالناس والحياة، وغلب على فى هذه المرحلة طابع الانطواء والعزلة الداخلية رغم وجودى فى زحام من العلاقات الثقافية والاجتماعية الأكبر منى^١ .

خليط من الثقافة

أين وصلت بحديثى هذا الذى أخشى أن يكون قد طال أكثر مما ينبغى؟ أظن أننى مازلت عند مشارف مرحلة الدراسة الثانوية.. لعلى عبرت الى بعض لحظات متقدمة فيها ولكنى فى الحقيقة مازلت فى هذه المرحلة الأولى من تكوينى.. فهل استطيع القول بأننى تكونت فى هذه المرحلة؟ ماهى ملامح هذا التكوين؟ هل هى هذه المعاشة الحميمية لى درب الاحمر الشعبى بأجوائه الدينية التاريخية وسكانه البسطاء

الفقراء؟ هل هو هذا الخليط من الثقافة التراثية الدينية والشعبية والادبية عامة، وهذا التفتح المبكر على الثقافة الفلسفية والعلمية، وهذا التعرف الغامض على الواقع السياسى المضطرب، وهذه الرغبة فى التمرد من ناحية وفى العزلة الباطنية من ناحية أخرى؟ . حقا هناك العديد من العناصر والرؤى والتجارب والأجواء والتوجهات والمشاعر والافكار والقيم التى لاتزال باقية فى نفسى من هذه السنوات الأولى. ولكنها فيما اعتقد كانت مرحلة تلقى وتسائل وتمرد وقلق وبحث وتطلع وتعرف غامض على الذات وعلى الآخرين أكثر منها مرحلة إجابات وتكون أو لعلها كانت مرحلة - كما ذكرت فى البداية - من مراحل التكوين التى لم تتوقف حتى الآن.. على أن المرحلة التالية لهذه المرحلة الأولى، أقصد مرحلة الدراسة الثانوية وخاصة فى سنواتها الأخيرة، كانت نقلة أكثر تحديداً وبلورة فى تكوينى الثقافى. وقد يكون لهذا حديث آخر.

مازلت أسير فى الطريق العاصف الذى بدأته منذ سنوات
ما أن صدر العدد الأسبق من مجلة الهلال، وفيه حديثى عن المرحلة الأولى من تكوينى حتى اتصلت بى أختى التى تصغرنى، وقالت لى ضاحكة: تقول إنك مازلت تتكون أو تتكون؟ والحقيقة اننى أراك قد بدأت تتفكك ! والواقع أننى انزعجت لقولها الحاد، ويبدو ان هذا ظهر واضحاً فى تساؤلى: كيف ؟ فأجابت. عذرا، لست أقصدك أنت وإنما أقصد ذاكرتك.

لقد أصبحت ذاكرتك مليئة بالخروم، وتداخلت فيها الأشياء والأسماء بل أخذت تتآكل فى بعض الأمور! .

وخفف هذا من انزعاجى قليلا وواصلت تساؤلى بهدوء: خبرينى كيف؟ فأجابت: إنك مثلا لم تذكر دروسك فى هذه الفترة الابتدائية فى جامع الميرداني كما ذكرت وإنما فى جامع المؤيد فقلت لها: هذه واحدة والثانية؟ قالت: إن مدرسة الرضوانية لم تكن فى القرية بل فى حى الدواية قلت لها : حسناً: والثالثة؟ قالت: الثالثة هى الثالثة الاثاني، فشقيقتنا الأكبر الذى مات فى ثورة ١٩ لم يكن اسمه فهمى كما ذكرت بل كان اسمه فتحى وضحكت وقلت لها محاولاً تبرير أخطاء ذاكرتى: بل هذا دليل على أن ذاكرتى تزداد تكويناً وتركيباً ، حقا كنت اذاكر فى جامع المؤيد لا جامع الميرداني ولكن ما أقرب الميرداني إلى المؤيد ، الاول يقع جنوب بوابة المتولى والثانى فى شمالها ولقد قامت ذاكرتى بالتوحيد الجغرافى بينهما وكذلك الأمر بين القرية والدواية إنهما يشكلان فى ذاكرتى الطفولية آنذاك ساحة واحدة؟ فقالت لى فى تحد: وفهمى وفتحى؟ قلت لها: نفس الأمر يا ست أمة الله، فهناك شبه كبير بين شقيقتنا فتحى، وفهمى شقيق كمال فى رواية بين القصرين! على اننى بينى وبين نفسى أدركت ان كمال نجيب محفوظ - شقيق فهمى- لا يزال قابعا فى جانب من جوانب شخصيتى برغم تصوورى أننى

مختلف عنه ! كما أدركت بالفعل ان الذكريات والمشاهد والاسماء قد أخذت تختلط في ذاكرتي عندما أستعيد بعض هذه اللحظات القديمة لا أقول هذا لأصحح بعض ما ذكرته في حديثي السابق ، وإنما لأنبي القارئ العزيز إننى عندما اواصل حديثى هذه المرة فقد أقع فيما وقعت فيه فى الحديث السابق من خروم وتداخلات ، والواقع ان الست أمة الله أشققت بى فاكثفت بما ذكرت وهى تعلم بغير شك ان بعض ما تحدثت عنه فى المرة السابقة تداخلت فيه مرحلة المدرسة الابتدائية مع مرحلة الدراسة الثانوية على أنى سأحاول هذه المرة أن أقصر حديثى على المرحلتين الثانوية والجامعية قبل أن أخرج إلى شوارع الحياة المتلاطمة بأحداثها وبناسها.

ذكريات الطفولة

ولكن يبدو أننى لن أستطيع التخلص تماما من المرحلة الابتدائية فلا تزال تلج علىّ منها حادثة أشبه بالمأساة المضحكة فى حياتى الصغيرة آنذاك ، وقعت هذه الحادثة لى فى السنة الرابعة الاخيرة فى مدرسة النحاسين الابتدائية.

كنت فيما أذكر أحب التلاميذ إلى تكلا أفندى مدرس اللغة الانجليزية ، وفى أحد الدروس الاخيرة راح يسأل تلاميذ الفصل عن كلمة محطة باللغة الانجليزية وعجز الفصل كله عن معرفتها ، ويثقة

واعتراز لا حد لهما التفت الى تكلا أفندى طالبا الاجابة منى ولا أدرى كيف ضاعت منى الكلمة الانجليزية فجأة وألح تكلا أفندى فى طلبه فوجدت نفسى أقول وأنا فى حالة هلع شديد ويلهجة خواجاتية: مهطة وانفجر الفصل بالطبع ضاحكاً أما تكلا أفندى فتقدم منى بوجه يقطر غضبا وأمسك بكتفى بيديه ثم أخذ ينهال على بطنى ضربا بحذائه واعتقد الآن أن قسوته لم تكن نتيجة لخطئى وإنما نتيجة لخذلاننى له امام تلاميذ الفصل . المهم اننى فى تلك الليلة قررت بينى وبين نفسى الا اذهب إلى المدرسة فى اليوم التالى وحاولت عدة محاولات سانجة لأمراض ولكن دون جدوى وخرجت من البيت فى الصباح فلم أتوجه إلى المدرسة وإنما الى كوبرى قصر النيل ، ولازلت أتذكر حتى اليوم إحساسى بالجمال الناعم الرقيق لما كان يمتد أمامى من حدائق لازلت أتذكرها ك لحظة حلم أخضر حر وإن كان مشبعاً بالخوف والقلق والاحساس بالخطر! وفى اليوم الثانى كان لابد لى ان اذهب الى المدرسة وكان لابد ان احمل معى خطاباً من ابنى بأسباب غيابى وجلست فى المساء بعد أن انتزعت ورقة عادية من كراسات المدرسة لأكتب خطاب الاعتذار عن الغياب ويخطى الطفولى قلت لناظر المدرسة : إن ابننا محمود كان مريضاً جداً جداً بالامس وعلشان كده لم يحضر المدرسة ووقعت باسم ابنى ووضعت الرسالة فى ظرف وكالعادة وقفت

بجوار حائط مع كل من تغيبوا بالأمس وما ان تحركت طوابير التلاميذ حتى أخذ ضابط المدرسة يقرأ خطابات الاعتذار ، وما أن وصل إلى خطابي حتى اخذني الى غرفة الناظر وكانت علة ساخنة ، ولكن في الحقيقة صارحتها بما حدث مع تكلا أفندي وذهبت بعد ذلك الى الفصل ولم يكن في هذا اليوم درس لتكلا أفندي ومضى ذلك اليوم كالعادة وعندما كنت اسير في نهاية اليوم الدراسي عائداً إلى بيتي عن طريق ميدان بيت القاضي أحسست بمن يداعب طربوشي من الخلف فالتفت فوجدت تكلا أفندي ينظر إليّ نظرة تقطر مودة وحناناً وربت برقة شديدة على خدي ثم سار في طريقه دون أن يقول لي كلمة واحدة تمنيت في هذه اللحظة أن أجرى نحوه وان اعتذر له وان اقول له إنني احبه جداً ولكني تجمدت في مكاني فقد كان نهر من الدموع السعيدة يملأ وجهي ، لأزال أتذكر هذه اللحظة الراهبة ويملؤني إدراك منذ تلك اللحظة بأن أجمل لحظات العمر وأعمقها تتمثل في هذا التفاهم الصامت بين البشر.

أهم لحظات حياتي

وانتهت المرحلة الابتدائية ووجدتني ذات صباح بدلا من أن أخرج من حارة درب الدليل حيث كنت اسكن واتجه يمينا الى الباطنية فالحسين فبيت القاضي لأنعطف الى مدرسة النحاسين ، وجدتني اتجه يساراً في شارع حيضان الموصل فيبصر ألمش لأواصل السير حتى انعطف في

شارع الخيامية فالمغبرلين ثم اخترق الحلمية فجنيّة ياميش لأدخل مدرسة الإسماعيلية الثانوية فى مدخل ميدان السيدة زينب ، كانت الرحلة الصباحية هذه المرة أطول من الرحلة السابقة فى المرحلة الابتدائية ولكنى كنت استمتع بها كثيراً ولعلها عمقت طبيعتى الإنتوائية فلقد أصبحت الرحلات الطويلة التى أقوم بها وحيدا هى أهم اللحظات فى حياتى للتأمل ولحل الكثير من المشاكل الشخصية والفكرية ثم كانت عالمى الذى أخذت أنسج فيه البدايات الأولى لقصائدى الشغرية عندما بدأت أكتب الشعر ، كنت أنسج البداية أو يتوارد على وجدانى بعض كلماتها وبعض تعابيرها وبعض صورها لأهرع بعد ذلك إلى البيت لكتابتها .

على أن مدرسة الاسماعيلية الثانوية لم تضيف إلى حياتى شيئا كثيراً اللهم إلا ثلاثة أمور: الأول هو إحساسى بمزيد من حرية الحركة ، كانت هذه المدرسة مدرسة أهلية التحقت بها لعدم قدرة أسرتى على إلحاقى بمدرسة حكومية لارتفاع مصروفاتها - فيما يبدو - عن المدارس الأهلية آنذاك وكنت فيها اتغيب كما أشاء عن الحضور دون ضرورة تقديم خطابات اعتذار! . الأمر الثانى هو تعلقى برياضة ثلاثة جديدة غير رياضة كرة القدم فى أحواش جبل الدراسة وغير السباحة هى لعبة العقلة والمتوازيين فى حوش المدرسة وجدت هذين الجهازين وتعلقت بهما

تعلقا شديداً ولم يكن يمر يوم دون أن أقوم ببعض التمرينات عليهما ، وأذكر اننى قطعت شوطاً كبيراً فى ذلك ولا أزال حتى اليوم رغم سنى لا أجد متوازيين بالذات حتى اندفع محاولاً - بصعوبة طبعاً - ممارسة بعض الحركات القديمة.

وكانت هذه السنة الاولى فى مدرسة الاسماعيلية هى سنة ١٩٣٥ وما أدراكم بهذه السنة من الناحية السياسية! بدأت فيها المظاهرات مبكرة وكنا ننتظر أن نقبل علينا مدرسة الخديوية أو نذهب اليها، وكانت المظاهرات حامية ومعادية للمحتل البريطانى بالطبع ولكنها كانت بالذات ضد تصريح للوزير البريطانى هور ، وكنا فى أغلب المظاهرات نسقطه هاتفين: «يسقط هور ابن الطور» وكانت المظاهرات السياسية انطلاقاً من مدرسة الاسماعيلية نشطة وميسرة للغاية فقد كانت شبه مندمجة فى هذا الحى الشعبى العريق حى السيدة زينب ولازلت اذكر بأسى عميق ما أتخلله حتى اليوم أننى كنت سبياً فى مصرع أحد رجال الشرطة كنا قد علمنا بمصرع الشهيد عبد الحكم وشهداء آخرين فخرجنا من المدرسة فى مظاهرة كبيرة عالية الهتاف تهتف باسمه وباسم بقية الشهداء ويسقط هور والانجليز عامة وتصدى لنا كالعادة رجال الشرطة واست اذكر أنه كان بينهم بعض الضباط الانجليز الذين كانوا يملئون علينا الشوارع آنذاك فوق أحصنتهم وأخذت أجرى مع من كانوا

يجرون من حولى وفى لحظة رأيت أحد رجال الشرطة يجرى نحوى
ويكاد يقترب منى ، وقد رفع نبوته الطويل ويهم باسقاطه فوق أم رأسى
ولم أفعل شيئاً غير أننى ضاعفت فجأة من سرعتى وسمعت ضربة
النبوت على أسفلك الشارع فالتفت خلفى فإذا بى أجد الشرطى قد
سقط فوق النبوت منكفئاً بلا حراك! لست أدرى ماذا حدث له؟ ولكنى
تصورت أننى مسئول عما حدث وأننى سوف اتهم بقتله وامتلات رعباً
وعجلت من سرعتى وأخذت أجرى حتى كدت أسقط إعياء عندما وصلت
أخيراً إلى بيتنا ولا تزال صورة هذا الجندى المنكفى خلفى على وجهه
تلوح لى أحياناً وتملئونى بكثير من الحزن ولا تزال الاحداث السياسية
فى هذا العام الصاخب حية بشكل أو بآخر فى ذاكرتى.

أول حادث سياسى

ولم أمكث فى مدرسة الإسماعيلية غير عام واحد والتحقت بعد
نجاحى فى السنة الأولى فيها بمدرسة الحلمية الثانوية استطاع أخى
شوقى بصداقته لأحمد نجيب الهلالي ولعله كان وزيراً للمعارف فى ذلك
الوقت فى الوزارة الوفدية استطاع ان يتيح لى الالتحاق بهذه المدرسة
بالمجان أو بنصف مصروفات لا أدرى تماماً بعد ان قدمنا المسوغات
الضرورية لذلك على أنى فى هذه السنة الأولى من وجودى فى المدرسة
أوفى بداية السنة الثانية لا أنكر تماماً وبرغم نعمة التحاقى بهذه

المدرسة الحكومية بفضل الحكومة الوفدية حدث لى حادث سياسى لعله كان أول حادث سياسى يمسنى بشكل شخصى ، كان قد تم توقيع معاهدة ١٩٣٦ وكانت المدرسة وفدية شأن كل المدارس فى ذلك الحين ، وكان زعيمها شابا وفديا صعيديا - أتذكر هذا من لهجته - ومن صوته الجهورى ولا تزال فى أذنى جملته المختارة التى كان يحولها دائما الى شعار وهى «الوفد عقيدة الأمة» المهم ان طلبة المدرسة أقاموا شبه مظاهرة داخل المدرسة تمهيداً للخروج تعبيراً عن تأييد توقيع معاهدة ١٩٣٦ على أن أربعة أو خمسة تلاميذ فقط فى المدرسة كانوا ضد هذه المعاهدة وكنت من بينهم وأذكر كذلك أنه كان من بينهم الصديق أمين صفوت وكان الدور الاول للمدرسة له ممر وسور خشبى يطل على الحوش الذى كان يحتشد بمظاهرة التأييد وكنا - نحن المعارضين - فى الدور الأول نطل على مظاهرة الحوش وتتبادل التهافات المتعارضة وبدأ طلبة المدرسة جميعاً يتحرشون بنا ويحتشدون ويتجهون للصعود إلينا لتصفية الحساب معنا ، إلا أن ناظر المدرسة كان رجلاً حكيماً - فيما يبدو - تحايل واستطاع إخراجنا نحن الأربعة أو الخمسة من المدرسة سراً ، وأذكر أنني خرجت مع أمين صفوت ورحنا ندور على الأحزاب المختلفة لتتعرف على مواقفها وأمين صفوت بهذه المناسبة هو شقيق الأستاذ جلال كشك وكان من ابرز من سمعته من خطباء فى

ذلك العهد على صفر سنة ، وكنت اقارنه بخطيب عظيم كان يملأ وجدانى إبان ذلك وأتابعه فى كل مجال يخطب فيه هو توفيق دياب.

المهم أننى ذهبت مع أمين صفوت إلى حزب الأحرار الدستوريين فقويلنا مقابلة لم تكن تليق على الأقل بحماسنا ثم ذهبنا إلى اجتماع لبعض شباب الحزب الوطنى فى مكتب أحد المحامين ومازلت أذكر فى هذا الاجتماع اقتراح احد الحاضرين بتكوين حزب جديد باسم «الحزب البازى» وتسامعنا : لماذا هذا الانتماء لهذا الطائر الغريب ... الباز ؟! وفهمنا أن الأمر هو محاولة للتشبه حتى فى الاسم بالحزب النازى حزب هتلر الذى كان اسمه قد أصبح اسطورة ، خاصة بسبب عدائه لعدونا المشترك الانجليز! ومازلت أذكر اعتداد أمين صفوت فى هذا الاجتماع ورفضنا ما كان يدور فيه من أفكار ومقترحات دون أن أتذكر تماما أى معالم تفصيلية أو عامة لذلك ، وهكذا خرجنا بعد أن انشققنا منذ أول اجتماع ! إلى أين؟ .. أذكر بعد ذلك عدة انتماءات سياسية عابرة كان لنا زميل فى مدرسة الطمية لازالت أذكر وجهه وأذكر اسمه كان يدعى الجوهري وكان يشبه موسوليني وكنا نجتمع معه فى مكان بالقرب من القلعة وكان يأتى دائما متأخرا وكنا نقول. هكذا يفعل الدوتش فى ايطاليا فهو يأتى دائما متأخرا وأظن أن الجوهري كان منضمًا إلى القمصان الخضراء التى شكلها آنذاك حزب مصر الفتاة والحق أننى لم

أنضم إليهم ولم أنضم بالطبع إلى القمصان الزرقاء التي شكلها حزب الوفد وإن كنت بعد ذلك في الإربعينات قد بدأت اقترب من الناحية السياسية الوطنية عامة إلى مجموعة الطلبة الوفدية على أنى أذكر أنني ذهبت كذلك مع أمين صفوت - وإن كنت لا أذكر العام - إلى مقر الإخوان المسلمين في حي الحلمية والتقينا مع الشيخ حسن البنا وأعجبت بهذا اللقاء الغريب في شخصيته بين طربوشه المدني ودعوته الدينية ! ولكنى لم أشارك في حركة الإخوان المسلمين كان فكرى قد أخذ ينشغل بالفلسفة انشغالا جادا وبفلسفة نيتشه بشكل خاص وكان ذلك بفضل بعض القراءات في مكتبة أخى شوقي وبفضل مدرس اللغة الفرنسية مسيو دانييل الذى كان يحدثنا عنه رغم نذر الصراع بين هتلر وفرنسا فى هذه السنوات قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ وفى هذه المرحلة شكلت بالفعل مع عدد من الطلبة من مدرسة الحلمية ومن مدارس أخرى مجموعة سرية أطلقنا عليها اسم «المجد الفرعونى»! وكان للمجموعة برنامج أتذكر أنه كان مزيجاً من العداء للإنجليز والدعوة للإصلاح والاهتمام بالرياضة ولا أدري لماذا لا استبقى فى ذاكرتى من هذا البرنامج بشكل محدد إلا فقرة أخيرة تؤكد فيها على ضرورة إعداد لقاء كل عام وأن نشرب فى هذا اللقاء شايًا ونكل جاتوها! .

عشقت الشطرنج

على أنى داخل المدرسة كنت قد بدأت اهتم اهتماما بالشطرنج، وكان ناظر المدرسة من هواة هذه اللعبة فشب تشكيل جماعة لها، وأمدنا ببعض المال لشراء أدواتها ولقد عا اللعبة عشقاً قاتلاً. أخذت أقرأ كل ما وجدته عنها فى دار الكتب فى قراءة بعض الكتب الانجليزية عنها وتعلقت بلعبة اسمه إلى أجمع كل أنواره وأصبح عندى كراس أسجل فيه الافتتاحيات والدراسات الخاصة بكل قطعة وبعض الادوار المهمة ومن بين الادوار التى لعبتها ولم يقتصر اهتمامى على الشطرنج فى ا خرجت أَلعبه فى مختلف المقاهى التى اشتهرت به كقهوة العتبة الخضراء وغيرها ، وكان يصاحبنى فى هذا أمين صد كان لاعبا ماهرا كما كان يصاحبنى فى ذلك صديق آخر شاعرا جيدا هو محمود عزمى اسماعيل لازلت اذكر وجهه و الدمثة أتمنى أن يكون حيا فى صحة وعافية وأتمنى ذلك ك صفوت الذى انقطعت عنى أخباره منذ فترة بعيدة.

الفلسفة والتأمل الذاتى

المهم إننى فى هذه المرحلة الثانوية وخاصة قرب نها؛ اهتمامى السياسى يخفت أو رحت أتحرك فيه بشكل هامش

وبدا يزداد اهتمامى بالشعر والفلسفة والشطرنج والتأمل الذاتى . أذكر أننى كرسيت كشكولا لتأملاتى كان عنوانه «بينى وبين نفسى» مازلت احتفظ به أقرأ فيه أحيانا ما كنت أكتبه فيه فأجد تأثراً كبيراً بآبن المقفع وخاصة بأدبه «الكبير» و«الصغير» بل ألح محاولة لتقليد أسلوبه وأجد تأثيراً كبيراً بالحلاج وملخصاً لبعض القراءات وبرنامجاً لإصلاح نفسى وإصلاح العالم واعترافات بأحاساس عميق بالعزلة الشديدة داخل أسرتى بل وخارجها ، والواقع أنه لم يكن لى فى البداية أصدقاء غير أمين صفوت ومحمود عزمى اسماعيل ، حقا لقد قامت مودة كبيرة بينى وبين طالب فى الصف الثالث من المرحلة الثانوية كان مهتما اهتماماً كبيراً بالاختراعات وقام بالفعل باختراع بعض الأجهزة والادوات وكان شابا على درجة عالية من التهذيب والنبل اسمه احمد الشايب كان بيته فى مواجهة القصر الملكى فى عابدين كنت أزوره للعب الشطرنج وكنت أحاول تقليده فى الاختراع وأذكر أننى قمت باختراع قفل آلى يفلق ويفتح بغير مفتاح! لا أدرى الآن كيف؟ ولكن لم أوصل هذه الهواية فقد غلب على توجهاتى الجانب النظرى ، ولكن لم تخرج علاقتى مع أحمد الشايب عن هذه المودة العلمية والشطرنجية وأتوقع أن يكون قد بلغ مرتبة عالية فى مجال الاختراع وأتمنى أن اسمع عنه خيرا وعرفت فى الفصل نفسه أمين عز الدين الذى كان يجاورنى فى مقعدى الدراسى

وظلت صداقتنا ممتدة من هذه السنة الثالثة الثانوية حتى اليوم وتحولت فى بعض المراحل إلى لقاء فكرى ونضالى ، وأصبح أمين عز الدين بعد ذلك أبرز مؤرخ للحركة النقابية العمالية فى مصر ، أما زميل الدراسة الآخر فهو مصطفى سويف ، لم تكن فى فصل واحد كنت أسبقه فيما يبدو بعام ولكن مازلت أذكر حتى اليوم محاضرة له ألقاها فى مدرسة العلمية الثانوية باللغة الانجليزية ونحن سعداء أن يقوم تلميذ منا بالحديث باللغة الانجليزية - ولا تزال تعلق بذاكرتى السمعية والعاطفية عبارة له فى هذه المحاضرة هى Our beloved Country لقد اتصلت بعد ذلك مودتنا واهتماماتنا العلمية وأصبح مصطفى سويف اليوم من أبرز علمائنا ومفكرينا فى مجال علم النفس.

نعم كان هناك كل هؤلاء الأصدقاء والزلاء وغيرهم فى هذه المرحلة ولكنى مع ذلك كنت أعيش احساسا عميقا بالوحدة والعزلة وكان الاستغراق فى الشعر والشطرنج والقراءات الفلسفية تعبيراً فكرياً عن هذا الإحساس ومحاولة لتجاوزه.

الجامعة وفى وزارة المعارف

ثم كان انتقال إلى الجامعة وكان من الطبيعى أن اتمسك بالالتحاق بقسم الفلسفة بكلية الآداب متأثراً بقراءاتى فى الفلسفة وتعلقى ببيتشه بالذات وكان أخى شوقى حريصاً أن التحق بقسم اللغة العربية ، كان

العميد آنذاك هو الاستاذ الكبير أحمد أمين وكان صديقاً لأخى كذلك وحاول أن يقضنى هو نفسه بقسم اللغة العربية ولكنى مع انبهارى بشخصيته وحديثه تمسكت بقسم الفلسفة وفى هذه السنة الاولى من حياتى الجامعية وجدت نفسى أكثر حرية وتفرغاً لكتابة الشعر ولعب الشطرنج والاستغراق الذاتى فى التأمل ولم أهتم كثيراً بالدراسة المنتظمة اللهم إلا بعض الدروس وخاصة محاضرة الدكتور توفيق الطويل كان إنساناً واستاذاً ساحراً فى شخصه الشفاف وحديثه الفصيح الحريري الجميل . والواقع أننى رسبت فى السنة الاولى رغم نجاحى فى جميع العلوم ! وكان ذلك بسبب نظام إدارى غريب كان هذا النظام يفرض على الطالب ألا يدخل الامتحانات الشفهية وكانت تشمل جميع المواد تقريباً إلا بعد دخوله امتحانات جميع المواد التحريرية! وفى هذه السنة كانت اللغة اللاتينية من أصعب مواد الدراسة على فقررت تأجيلها إلى الملحق لأستعد استعداداً أكبر للامتحان فيها ، وكان معنى هذا تأجيل امتحاناتى الشفهية فى جميع المواد الأخرى التى كنت قد نجحت فيها بالفعل ونجحت فى امتحان اللغة اللاتينية فى الملحق أو ما كنا نسميه بالدور الثانى الذى ينبعد فى مطلع العام الجديد ، ولكنى للأسف رسبت فى مادة أو أكثر فى الامتحانات الشفهية فما اهتمت اهتماماً كافياً بمراجعة موادها إذ كنت مطمئناً الى معرفتى بها بدليل

نجاحى فى امتحاناتها التحريرية من قبل ، والمفارقة الغريبة أننى رسبت فى امتحان الفلسفة فى هذه الامتحانات الشفهية . حضرت هذا الامتحان شبه نائم من إرهاق السهر طوال الليل محاولا تحصيل المقرر كله وكان الدكتور عبد الرحمن بدوى - فيما أذكر جيداً - فى لجنة الامتحان وما أعتقد أنه اغتفر لى ذلك ابدا بطبيعته النيتشويه الصارمة! المهم رسبت فى السنة الأولى وأذكر أن الاستاذ أحمد أمين انزعج لهذا جداً وسارع الى تغيير هذا النظام الإدارى للامتحانات الشفهية وكان من الصعب بعد ذلك ان اواصل دراستى الجامعية لولا أن أختى عائشة أصرت على ذلك وكانت مستعدة أن تبيع «مصاغها» من أجل ان اواصل الدراسة وكان الحل أن أعمل وأن أواصل الدراسة فى الوقت نفسه وهكذا التحقت بعمل كتابى بديوان وزارة المعارف (آنذاك) انتقلت بعده الى العمل أميناً للمخازن ثم سكرتيراً لمدرسة الأورمان الابتدائية لأكون قريباً من الجامعة ولأتمكن من مواصلة الدراسة إلا أن ناظر المدرسة عندما علم بأنى طالب فى كلية الآداب وأننى أذهب أحياناً لأحضر بعض الدروس منعنى من ذلك ولهذا حاولت ونجحت فى إيجاد عمل داخل الكلية نفسها وذلك بعمل بدل بينى وبين أحد موظفيها إلا أن عملى داخل الكلية كموظف كتابى كاد يحرمنى تماماً من حضور أى محاضرة بل كاد يفصلنى منها! ذلك أن الموظف الذى أخذت مكانه كان طالباً بها

كذلك ولكنه استغل عمله بها وسرق بعض الامتحانات وخشية أن استغل
 عملى فى الكلية فأكبر ما فعله . طلب منى عميد الكلية وهو آنذاك
 الدكتور حسن ابراهيم حسن أن أبحث لى عن عمل خارج الكلية وإلا
 سيضطر لفصلنى على أن امتنع نهائيا عن حضور أى محاضرة . وبعد
 فترة توطلدت الثقة بى وواصلت وجودى فى الكلية مع استمرار شرط عدم
 حضور المحاضرات أثناء العمل الرسمى وقد ساعدنى ذلك تماما فى
 الاعتماد أساسا على المراجع والقراءة الخاصة الشخصية فى المواد
 المختلفة وفى الحرص على تجويد الأبحاث التى كان يكلف بها الطالب
 وقامت علاقة شخصية بينى وبين اساتذة الكلية عامة وأساتذة قسم
 الفلسفة بوجه خاص ، وفى مقدمتهم الأستاذ الجليل يوسف مراد الذى
 كان له أكبر الأثر فى توجيهى العلمى ، والغريب أن أقرب الناس إلى
 فكرى فى هذه المرحلة وهو الدكتور عبد الرحمن بدوى كان أبعد الناس
 عنى لطبيعته الشخصية التى كانت تتسم بالصرامة والتعالى النيتشوى!
 وتعمقت علاقتى بأستاذ آخر من قسم اللغة الانجليزية كان قادما لتوه
 من انجلترا هو الدكتور لويس عوض وقد جمعتنى مع لويس عوض فى
 البداية أمران: الموسيقى الكلاسيكية والشعر اشتركت معه فى تأسيس
 جمعية الجراموفون التى كنا نقيم جلساتها فى نادى الكلية ، ويحضرها
 العديد من اساتذة مختلف كليات الجامعة مازلت أذكر منهم العالم

المصرى الجليل الدكتور مصطفى مشرفة كما كان يحضر بعض المثقفين من خارج الجامعة ، ولعل هذه كانت المناسبة التى تعرفت فيها على الأديب والفنان العزيز عبدالرحمن الخميسى على أن علاقتى بلويس عوض توثقت كذلك عندما قرأت له بعض شعرى الذى تحمس له وقام بترجمة قصيدة طويلة منه إلى الانجليزية ثم توثقت علاقتى الفكرية به بعد ذلك عندما أخذت اقترّب من الفكر الاشتراكى العلمى ، والواقع أننى فى هذه المرحلة الجامعية كنت أتروح فكرياً بين نيتشوية ووجودية عبدالرحمن بدوى واشتراكية لويس عوض والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبدالرحمن بدوى - وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان الوجودى - أنها وجودية مغدورة ذلك لانه صبها فى قوالب ومقولات تجمد - فى رأى آنذاك - طبيعتها الوجودية وكان يشاركنى هذا الرأى صديق العمر فى هذه المرحلة الجامعية وهو عباس أحمد المفكر والقصاص والروائى والإذاعى والتلفزيونى الكبير الذى لم يأخذ حتى اليوم حقه من التقدير ، وأذكر أننا قرأنا معا رسالة الدكتور بدوى وامتأنا غضبا عليه وقررنا الذهاب اليه لحاسبته ومحاكمته فى بيته ولحسن الحظ انه لم يقابلنا عندما ذهبنا إليه فقد كنا فى حالة من الهياج الفكرى والنفسى وخاصة بعد أن شربنا نصف «فياسكة» من النبيذ استعداداً للقاءنا به! وأذكر أننا ذهبنا بعد ذلك إلى صديقنا «فرحات

توما» فى بيته بالجيزة لنحكى له صدمتنا وفجيعتنا الفكرية فى
عبدالرحمن بدوى! والواقع أن القضية الفلسفية كانت آنذاك - قضيتنا
الحياتية الحميمة وإذا كان هذا هو موقفى آنذاك من وجودية عبد
الرحمن بدوى فقد كان موقفى مشابهها من اشتراكية لويس عوض ، كنت
أراها اشتراكية ملتبسة غير علمية رغم اننى لم أكن اشتراكيا فى فترة
الدراسة الجامعية بل كنت مختلفاً فلسفياً مع الماركسية وأقرب سياسيا
إلى النشاط الوطنى الديمقراطى عامة على أن الدكتور يوسف مراد
بمنهجه التكاملى واستاذيته الرفيعة كان يتيح لى قدرا من التوازن
الفكرى بين وجودية بدوى ، واشتراكية لويس عوض ، وحول الدكتور
يوسف مراد تحلقت مجموعة من طلبة قسم الفلسفة كان منهم مصطفى
سويف ويوسف الشارونى ومحمد جعفر وبدر الديب وعباس أحمد وبهيج
نصار وأنا ومن معطف يوسف مراد تشكلت بيننا ملامح مشتركة
ونضجت فى الوقت نفسه ملامح مختلفة متمايزة وتفرقت بيننا بعد ذلك
السبل الايديولوجية والعملية وإن ظلت بيننا مودة من أغنى كنوز الحياة
على أنه خارج هذه المجموعة قامت صداقة نادرة أخرى بينى وبين طالب
سورى فى قسم الفلسفة هو سامى الدروبي وكان لسامى الدروبي
بشخصيته النورانية البالغة الشفافية والصدق وثقافته العميقة فضل
تفتحنى على الحركة القومية العربية . وپرغم ما كان بيننا من اختلاف

حول منهجها فى حوارنا المشترك الصميم الذى لم ينقطع حتى آخر أيامه
فقد ظل سامى الدروبي ولا يزال أعز الأصدقاء وأقربهم إلى نفسى.

أنا والواقع السياسى

ما أكثر ما يقال عن هذه المرحلة مرحلة الأربعينات وعن كل ما كان
يزخر فيها من أحداث وأفكار وعلاقات شخصية وعامة فى بدايتها كنت
أقرب إلى الفكر المثالى بل الصوفى ، كانت لى شطحات مع هيجل بوجه
خاص ونيتشة وبرجسون والحلاج . وأذكر أننى ألقيت محاضرة فى
الجمعية الفلسفية فى كلية الآداب آنذاك بعنوان «اللامعقول فى الطبيعة
والفن» دافعت فيها دفاعاً مجيداً عن اللامعقول ثم ساهمت فى إصدار
مجلة بعنوان «البشير» صدر منها أربعة أعداد أو خمسة كانت
افتتاحيتها بالذات التى كتبته دعوة إلى التمرد العدمى المطلق على كل
تحديد ، انطلاقاً من رؤية مثالية للعلوم الطبيعية نفسها . على انى فى
الوقت نفسه كنت اشترك فى المظاهرات السياسية والاجتماعية طوال
فترة الأربعينات بروح نقدية رافضة للأوضاع القائمة ويغلب عليها
الطابع الوطنى الديمقراطى مع اختلافى مع الفكر الماركسى وإن كنت
أنسج فى الوقت نفسه علاقات فكرية حميمة مع العديد من الماركسيين
أخص منهم بالذكر الشهيد عبد الخالق محجوب والزميل التيجانى
الطيب اللذين كانا طالبين بقسم اللغة الإنجليزية ، ولهذا سجلت رسالة

ماجستير فى الفلسفة عندما تخرجت فى القسم موضوعها «المصادفة فى الفيزياء الحديثة ودلالاتها الفلسفية» محاولا بها أن أنفى الاساس الموضوعى لعلم الطبيعة بالذات وأنؤكد جذره المثالى الذاتى وفى الوقت نفسه كنت اشترك اشتراكا عمليا فى حركة ١٩٤٦ «لجنة الطلبة والعمال»، وكنا قد رشحنا عباس أحمد ممثلاً لقسم الفلسفة فى هذه اللجنة وأذكر أنه فى هذه الايام العاصفة من عام ١٩٤٦ بحث عنى سكرتير الكلية لأقوم ببعض الأعمال الإدارية التى كنت لا أزال مسئولاً عنها فلم يجدنى واكتشف غيابى فى مظاهرات هذه الأيام فأوقع على عقوبة إدارية كنت ممزقا فى هذه الفترة بين اتجاهات وارتباطات وأنشطة شتى كنت التقى بيوسف مراد الذى كان مشرفا على رسالتى والتقى بلويس عوض ورمسيس يونان وجورج حنين فى المجلة الجديدة التى تركها سلامة موسى لرمسيس يونان ليشرف عليها فى هذه الفترة وكنت أحرص على حضور محاضرات سلامة موسى فى جمعية الشبان المسيحيين ، وأذكر لقاء مع علال الفاسى والشيخ أمين الحسينى وصالح حرب وغيرهم حول قضية فلسطين فى جمعية الشبان المسلمين ، وأذكر حوارات سياسية واقتصادية ذات توجه ماركسى فى دار البحوث العلمية قبل لقائى بعد ذلك بآنور عبدالمك وشهدى عطيه الشافعى على انى لا انسى أبدا زيارة قام بها ثلاثتنا يوسف الشارونى ومصطفى

سوف وأنا للدكتور طه حسين ذهبنا لأقرا له شعري ويقدم الشاروني
 حصيلته من القصص ومصطفى سوف عمله العلمى فى مجال علم
 النفس ، ولكن طه حسين سرعان ما تحول بنا من هذه الاهتمامات
 الادبية والعلمية ليسألنا عن موقفنا من الواقع السياسى السائد وكانت
 حركة الإخوان المسلمين قد أخذت تبرز وتسعى لقرض فكرها بل
 حركتها على الشارع المصرى آنذاك وكنا بالطبع فى الجانب المعارض
 لهذه الحركة وقد أحسنا من طه حسين رضا عن ذلك ثم فاجئنى بقوله
 ناقدأ لنا بما معناه «إنكم تتبنون أفكاراً جيدة ، لكنكم لا تعرفون ولا
 تدرسون التكتيك والاستراتيجية الثورية التى تتيح لكم تحقيق هذه
 الافكار» ولعلنى ذكرت هذا فى مقال قديم لى عن طه حسين وقد خرجنا
 من عنده مذهولين بهذا الوعى السياسى العلمى وفى هذه المرحلة جاء
 استاذ فرنسى زائر لقسم الفلسفة هوجان جرنبيه وكان استاذاً للمفكر
 والأديب الفرنسى كامو ورغم انى آنذاك كنت قريباً منه فكراً ولكنى
 اختلفت معه كثيراً ثم جاء بعده استاذ فرنسى آخر زائر هو انوار
 موروسير وهو هيجلى النزعة وله كتاب فكرى مهم يقوم على اساس
 مفهوم النفى وقد اقتربت كثيراً منه وأسعدنى وجوده الفكرى خلال فترة
 كتابتى لرسالتى العلمية التى أصبح مشرفاً عليها مع الدكتور يوسف
 مراد.

وكننت فى هذه الفترة قد انتقلت من موظف إدارى فى كلية الآداب،

إلى امين مكتبة قسم الجغرافيا ثم إلى مترجم ومنظم محاضرات بالكلية، وأخذت انقطع تماما للإنتهاء من رسالتى العلمية، وعندما كنت اكتب فى فصولها الاخيرة حول بعض الاتجاهات الابستمولوجية «المعرفية» فى القرن التاسع عشر فى انجلترا وفرنسا وألمانيا، وقع فى يدى كتاب يعرض لهذه المرحلة عرضا نقديا، وحرصت على ان اتوقف عنده استكمالا لمراجعى . وكان الكتاب هو «المادية والنقد التجريبي» لفلاديمير إيلتش لينين. وما ان انتهيت من قراءة هذا الكتاب، ومن كتاب آخر قادنى إليه هو «جدل الطبيعة» لفريدرك انجلز، حتى تزلزلت كثير من افكارى التى كنت اعرضها فى رسالتى العلمية، بل حسمت بعض القضايا التى كانت ضبابية قلقة فى رأسى ، وهكذا قمت بتغيير عنوان رسالتى من نظرية المصادفة فى الفيزياء الحديثة إلى نظرية المصادفة الموضوعية فى الفيزياء الحديثة، وبدأت أعيد كتابة العديد من فصول الرسالة على أساس من رؤية موضوعية للعلم.. وهكذا بدلا من ان اقدم رسالتى بعد بضعة اشهر أخذت منى سنتين أو ثلاث سنوات أخرى لاستكمالها . ولم يقف الأمر عند هذا الحد.

بل تحولت عن الرؤية الفلسفية المثالية إلى الرؤية المادية الجدلية، وإلى الاشتراكية العلمية ، وأخذت اقترب بحماس فكرى من بعض التنظيمات الماركسية السرية، وانتهى بى الأمر إلى الانضمام إلى

إحداها، والمشاركة في نشاطها، وانتهيت من رسالتى العلمية التى تضمنت هذا التوجه الفكرى الجديد، وإن حاولت إخفاءه باستخدام بعض المصطلحات الملتبسة،، قبلا من كلمة الجدلية مثلا كنت استخدم كلمة «التكميلية» على مابين الكلمتين من اختلاف وحصلت على درجة الماجستير ، وعلى جائزة الشيخ مصطفى عبدالرازق للفلسفة تقديرا لهذه الرسالة، وعينت مدرسا مساعداً لمادة المنطق وفلسفة العلوم بقسم الفلسفة بالكلية، وقمت بتسجيل رسالة للدكتوراه اواصل بها دراسة موضوع الضرورة - الوجه الآخر للمصادفة - فى العلوم الانسانية، بعد دراستها فى الفيزياء فى رسالة الماجستير، وكان العام وهو عام ١٩٥٤ كنت قد تزوجت عام ١٩٥٢ من طالبة فى قسم اللغة الانجليزية كانت تواظب على حضور جلسات الموسيقى الكلاسيكية التى كنت اعقدها كل اسبوع هى سميرة الكيلانى ، واصبحت لنا فى عام ١٩٥٤ طفلة جميلة، وامتلات حياتى بمشروعين كبيرين ، هما مشروع فلسفى علمى لمستكمل به بحثى السابق، ومشروع سياسى نضالى أحقق به علميا رؤيتى الفكرية الجديدة.

وكنت فى عام ١٩٥٤ اختلف اختلافا كبيرا حاداً مع النظام الناصرى بعد ان كنت قد أيدته تأييدا متحفظا مشروطا فى بدايته عام ١٩٥٢.. وكانت قضية الديمقراطية والعلاقة مع الامريكان هى نقطة الاختلاف الاساسية حينذاك معه.

قرار بالفصل من الجامعة

وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ اتصلت بى كلية الآداب، وطلب منى سكرتيرها ان احضر فوراً لمقابلة عميدها الدكتور يحيى الخشاب، ولبست ملابسى وذهبت مسرعا الى غرفة السيد العميد.. ومنذ الوهلة الأولى احسست بشىء غير عادى . وجدت معه الدكتور لويس عوض وكانا ينتظراننى فى صمت غامض، ثم مالبث الدكتور الخشاب ان ابلفنا بحزن عميق وتأثر صادق ان هناك قرارا بفصلنا من الكلية.. وشكرنا مشاعره الدكتور لويس عوض وانا، بل اخذنا نخفف عنه الامر وخرجنا.

واتذكر الآن الطريق الطويل الذى اخذنا نقطعه بتمهل لويس عوض وانا، من كلية الآداب - جامعة القاهرة الى ميدان الجيزة، من ساحة الجامعة التى كانت فارغة فى هذه المرحلة من الصيف وفى فترة بعد الظهر، إلى ميدان الجيزة الزاخر بالناس والحركة، ما تكلمنا كثيرا لاشك ان حزنا ذاتيا كان يملأ قلوبنا.. بل كنت احس شخصا بأن حلمى بالمشروع الفلسفى قد أخذ يتلاشى ، واشعر بتهديد غامض لمستقبل ابنتى الوليدة.. ولكنى اذكر اننا ونحن نفترق لويس عوض وانا، قلنا معا شيئاً واحداً واتفقنا عليه معا، بوضوح وحسم، سوف نغيب عن ساحة الجامعة ، ولكن لاينبغى أن نغيب ابداً عن هذه الساحة التى نمضى

نحوها ، ساحة شعبنا ، بلادنا ساحة مصر كلها . سنواصل فيها الرسالة
التي يؤمن بها كل منا .

وواصل لويس عوض مسيرته المضيئة الشريفة التي لاتزال رغم
وفاته تتبض في وجدان شعبنا وثقافتنا العربية بفعلها التنويري .
أما أنا ، فمازلت في الطريق العاصف الذي بدأته منذ تلك السنوات
البعيدة ، أتحرك في مساراته السياسية والفكرية والأدبية قدر طاقتي ،
ومازلت اتعلم واحاول ان اكون واتجدد كل يوم ، وان اكون نافعا للناس
وللثقافة .

وأتمنى عندما تقترب ساعة الذهاب الأخير ، ان اكون قادرا على أن
اقول ما قاله الفيلسوف كانط وهو على فراش الموت يتأمل حياته هذا
حسن ، ولكن .. هيهات لى أن ابلغ هذه المرتبة الرفيعة .

محمد سيد أحمد

برغم تفوقى ظلت معرفتى للغة العربية، قاصرة !

كان والدى يزعجه كثيرا ، وقد بلغت سن العاشرة ، أننى لم أكن قادرا على التكلم باللغة العربية .. فلقد ربتنى «دادا» اسكتلاندية .. ولأن المظاهرات عمت المدارس عام ١٩٣٥ ، تقرر أن أذهب إلى مدرسة فرنسية ، هى «الليسيه فرانسيه» بباب اللوق .. وفى عام ١٩٣٨ ، عين والدى محافظا لبور سعيد . فواصلت الدراسة بمدرسة «الليسيه» هناك . ولم تكن مصادفة أن «الليسيه» كانت أفضل مدارس بورسعيد ، ذلك أن الجالية الفرنسية كانت تضم الكثير من كبار القوم ، بعضهم من بقايا الارستقراطية المنقرضة .. فان «شركة قناة السويس العالمية» وكان يديرها فرنسيون كان يتقاضى كبار العاملين بها مرتبات سخية .. وكان كبار موظفى الشركة يتمتعون بامتيازات كثيرة ، دون أن يطالبوا بعمل

جاء ! .. ولذلك خصصت هذه الوظائف لعائلات تتحدر من البرجوازية الكبيرة الفرنسية وحتى من الارستقراطية القديمة السابقة على الثورة .. وهكذا وجدت نفسى أجيد التحدث بالانجليزية والفرنسية .. ثم أخذت أنسى الانجليزية ، بسبب التحاقى بمدرسة فرنسية ، وبسبب أنها اللغة التى كانت تتقنها والدتى .. وأصبح هذا كله سببا لانزعاج والدى ، لتخلفى الشديد فى تعلم لغة بلدى !

وكان يزورنا فى بورسعيد شيخ يرتدى جلبابا أخضر أو أصفر أو بنفسجيا (!!) - «الشيخ رزق» على ما أذكر - ليحفظنا ، أنا وإخوتى ، بعض آيات القرآن .. وليباشر معنا قدرا من المطالعة باللغة العربية .. وكان الشيخ أكثر حرصا على التردد على سراى المحافظ منه حرصا على تعليمنا .. ولم نكن نستفيد من دروسه كثيرا .. وقد بدأت فى عمر الثانية عشرة اتطلع إلى تأليف كتب (!!) على غرار تلك التى كنت أقرأها .. وكان «لجول فيرن» كتاب شهير بعنوان «تجوال حول العالم فى ٨٠ يوما» . فقررت تأليف كتاب بعنوان «تجوال حول العالم فى ٦٠ يوما» ! . ولم أكن أدرك أن «جول فيرن» كان قد ألف كتابه قبلى بقرن ، وأن التجوال حول العالم فى ٨٠ يوما وقتذاك كان معجزة ، ولم يعد ذلك شأن التجوال حوله فى ٦٠ يوما فى منتصف القرن العشرين !.. وكنت بوجه عام ، طالبا نجيبا . وكنت متفوقا باستمرار .

وكان بعض التلاميذ يتصورون أن تفوقى مجاملة لوالدى المحافظ ..
ولكن ثبت لهم فيما بعد أن منصب والدى لم يكن له أى اعتبار فى هذا
الصدد ..

مشكلتى مع اللغة العربية

وفى عام ١٩٤٢ ، عدنا إلى القاهرة وواصلت الدراسة «بالليسيه
فرانسيه» بباب اللوق .. ولكن تقرر أن انتظم فى القسم العربى بالليسيه
وهو القسم الذى كانت تجرى الدراسة فيه حسب برامج المدارس
المصرية ، وكانت تفضى إلى ما يقابل الآن الثانوية العامة .. وقد ركزت
جهدى على تعلم اللغة العربية . وقد نجحت بتفوق فى امتحان
«التوجيهية» وأصبحت رابع القطر ، مع تقدمى فى العام ذاته لامتحان
البكالوريا الفرنسية وحصولى على أعلى الدرجات .. ولكن ظلت معرفتى
للغة العربية قاصرة .. وما زال كلامى باللغة العربية الدارجة تعيبه
لكنة ، لأنى لم اتعلمه على صغر .

وأذكر أن هذه مشكلة عقدتني .. وأذكر ذات يوم أن والدى كان قد
دعا لمائدة غداء الأستاذ محمود عزمى ، المفكر والكاتب وممثل مصر -
فى وقت لاحق لهذا اللقاء - بالأمم المتحدة . وكانت زوجته الروسية
معه .. كان ذلك قدر ما أذكر - قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية ..
ورحت أصارحهما ، ولا أدرى لماذا ، بهمومى وشعورى بأننى غريب فى

بلدى .. واننى أتقن اللغة الفرنسية ، بل إننى أنظم الشعر بالفرنسية ،
وأنا لا أكاد أعرف لغتى .. وأذكر أن السيدة زوجة الأستاذ محمود
عزى قد دعتنى بعد ذلك لحفل شائى عندها برفقة «نيفين» بنت رئيس
الوزراء الأسبق حسين باشا سرى .. لتفتح معنا حديثاً فيما تصورته
هى مسائل نعلم عنها الكثير ، والحقيقة أننى لم أكن أعلم عنها ما
تصورت .. فلقد خرجت نيفين من الزيارة وكانت تتقن العزف على البيانو
بكتاب عن تشايكوفسكى .. وخرجت أنا بكتاب عن لينين ! .

توجهى نحو الماركسية

وكان الأمر بالنسبة لى - وقتذاك - غريباً ومثيراً . فكنت أسمع
الكثير من الاتحاد السوفييتى بسبب إنجازاته فى الحرب العالمية
الثانية ، وبالذات وقت معركة ستالينجراد .. وكانت هذه المعركة موضوع
خناقات حادة فى العائلة .. كانت بنات عمتى وهن فى سن والدتى -
بنات اسماعيل باشا صدقى - يدافعن بحرارة عن هتلر .. وكان والدى
الذى كان يؤيد بريطانيا يغيظهن بالتهكم على هزائم قوات هتلر فى
ستالينجراد .. ومع متابعتى لإنجازات روسيا وقت الحرب ، ظل اسم
لينين غامضاً فى ذهنى .. وكان كتاب مدام عزى أول تنبيه لى بمن
هو .. والواقع أننى لم أتعلم اللغة العربية إلا نتيجة توجهى فيما بعد نحو
الماركسية ، وانغماسى فى الحركة السياسية .. عندئذ فقط . وبفضل
تعاملى مع فئات مختلفة من الشعب تعلمتها .

والغريب أن الذى وجهنى هذا التوجه الماركسى كان أستاذًا فرنسياً .. كان علىّ أن ألتقى دروساً خصوصية كى أستطيع دخول امتحان البكالوريا الفرنسية بينما كنت أتابع فى الفصل مقررات البكالوريا المصرية .. وكان لى أستاذ ألتقى منه هذه الدروس فى الأدب الفرنسى والفلسفة .. كان يدعى «رينيه جرانبيه» .. كان له الفضل فى إعدادى للبكالوريا الفرنسية ، وكان له أيضاً الفضل فى تلقينى «النهج الماركسى» دون أن أدرك أن ما كنت أتعلمه منه «ماركسية» .

وأذكر أنه قد طلب منى فى موضوع الإنشاء الذى طرح علينا فى امتحان البكالوريا الفرنسية أن نعلق على السؤال : «هل الأدب يكتب بالقلب أم بالعقل ؟» .. وكانت إجابتى أن الأمر تحكمه فى النهاية الظروف الاجتماعية .. ففى عصر الكلاسيكية ، كان الأدب يكتب بالعقل لفرط إلترام الكلاسيكيين بالعقلانية ، وأوردت أسباباً فسرت ما سقته فى هذا الصدد .. ثم فى عصر الرومانسية ، كان الأدب يكتب بالقلب ، وعددت الأسباب التى أوجدت هذه الظاهرة فى أعقاب الثورة الفرنسية والحروب النابليونية .. ولم يعجب الأستاذ المصحح «نهجى» فى معالجة الموضوع .. وربما اعتبر ما كتبت منشوراً شيعياً وأنا لا أعلم ! .. وسألنى فى الامتحان الشفهي : «هل أنت كذب كذا وكذا ؟ .. قلت بكل براءة : «نعم» قال : «كنت أريد أن أعطيك ٢ من ٢٠ لأن ما كتبت

خارج الموضوع تماما .. ولكن لأنك لم بمعلومات كثيرة ، وأنتك من حيث المعلومات تستحق ١٨ من ٢٠ .. فأعطيتك المتوسط ١٠ من ٢٠ » .. ومع ذلك استطعت بفضل المواد الأخرى ، وبالذات الرياضيات والفيزياء ، تعويض هذه الدرجة السيئة ، وظللت أول الدفعة .. ولكن ما لم أكن أدركه أن موضوع الانشاء قد كتبته من منطلق ماركسى دون قصد ولا معرفة ! .. وربما اعتقد الاستاذ المصحح أنني أعلم وأننى أتحدى .. وقد يكون أنه كان من أعداء الشيوعية الألداء وأراد معاقبتى .

طموح موسوعى

وهكذا يتضح أنني كنت حتى عام ١٩٤٦ أعيش فى عالم يتتعد كثيرا عن محيطى المصرى .. ومازلت أتساءل : هل انطوى ذلك على سلبيات فقط ؟

فلقد أفسحت لى فرصة التعرف على ثقافات أخرى ، ورؤى أخرى .. ونشأ لدى طموح ، حتى قبل معرفتى بالماركسية ، بأن أكون ملما بكل ما هو وارد أن يلم به إنسان ! .. كان لى طموح موسوعى .. وكنت أعتقد أن هذا ممكن .. وقد مرت على سنوات كثيرة قبل أن أدرك أن الانسان ليس عليه «أن يعلم» بل أن «يعلم كيف يعلم» .. وأن القضية قضية «نهج» قبل أن تكون قضية «تخزين معلومات» .

وهكذا فإن ظروفنا قد هيأتنى كى أصبح ماركسيا دون اقتران ذلك

بشعور بالانتماء إلى واقع شعبي وما أصابه من فقر ووهن وظروف بالغة السوء ! .. من هذه الظروف إعجابى بأدباء المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازي في السنوات الأخيرة من الحرب وبالذات بالشاعرين «أراجون» و «إلوار» .. وقد كان العديد من أدباء فرنسا وقتذاك شيوعيين .

وكما سبق وأشرت في مقالات نشرتها في مجالات أخرى - وربما بالذات مقال لي بمجلة «الهلل» منذ أعوام بعنوان «اليهود في الحركة الشيوعية المصرية والصراع العربي الاسرائيلي» ، أيضا مقال نشرته مؤخرا في نوفمبر الماضي بمجلة «القاهرة» عن «مستقبل الماركسية في مصر» - أشرت في هذه المقالات إلى أنه كان للجالية اليهودية في مصر دور بارز في الحركة الماركسية في حقبة الأربعينات وكان الكثير من تلامذة «الليسيه» من أبناء هذه الجالية . وكان لي بالهداهة زملاء وأصدقاء بين هؤلاء ومنظمة «إسكرا» الشيوعية ، التي نشطت في مصر وقتذاك ، ضمت في مراكزها القيادية ما لا يقل عن ٢٠٠ يهودي ، وهكذا وجدت نفسي وقد انتقلت من بيئة ارسنقراطية مصرية بثقافتها «العالمية» COSMOPOLITAN (الفرنسية بالذات) إلى ثقافة أخرى انتسبت إلى فرنسا لدرجة أو أخرى وكانت أيضا تنسب نفسها إلى الحركة التقدمية المصرية ، فضلا عن الدور المحوري الذي نهض به أستاذي «رينيه جرانبيه» في سنوات التكوين ..

أذكر أنني قلت لـ «جرانييه» ذات يوم أنني علمت بأن هناك مركزا للنشاط الماركسسى بشارع النواوين قرب ميدان لاطوغلى .. كان المركز معروفا وقتذاك «بدار الأبحاث العلمية» .. وكان يلتقى فيه عدد كبير ممن أصبحوا فيما بعد أقطاب الحركة اليسارية فى مصر .. أجاب «جرانييه» بقوله لى : «حيرتنى كثيرا ! .. فأننى لم أكن أريد أن تتجه هذا الاتجاه .. ذلك أن لك ما يهيك - فكريا ووجدانيا - كى تصبح ماركسيا .. ولكن ظروفك الاجتماعية عقبة فى وجه هذا التحول .. ولذلك أخفيت عنك كل شىء بشأن هذه الدار» .

وليس من شك فى أنه كان لـ «جرانييه» هذه الشخصية الجذابة الكاريزمية ، دور عظيم فى تكوينى ، وربما فى تكوين كثيرين غيرى فى مصر .. وللأسف بعد ارتباطى بالحركة الماركسية المصرية ، وارتباطى بالذات - فى نهاية الأربعينات - بتنظيم متطرف داخلها عرف بـ «م . ش . م» (المنظمة الشيوعية المصرية) ، ألح قادة هذا التنظيم على ألا تكون لى صلة بـ «جرانييه» قط .. وتحججوا بحجة «الأمان» فى سنوات الأحكام العرفية إثر اندلاع حرب فلسطين الأولى كى أنقطع عنه .. وظل «جرانييه» فى مصر حتى حرب ١٩٥٦ .. ثم سافر مثل غيره من الفرنسيين الذين توطنوا فى مصر طويلا واعتبروها وطنهم الثانى .. ولم يعد إلى مصر مرة أخرى .. ولم أره بعد ذلك

إطلاقا .. وقد وصلنى منه خطاب فى يوم ما قال فيه إنه كان قد سمعنى فى الاذاعة ذات مرة وعرف منى كيف ينطق اسم الزعيم الليبى «القذافى» فكان ذلك آخر اتصال بيننا .. وقد علمت بعد ذلك من صديق حميم آخر له هو الدكتور أنور عبد الملك أن «جرانييه» كان قد توفى فى مونييليه بجنوب فرنسا ..

ومع إحاطتى علما برحيله ، شعرت بأن سنوات التكوين فى عمرى قد طويت صفحتها نهائيا ..

دكتور محمد رجب البيومى

كانت القريـة تفرس الفضيلة والحب والاحترام

حين أتحدث عن التكوين أرجع إلى الماضى البعيد منذ كنت طفلا أتأمل مظاهر الوجود فى روعة واندماش، ولكن هل أستطيع أن أكون ذاكرة لهذه الأصداء البعيدة بحيث لا أتزيد أو أقتضب؟ إن الإنسان ليتحدث عن الأمس القريب فلا يستطيع أن يسجل أحداثه على وجه التحديد، فكيف بالماضى البعيد؟ ثم إلى أى مدى يقف زمان التكوين وفى كل لحظة تجد يضيف المرء إلى كيانه مالم يحط علما به من قبل؛ أفيمتد التكوين إذن إلى نهاية الحياة، أم أن هناك اصطلاحا عرفيا بأن التكوين هو ما يؤسس اللبنة القوية فى الدور الأول من المنزل، إذا قدر للمنزل أن يرتفع إلى عدة أدوار؟ خير لى أن أسترسل مع ذكرياتى دون

تحديد، فإذا تحدثت عن اليوم فهو ثمرة الأمس، والبذرة تأتي بالثمرة،
وإذن فلا انفصال.

حين نشأت في القرية الصغيرة بمحافظة الدقهلية «الكفر الجديد»
كان كل شئ فيها يعبق بأريج الايمان فالمسجد هو المكان الجامع، وشيخ
المسجد صاحب القدوة والامثال، والمناسبات الدينية كالهجرة والمولد
والإسراء ورمضان ترسل البسمات الوضيئة في الوجوه الراضية، كانت
القرية مغرس الفضيلة والحب والتراحم إذ لا تباع فيها الفاكهة
والخضراوات والألبان بل تهدى إهداء لكل طالب، والفتاة هي بيضة
الخير لا يستطيع أحد أقربائها أن يبادلها الحديث في الطريق، أما الآن
فقد انتشر الفيديو وتجمع حوله الجيران يرون ويسمعون ما يفزع،
ونشز الولد على أبيه، وجاهرت الزوجة صاحبها بالتمرد، واختفت
البسمة المشرقة من الوجوه القانعة ليسيطر جدول الضرب بماديته
الصماء.

في ذلك الزمن البعيد، وأنا في سن الخامسة، كنت أفطن إلى
صرير الباب قبيل الفجر، فأعلم أن والدي قد تأهب للذهاب للمسجد،
وأبصر والدي تقوم فتتوضأ وتصلي، فأقول لها أريد أن أصنع ما
تصنعين فتقول: كلا، أنت ولد فإذهب مع أبيك، ولا أنسى فرحتي حين
وجدت المسجد الريفي أهلاً، والصغار مثلي يصحبون آبائهم، وصوت

القرآن يرتل فى خشوع، فإذا انتهت الصلاة رجع والدى مع نفر من أصحابه ليجلسوا فى فرجة المنزل يتحدثون حتى مشرق الصبح، ولم أنس أيضا أن والدى اصطحب ذات صباح شيخا مهيبا، أخذ يخاطبه فى إجلال - وحين جاء إلى المنزل لم يجلس معه فى الفناء، بل اصطحبه إلى حجرة الضيوف، هكذا كانت تسمى، ولم أفهم سر هذا الاحتفاء، فقلت لوالدتى من القادم؟ فقالت فى فرحة، واعظ المركز يابنى؟ وكان الرجل مهيبا بلحيته البيضاء، وعمامته العالية، ومسبحته التى لا ينقطع دورها بين أصابعه، وقفطانه اللامع، وما فوق القفطان من جبة وعباءة وشال!! وعلمت بعد حين أنه سيقضى بين متنازعين ويصدر الحكم فيقع موقع القبول دون خلاف، إذ هو القاضى العرفى بالريف الذى يعلو صوته على قضاء المحكمة نفسها، وتم الصلح عن تراض فتعانق الخصوم، ورأى أبى حيرتى فيما أرى وأسمع. فقال لى، ستدخل الأزهر إن شاء الله يا بنى عليك أن تجتهد لتكون مثل هذا الرجل بإذن الله، لقد رأيت لك رؤيا صالحة، والله معك.

كان الأزهر لعهدنا لا يقبل أن تكون سن الطالب أقل من اثنتى عشرة سنة ليتمكن من حفظ القرآن الكريم قبل الالتحاق، وقد حفظته فى سن العاشرة، وبقيت سنتان حفظت فيهما متون العلم فى الفقه والنحو والتجويد، مع ديوان حافظ إبراهيم الذى اختاره أبى مع قصائد من

كتاب (جواهر الأدب). وكان ذا ذبوع بين المتأدبين إذ وصلت طبعاته إلى العشرين، وأذن فقد التحقت بمعهد بمياط الدينى وأنا أفضل علميا من كثير من الزملاء، وكان المعهد حينئذ يضم النخبة المختارة من الأساتذة إذ لم يزد عدد المعاهد فى مصر على سبعة فقط، وشيخ المعهد هو رجل الاقليم هيبة وعلماء وذيوعا، وكان من شأنه أن يمر بالفصول ليستمع الدرس ويناقش المدرس ويسأل الطلاب، فهو أستاذ الجميع، ولهذا المرور المتصل أثره فى انكباب المدرسين على تحصيل المادة أولا ثم الاجتهاد فى تذليلها للطلاب المبتدئ ثانيا، وإذا كانت مدة الدراسة بالقسم الابتدائي أربع سنوات فقد كانت كافية لإتقان مواد الفقه والنحو والصرف والسيرة النبوية والتاريخ على أحسن وجه، بحيث كان الطالب الذى يحمل الابتدائية بالأزهر أفضل بكثير ممن يحملون الشهادات العالية منه اليوم، بل ليتهم يصلون إلى نصف مستواه العلمى، وكانت المجالات الدينية والأدبية ذائعة بين الطلاب ويقرأونها عن طريق التبادل، بحيث أصبحت مددا ثقافيا ممتازا لا ينضب له معين، وأذكر أنى قرأت مرة مقالة بإحدى المجالات الدينية، تتحدث عن غزوة بدر، فوجدتها لا تخرج فى مضمونها عن ما جاء بالكتاب المقرر بالمعاهد، فقلت فى نفسى: إذا كانت الكتابة بهذه السهولة فلماذا لا أكون كاتبا؟ وكنت قرأت حديثا مسهباً عن كتاب رسول الله إلى هرقل يدعوه إلى الاسلام، وعن

أثر الكتاب فى نفسية الامبراطور الرومانى، واجتماعه ببعض التجار من العرب متسائلا عن النبى العربى ثم اجتماعه بالبطارقة ليناقدشهم فى أمر صاحب هذا الدين، فوقع فى نفسى أن أكتب مقالا يلخص هذه العناصر، وأن أبعث به إلى مجلة الأزهر، وكان هذا تسرعا مشتتا من طالب ناشئ يبعث بمثل هذا التلخيص إلى أكبر مجلة اسلامية! ولكنى فوجئت بعد أسبوعين بمظروف كبير يأتى إلى عن طريق البريد، ففحصته لأجد مقالى مع رد توجيهى من الأستاذ الكبير محمد فريد وجدى رئيس تحرير مجلة الأزهر، وخلاصته أنه سر كثير السرور لاتجاهى الادبى الحميد، وهو لذلك يرسل ثلاثة من مؤلفاته العلمية هدية لى، ولكنه يلفتنى إلى شئ هام، هو أن المقال الاسلامى ليس ذكرا للأحداث المدونة كما جاءت فى صحف التاريخ، ولكن الكاتب المعاصر يتخذ من هذه الأحداث مجالا للتحليل والتعليل والاستنباط، ليضيف الجديد إلى المتعارف، وذلك لا يتأتى إلا بعد مران شاق فى الاطلاع والنظر والمقارنة! قرأت خطاب الأستاذ فعجبت لتسرعى، وعلمت أن مقال غزوة بدر لو أرسل إلى مجلة الأزهر ما ارتضى الأستاذ وجدى نشره، وكان سرورى بمؤلفاته المهداة قد جاوز حد الوصف فحرصت على تجليدها مع الهداء، ولكن الزمن لا يبقى على شئ!

طلاب أدباء

وأنا أتساءل كم من رؤساء التحرير الآن يصنعون صنيع الأستاذ

وجدى؟ مع انتشار المجالات فى كل قطر عربى إلى حد الاتخام؛ ولعل الأوفق أن يكون السؤال: كم من رؤساء التحرير الذين يصدرون المجالات المصقولة الأنيقة المعتزة بالمظهر فحسب من يماثل الأستاذ فريد وجدى!

على أنى لم أحرم فى المرحلة الابتدائية من موقف شد من عضدى، فقد أرسلت تعليقا أدبيا لمجلة الرسالة على مقال لأستاذ كبير فنشره الأستاذ الزيات دون إبطاء، نشره بالعدد الصادر فى ٢٢ يناير سنة ١٩٤٠م وكان للتعليق المتواضع دوى بالمعهد الدينى، حيث لفت أنظار الأساتذة إلى، وفيهم من دعانى إلى زيارته بمنزله مشجعا وهو الأستاذ محمد عمر الذى رثاه صديقه الأستاذ طاهر أبو فاشا بقصيدة ممتازة فى ديوان (راهب الليل) فقام بما لم أقم به نحو الراحل العزيز..

انتقلت من دمياط إلى المعهد الثانوى بالقزايق ، فرأيت المجال أرحب وأفسح لأن طلاب القسم الثانوى إذ ذاك كانوا أدياء كتابا وشعراء وخطباء، ولهم فى الجمعيات الدينية وأندية الأحزاب السياسية صولات أسبوعية تستدعى الانتباه وكان من المألوف أن يصدر الطالب الناشئ ديوانا شعريا يجمع ما قال من القصائد فى المناسبات، والطريقة سهلة مريحة، لأنه يطبع إيصالات تبلغ الخمسمائة. ويفرقها

على الطلاب كل إيصال بقرشين أو ثلاثة قروش على الأكثر، وفي إحدى مطابع الزقازيق المتواضعة يتم الطبع ورقة ورقة حتى يكتمل الديوان، فيجلد ويوزع على المشتركين، ومن المؤلف حينئذ أن نرى في الصفحات الأخيرة سيلا من تقريظ الزملاء شعرا ونثرا ويبتدىء بالثناء على (أمير البيان) أو (بلبل العصر) أو (خليفة شوقي)؛ وأكثر من يبرحون الكليات الآن لا يقرأون بيتا شعريا صحيحا، فإذا كان طلبة الجيل الماضي بالمعاهد الثانوية شعراء يأتون بالصحيح المستقيم، فذلك لا يعدم مجال الموازنة بين ماضٍ مزدهر وحاضر جديب.

لم أشأ أن أشارك في حركة التأليف عن هذه السبيل، بل رأيت أن أراسل الصحف بما أنظم، فإذا سهل النشر فهي شهادة لى، وإذا صعب فعلى أن أسمى مجدا متقنا، وقد سهل الله أمر النشر دون توقع، فقد كنت قرأت كتابا قيما تحت عنوان (محمد المثل الكامل) للأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك من كبار رجال التربية والتعليم فوجدته يفي بما قاله الأستاذ محمد فريد وجدى فى خطابه إلى إذ يتبع كل حادث بالتحليل والاستنباط، كما كان المؤلف أسدا هصورا فى مواجهة مفتريات الخصوم إذ يدحضها بسيف لا يقل، ويمنطق لا يدفع، ثم قرأت نعيه فى الصحف فتأثرت تأثيرا شديدا واندفعت أرثيه تلقائيا بقصيدة مطلعها:

حن الليث عرينه
ما عسى يجدى حنينه
كلما ظن لقاء
عاجلا خابت ظنونيه
كم غدا يسأل عنه
أين ساقته منونه؟
فإذا لم يلف ردا
شافيا هاجت شجونيه
وبادرت بإرسالها لمجلة (الإخوان المسلمون) الأسبوعية ونشرها
الأستاذ صالح عشاوى رحمه الله فور وصولها.

تنافس أدبي

مضت أيام الزقازيق، وذهبت إلى القاهرة طالبا بكلية اللغة العربية،
ووافق ذلك انتمائي إلى مجلتي الرسالة والثقافة كاتباً وشاعراً، والمجلتان
- والرسالة بالذات - مهوى طلاب الأزهر، فانتشر لى بالكلية ذكر حميد،
حيث عرفنى الطلاب، وشجعنى الأساتذة تشجيعاً لم أكن أتوقعه، وأذكر
أن أستاذى الكبير أحمد شفيع السيد أستاذ الأدب المعاصر بالكلية كان
يكلفنى بأن أعد بعض الدروس وألقيها لزملائى، وهو يسمع ناقدًا، مما
دعا بعض الزملاء إلى احتذائى فأوجد حركة أدبية بين المتنافسين عادت

بالأثر الحميد، كما أن عميد الكلية فى بعض سنواتها كان فضيلة الأستاذ الكبير ابراهيم الجيالى، وهو عضو هيئة كبار العلماء، ومن سار لهم ذكر فى مجال التفسير القرآنى إذ كان يتولى تحرير باب التفسير بمجلة الأزهر تسع سنوات، فصدر عن ذاتية ممتازة فى الاتجاه، وتعمق دقيق فى الرأى، وسلامة رائقة فى التعبير، حتى صار التفسير نموذجا من نماذج البيان، هذا الرجل الكبير كان لا يسمح لطالب أن يتأخر يوما واحدا بون عذر يفحصه شخصا ويقتنع به، وكان من عادته أن يتقدم إليه الطالب مبديا عذره، ليتعرض لامتحان علمى فى بعض المقررات، فإن أجاب فعذره مقبول، وإلا فلا سبيل إلى الاعتذار، وقد كتب لى والدى ذات يوم أنه سيحضر إلى القاهرة فى موعد حدده، وعلى أن أكون فى استقباله بباب الحديد، فرأيت أن أذهب للأستاذ معتذرا عن التأخير، وكان مجلسه ساعتئذ عامراً بالأساتذة فتطلع إلى، وسألنى أن أجلس لأعرب له قول الفرزدق:

وكسل رفيقى كل رحل وإن هما

تعاطى القنا قوما هما أخوان

وكان من حظى أن أحيط بالبيت من قبل، فابتسمت وقلت: ياسيدى سأعرب البيت كما تود، ولكنى سأسألك بدورى عن قائله، وعن مناسبته وعن أحد الأئمة الذى أخطأ فى إعرابه من كبار النحاة، فانتلق

وجه الشيخ بالنور. كأنه يستمع إلى بشرى سعيدة، وقال الله أكبر يا بنى، ما دمت تعرف أن ابن هشام قد أخطأ في اعرابه في كتاب المغنى فأنت على علم به . أما القائل وأما المناسبة فأنا لا أعرفهما؛ لقد جئت بأبدة، لقد جئت بأبدة!! وكان الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بين السامعين فقال للشيخ: إن الطالب من كتاب مجلة الرسالة، فنهض الرجل من مكانه محيياً وقال: إذهب كما شئت دون اعتذار، لأننى أحرص على حضور المتعلمين لا العلماء

هذه واحدة، أما الثانية فقد قابلنى أحد الأساتذة، وقال لى إن الشيخ الجيالى يرغب أن تزوره فى منزله فى أى يوم تريد. بعد صلاة العشاء، فقلت: ومن أنا، حتى أشغل الرجل الكبير بلقائى؟ فقال هو الذى طلب فلا تبطئ؛ وقد سعدت بما سئمت ، وسارعت إلى لقاء الرجل ، فرأيتة يجلس على السجادة بأرض الحجرة وكان قد فرغ من صلاة العشاء فدعانى إلى الجلوس معه، وكأنا فى مسجد، ودار حديث رقيق سجلته فى بعض مقالاتى، وأهم ما به حديثه عن زيارته للهند مبعوثاً على رأس بعثة أزهريه لاستطلاع حالة المنبوذين، وزيارته أكثر من خمسين مدرسة وجمعية هناك، واستقبال البعثة الأزهريه بأسمى مظاهر الترحيب، وقد عقد لقاءات مع الزعيم الكبير محمد على جناح والشاعر الفيلسوف محمد إقبال. وكان يعانى من مرضه الأخير، ولكن الشاعر

العظيم تحامل على نفسه فتحدث أكثر من ساعتين عن تحامل الانجليز على المسلمين وانتصارهم للهنداكة وتقديهم عليهم فى أرقى الوظائف وقد حدثنا عن غاندى ونهرو بأشياء لم تكن نعلم عنها شيئاً إذ إنها تخالف ما تذيبه الصحف المصرية عن تسامح الزعيمين. وهما عنصران كبيران، كما صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المصلين بالعربية التى يعشقونها، لقد كانت جلسة الأستاذ على السجادة، واسترساله فى الحديث عن المسلمين بالهند أنفس ما سمعت، ولم تكن الباكستان حينئذ قد خرجت إلى الوجود ، ولكنها أصبحت كيانا مستقلا بعد رحلة البعثة الأزهرية بسنوات!

القاهرة وكبار الأدباء

كانت سنوات القاهرة بالنسبة إلى وسيلة للتعرف بأدباء كبار سمعت عنهم، ورأيت بعضهم، وحفظت آثارهم من قبل، ومن أبرزهم الأستاذ محمد فريد وجدى والأستاذ محمد الخضر حسين، والأستاذ أحمد حسن الزيات والأستاذ أحمد أمين والأستاذ محمود تيمور، وكلهم علم فى بابه، ومنهم من هو علم الأعلام.

أما الأستاذ محمد فريد وجدى، فقد هرعت إلى لقائه بمجلة الأزهر إذ كان رئيسا لتحريرها، فاستقبلنى مشجعا حين ذكرته بخطابه السابق، ويموافاته التى تفضل بإهدائها، وكنت قد قابلت موظفا ببيد

قربة بالدقهبية تدعى (إخطاب) فعرض على أكثر من عشر رسائل علمية كتبها له الأستاذ وجدى، وكل رسالة تضم مقالة علمية ذات صفحات، فتعجبت أن يخص الأستاذ هذا الموظف برسائل علمية دون أن يشرك معه الجمهور فيذيعها على الناس فى مجلة أو فى كتاب! فحانت المناسبة لسؤاله عن هذا الاتجاه، فقال لى الأستاذ فى هدوء باسم، لقد كتبت بمجلة الأزهر مقالا عن الاسلام والمسيحية، فأرسل لى هذا الرجل ردا مليئا بالأخطاء العلمية، وخفت أن أنشره معقبا بدحضه فيحدث بين إخواننا المسيحيين بلبله لا أريدها، وخشيت أن أهمله فأعد ساكتا عن تصحيح الخطأ، فرأيت أن أفند أقواله فى خطاب خاص أرسلته إليه ولكنه رد فى إسهاب، وفتح لى مجال التصويب، وكلما رددت أخذ يعقب ووجدت من الأمانة أن أرد حتى بلغت الرسائل عشرةا كما ذكرت، فعجزت!! عجزت! هكذا قالها الأستاذ المتواضع، قلت: ولكن هذا جهد صامت لا يعرفه أحد، فقال الأستاذ الصامتون كثير لقد كان الأستاذ الشيخ محمد بخيت الطيمى بعد اعتزاله الإفتاء الرسمى لبلوغ المعاش يتلقى الرسائل من شتى بلاد الإسلام فيجيب عنها على الفور، ويرسلها بالبريد خاصة بالمستفتى، وبعض الإجابات تصل إلى سبع صفحات فأكثر إذا أتيت لى أن أطلع على إحداها حين اختلف بعض العلماء فى مسألة «التشريح» ، واستند كاتب ما إلى فتوى الشيخ التى أرسلها إليه

فى خطاب خاص، وعرضها على ' ولو جمعت فتاوى الشيخ على مدى
عشرين عاماً بعد المعاش لبلغت عدة أجزاء! ولن يضيع ثوابها عند الله!
كان حديث الرجل يملأ نفسى. وأنا أذكره الآن حين أرى من يتخاصمون
على مكافأة جلسة رسمية لم يقولوا فيها شيئاً ولكنهم حضروا، فلا بد من
أن تملأ الاستعارات"

ذكرىاتى مع الأديب

أما الأستاذ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر فيما بعد) فقد
تشبعت بمقالاته وبحوثه العلمية قبل أن أراه، وكلها قوى محكم، وهو
من نوى الثقافة الشاملة المحيطة بحيث يعد إماماً فى عدة فروع مختلفة
كالشريعة والعقيدة وعلوم الأدب والتاريخ، وحين شرفت بلقائه وجدته
صامتاً، حديثه همس أو كالههمس، فهو فصيح القلم، وليس محدث
جمهور، ومن طرائفى معه أنى توجهت مرة إلى مقر جمعية الهداية
الإسلامية، وكان رئيساً لها فوجدت معه شيخاً وقوراً مهيباً، عرفت أنه
الأستاذ العلامة الشيخ عبد القادر المغربى نائب رئيس المجمع العلمى
بدمشق، وتلميذ جمال الدين الأفغانى، فاستمعت إلى العالمين الكبيرين
يتناقشان فى تفسير حديث الرسول «إن منكم محدثين وإن منهم عمر بن
الخطاب» فناقض المغربى فى ترجيع كلمة (محدث) على أنها اسم
مفعول، ورأى الشيخ الخضر أنها محدث على أنها اسم فاعل، وصال

دليل على دليل، وزاحم ترجيح ترجيحاً، وأنا صامت اسمع ولا أستطيع أن أتكم، فوجدت العلامة المغربى ينظر إلى فى ابتسام ويقول. أئ رأىين ترجع فقلت عجلاً: معاذ الله يا سيدى؛ أيتناقش الخضر والمغربى فى الحديث واللغة، وأكون أنا مرجع الترجيح؟ أنا الاسكندرى؟! أنا حسين والى؟! أنا طالب بكلية اللغة، فريت الرجل بيده على كتفى، وقال مبتسماً: من يدري ، قد تكون؟

ومجالس الأستاذ الزيات بالرسالة لا تنسى فقد كانت ندوات حافلة بأئمة من أهل الفضل فى العالم العربى، وبها عرفت الأستاذ ساطع الحصرى والأستاذ محمد إسعاف النشاشيبي والأستاذ على الطنطاوى والأستاذ روفائيل بطى، والأستاذ محمد البشير الابراهيمى من كبار المفكرين فى العالم العربى.

أما الأستاذ أحمد أمين فمن ذكرياتى معه أنى كتبت بحثاً عن المؤرخ الكبير جرجى زيدان، ودفعت به إلى مجلة الثقافة. وانتظرت قرابة شهر فلم ينشر، فتوجهت للسؤال عنه فأسعدنى أن يكون الأستاذ الكبير بإدارة المجلة فسألته فى خشية، فأشرق الابتسام على وجهه، وقال لى أنا احتفظ بالمقال حتى تأتى لتزيد فيه سطرين، فأنت وازنت بين مسلك الشيخ الخضرى فى التأليف التاريخى، ومسلك الأستاذ جرجى زيدان، فقضيت بأن مسلك صاحب الهلال أعم وأوسع دائرة من مسلك الشيخ

الخضري، حيث تحدث زيدان عن سائر نواحي التمدن الحضارى فى الإسلام، واقتصر الخضري على القليل، وكان عليك أن تضيف إلى قولك أن الخضري كان مقيدا بمنهج دراسى مقرر على طلبة مدرسة القضاء فليس له أن يتسع أما زيدان فيكتب كما يشاء دون أن يتقيد بمنهج دراسى كالخضري وفى استطاعته أن يجارى زيدان فيما انتحاه!! قلت، لِمَ لَمْ تعقب الثقافة بسطور قليلة تكشف هذه الناحية، قال الأستاذ أضف أنت ما سمعت، فذلك أفضل! وكتبت سطرين أضفتهما فى حضرة الأستاذ وخرجت متعجبا من دقة الرجل، وحرصه على أن يكون الكاتب وحده صاحب رأى دون أن يفاجأ بزيادة ليست فى باله! أليست هذه هى الأمانة؟

بقى حديثى عن الأستاذ محمود تيمور، وقد كان البادئ بمراسلتى تفضلا، لأنى نشرت بمجلة الكتاب (ابريل - ١٩٤٨) بحثا تاريخيا ضافيا عن والده العلامة أحمد تيمور، إذ كان الأستاذ محب الدين الخطيب دائم الحديث عن جهوده الصادقة فى خدمة الاسلام والتراث العربى فشغفت باتجاهه، وتتبع ما نشر من مؤلفاته، واندفعت إلى كتابة هذا الفصل عنه، وبعد ظهور المقال، رأيت طردا كبيرا يحمل أكثر مؤلفات الاستاذ محمود تيمور، وعلى كل مؤلف إهداء كريم عاطف، مع خطاب رقيق يثنى على ما كتبت فى مجلة الكتاب ويدعونى إلى لقاء

الكاتب الفنان، فكان ذلك مصدر سعادة لى، ومن الطريف أن مجلة الكتاب أرسلت لى شيكا بمبلغ قدره ثلاثة جنيهاً، ولم أكن أعرف أن المقال يؤجر وأننى أستحق قليلاً أو كثيراً على ما كتبت، فلما وصلنى الخطاب المرفق بالشيك، أخذت أعرضه على معارفى مباهاياً، وأذكر أنى قلت لوالدتى إننى تسلمت ثلاثة جنيهاً مكافأة على مقال أدبى، فقالت: اكتب دائماً لتنتشر وتكسب! فقلت فى نفسى، أما الكتابة الدائمة فسهلة، وأما النشر والكسب فقد أجاب عنهما أبو العلاء حين قال:

فيا دارها بالحرز إن فرارها

قريب، ولكن دون ذلك أهوال

ولن أترك حديث القاهرة دون أن أشير إلى اتصالى بالدكتور زكى مبارك، وكان فى آخر مراحل حياته الحرجة، هذه المرحلة التى أثر فيها الصراحة الكاشفة والفاضة أحياناً - فقد كان يكتب مقالات (الحديث ذو شجون) فى البلاغ على نحو غير المعهود فى أحاديث مجلة الرسالة إذ كان الزيات يحذف من شطحاته ما لا يليق، أما البلاغ فقد اتسعت أنهاره لمهاجمة أدباء كبار وصفهم الدكتور بالانحطاط والجهل والملق، والرجل معذور بينه وبين نفسه، إذ رأى أنه لم ينل بعض ما يستحق على حين وصل تلاميذه إلى القمة، وبقي فى السفح، فلجأ إلى الشراب كى ينسى، فى هذه الآونة كثر ترددى على مجلسه فى جريدة البلاغ، وقد

طلبت منه أن يعرفنى بالشاعر الكبير الأستاذ خليل مطران إذ لا أجد السبيل إلى لقائه مع أنى مولى بفتنه، وقد حفظت أكثر ديوانه عن هوى شديد، وكان الشاعر الكبير فى أخريات أيامه ينزل بأحد مستشفيات حلوان ليرد عينا من عيون الماء بها، قيل إنها تعوق انتشار الداء، فاستجاب الدكتور مبارك لرجائى وصحبنى لزيارة الشاعر الكبير، وقد دهشت حين وجدته كما قال بشار:

إن فى بردى جسما ناحلا

لوتوكت عليه لا نهدم
على أنه سر كثيرا حين علم أن أزهرىا ناشئا مثلى يحفظ ديوانه، ويجعله شاعره المفضل، وقد طلبت أن أسمعه بعض ما نظمت، فقرأت قصيدة ظننتها ستحوز قبوله إذ كانت مما نشرته لى مجلة الرسالة، ولكن الرجل الصادق قال لى بإخلاص، أنت تملك النول الجيد، وعليك أن تبحث عن النسيج الممتاز، فالشاعر لا يعبر عن العواطف العامة قدر ما يلتفت إلى الخوافى الكامنة فى مطاوى الأحاسيس، وحين شاهد وجومى، قال: لا بأس، أنت مثل الكثيرين من المشهورين، وأريدك أن تكون سباقا مرفرفا على هؤلاء ! وإذن فقد صدقتى الرجل حين محضنى النصح، ومن يومها بدا لى أن أتند ولا أتسرع فكانت جلسة واحدة بآلف.

انتهت دراستى بكلية اللغة العربية وانتقلت إلى معهد التربية العالى بالاسكندرية، ففوجئت بعلوم جديدة لا عهد لى بها، يقوم على تدريسها أساتذة من حملة الدكتوراه من أرقى جامعات الغرب، يشرحون لنا علوم النفس والتربية والاجتماع والصحة النفسية، ولكن هؤلاء الكبار ليسوا فى مستوى واحد ففهم الناقل المردد، المتباهى بالمصطلحات العلمية فى علوم النفس والتربية دون أن يسوقها مساق الدارس المستوعب، وفيهم من خلط جوارحه بالمادة بعد أن هضمها هضمًا ممتازًا، وأضاق إليها تجاربه الخاصة فى الحياة ثم ساقها مساق الشراب الصافى الهنىء .

وكانت الاسكندرية تضم نخبة من الأدباء ، يكتبون فى الصفحة الأدبية التى تصدر يوم السبت فى جريدة البصير، وهى جريدة تهتم بالشئون المالية وتتحدث عن أعمال البورصة والبنوك والغرفة التجارية، ولكن صحيفة الأدب فى يوم السبت ذات صدق حى بين أدباء الثغر، ويقوم على تحريرها الكاتب الكبير الأستاذ صديق شيبوب، فحرصت على لقائه، ووجدته على قدر هائل من الثقافة الرفيعة، ومن قبل قرأت له فصولا بارعة فى الثقافة والرسالة. والمقتطف والكتاب، فحدثته عنها، فكانت مفاجأة لى أن أنكر علمه بنشرها فى هذه المجالات، وحكى لى أنه لم يكتب فى غير البصير، ولكن من تتحدث عن مؤلفاتهم من أمثال بشر

فارس ومحمود تيمور وحبيب الزحلاوى وعبد الرحمن بدوى لا يقنعون بجريدة البصير فينقلون كلامه إلى صحف مختلفة، ولم يشأ أن يعاتبهم فقد أدى دوره المتواضع فى صحيفته الإقليمية دون ضجيج ! كم أثر فى نفسى هذا التصوف المجرد عن عوامل الاستعلاء والذيعر! كما أثر فى نفسى أن تحتجب ثمرات هذا القلم الثرى فى أخيق مكان! ثم تاکدت صلتى به حتى لقى ربه فى هدوء صامت كعهده فى الحياة.

إلى هنا انتهى دور التكوين الرسمى فى معاهد التعليم، حيث استقبلت الحياة مدرسا لأستقبل تكويننا آخر ذاتيا، وليس لى أن أخذ من صفحات الهلال أكثر مما أخذت، فحسبى أن أشير إلى الخطوات الأولى، وفى رأى أنها حددت مسارى المتواضع فى درب الحياة! وياله من درب مديد...

دكتورة عائشة عبد الرحمن «بنت الشاطئ»

علاقتى بالنهر وبالقرية شككت وجدانى

ألتفت إلى الوراء أحاول بنظرة سريعة أن أختزل تلك الرحلة الطويلة التى قطعتها ، فأستجلى خلاصة عمر كامل فى صفحات قليلة ١. كان العلم هو القيمة الأساسية التى أثرت فى تكوينى منذ الطفولة المبكرة ووجهت خطاى ، تعاقبت على المراحل ، كل منها تسلمنى إلى أخرى ، وتعددت معها سبل العلم ومصادره وشيوخه، لكن تعلقى به لم يفتر قط ٢ واستزدت منه حتى انتقلت من مقعد المتعلم إلى منصة المعلم ، لكن يقينى لم يتغير بأن طريق العلم لا نهاية له وأن العالم يظل مرجوا مادام بقى له شعوره بالقصور وإدراكه لمشاق الطريق ٣. وقد وعى الإمام مالك بن أنس من وصية شيخه هرمز قوله ٤ «ينبغى أن يورث العالم جلساءه قول : لا أدرى ، فإن العالم إذا أخطأ لا أدرى أصيب مقاتله» ٥.

أنا ربيبة شيوخ ، ولى نسب فى الشيوخ عريق .

فأبى عالم متصوف هو الشيخ القدوة محمد على عبدالرحمن ، وأمى
هى السيدة فريدة عبدالسلام منتصر حفيدة الشيخ إبراهيم الدهوجى
الذى كان شيخا للجامع الأزهر ، سمانى أبى «عائشة» تفاؤلا باسم أم
المؤمنين رضى الله عنها ، واختار لى كنية «أم الخير» ووهبنى للعلم منذ
وضعتنى أمى فى المهد .

بدأت أعى خطواتى على الدرب على شط النيل بمدينة دمياط . كان
شاطئ النهر ملعب الطفولة وملتقى الرفاق ، وكان كما علمت فيما بعد ،
شاهدا على مأساة أسرية سبقت مولدى إذ لقيت جدتى لأمى مصرعها
غريقة فيه وتركت فى قلب ابنتها «أمى» ووالديها لوعة لم تنقضى أبدا وفى
تلك المرحلة المبكرة ، بدأت أيضا علاقتى بالريف المصرى . لقد كنا ننقل
كل صيف من مدينة دمياط ، حيث كان أبى شيخا بالمعهد الدينى ، إلى
قريته شبرابخوم من ريف المنوفية لنقضى إجازة الصيف .

ولا أشك فى أن علاقتى المبكرة بالنهر وبالقرية كانت ملمحا مهما فى
تشكيل وجدانى وزاد نهلت منه فى مراحل متقدمة من العمر والخبرة
عندما كتبت أعمالى المختلفة عن القرية والفلاح وبيئة الصيادين .

بداية الطريق

ببلوغى العام الخامس من عمرى ، بدأ والدى الشيخ تلقينى المبادئ

الأولية لعلوم العربية والإسلام ، وفاء بنذره القديم ، وكنت أصحبه إلى مكتبه فى جامع البحر حيث أعكف على حفظ ما لقننى من دروس أثناء انشغاله بالتدريس ، أما فى عطلات الصيف فقد أتممت حفظ القرآن فى كتاب القرية .

عندما بلغت سن الالتحاق بالمدرسة الأولية ، فوجئت برفض أبى التحاقى بها أسوة بزميلاتى ، وكان رده حاسما : « ليس لبنات المشايخ العلماء أن يخرجن إلى المدارس الحديثة ، وإنما يتعلمن فى بيوتهن » تدخل جد أمى عندئذ فى الأمر وظل يلح على والدى فى قبول التحاقى بالمدرسة حتى خضع أخيرا ، ولكن بشروط ، أهمها متابعة دروسى الدينية فى البيت ، والانقطاع نهائيا عن الخروج إلى المدرسة بمجرد أن أشارك سن البلوغ .

دخلت المدرسة ، بعد طول عناء ، وقد انتهت السنة الدراسة وهكذا جلست فى يومى الأول بالمدرسة أؤدى مع زميلاتى امتحان النقل للسنة الثانية بمدرسة اللوزى الأميرية للبنات بدمياط !. مرت بى الأيام سريعا ، وأنا أجمع بين دراستى فى المنزل وتعليم المدرسة مع الحرص على تلافى أى نقصير فى دراستى المنزلية حتى لا يتسبب ذلك فى حرمانى من المدرسة ، وقد سهل لى ذلك أن علومى المدرسية لم تكن تكلفنى أى جهد بعد ما تلقيت من علوم على يد الوالد وزملائه المشايخ .

وقد ظلت نفسى ، وما كانت إلا طفلة ، يتجاذبها حب العلم من ناحية
والرغبة فى الانطلاق والنهوض من ناحية أخرى ، حتى قبض الله لى ما ثبت
قبنى على طريق العالم ' فقد حدث أثناء دراستى بالفرقة الثالثة ، أن
دخل مصنف معنش ليمتحننا فيما نحفظ من القرآن الكريم ، وحين بدا
ضيقه بتعثّر الرميلات اقترحت الناظرة السيدة «زينب الحناوى» أن
يقرئنى شيئاً مما أحفظ . وقد أصفى الرجل إلى قراعتى فدعا لى ثم
انصرف راخبيا

ملاك من السماء

وفى تلك الليلة وأيتنى فى المنام جالسة فى مقعدى بحجرة الدراسة ،
وإذا بملاك مجنح يهبط من السماء قرب النافذة المجاورة ويعطينى
مصحفا شريفا فى لفاقة خضراء ، أيقنت بعد ذلك الحلم، الرؤيا بمنطق
والدى المتصوف ، أيقنت أن حياتى كلها ستكون مرتبطة بالمصحف
الشريف ومنذ ذلك اليوم ، لم أعد أتخلف عن مجلس الشيوخ
والعلماء ، بل صرت أحاول أن أسبق عمرى فى دراسة علوم العربية
والإسلام .

أنهيت ، على مضض من والدى ، دراستى فى المدرسة الأولية ثم
الراقية ، وكدت استسلم لضرورة حجزى فى البيت ، إذ كنت قد بلغت
الثالثة عشرة من عمرى ، لولا أن ظفرت لى أُمى ، بعد بدء الدراسة

بشهرين ، بالإذن فى التعليم ممن لايمك والذى أن يعصى له أمرا ، وهو إمامه فى التصوف وقدوته الشيخ «منصور هيكال الشرقاوى» . واستقر بى الحال ، بعد عناء فى مدرسة المعلمات بطنطا ، القسم الداخلى ، حيث أدت امتحان السنة الثانية ، إذ كان يسمح لمن أتممن التعليم بالمدرسة الراقية أن يلتحقن بالسنة الثانية معلمات مباشرة !

أظنه واجبا على أن يؤكد على أهمية الدور الذى قامت به أمى فى مؤازرتى فى تلك المرحلة . لقد كدت غير مرة استسلم لراحة اليأس ، فكانت تلك السيدة البسيطة العظيمة ، رحمها الله ، تأبى إلا أن تدفعنى دفعة تعبر بى من راحة اليأس إلى تعب المجاهدة لتحقيق آمالى !

حنان الأمومة ودفعة للأمام

هل كان حنان الأمومة هو الذى يدفعها إلى مساعدتى وهى ترانى أنوى وأنا أرقب انهيار آمالى ؟ أم تراها كانت تستشف أننى ساكون واحدة من الجيل الذى يشهد محنة الحيرة بين القديم الذى عرفه والجديد الذى يبيلوه لأول مرة . أم لعلها كانت مسوقة ، مثلما كنت ، بدافع لاراد له لأن تدفعنى إلى الطريق الآخر الذى لم أكن حتى فكرت فيه !

من ذلك مثلا أنه عندما أوصدت مدرسة المنصورة للمعلمات بابها لى ، أدهشنى أن أمى لم تعد بى إلى دمياط ريثما تدبر أمرها ، وإنما

انطلقت تبيع سوارا ذهبيا كانت تتزين به وقطعت لنا تذكرتى سفر إلى القاهرة بحثا عن مكان لى بمدرسة المعلمات بحلوان !

أما عندما أصر والدى ، فى عطلة ذلك الصيف ، على ردى إلى طريقى الذى حدث عنه ، فقد كادت تعرض بيتنا للانهيـار وهى تحاول النود عن طموحى ! ورغم أننى رضخت لأوامر الوالد فقد رحت ألتمس منفذا أطمئنتها به إلى أن كل ما احتملناه فى الشوط الفائت ، لم يذهب عبثا .

ولم يكن من منفذ إلا أن أستعير الكتب المدرسية المقررة على طالبات السنة النهائية بمدارس المعلمات ، حيث عكفت على تحصيلها ، ثم تسلت من البيت ، وأبى غائب عن المدينة فأديت امتحان شهادة الكفاءة للمعلمات أمام لجنة مدرسة طنطا ، وخرجت منه - وأنا الوحيدة التى تقدمت إليه من المنزل - أولى الناجحات فى القطر كله ، بفارق مائة وثلاثين درجة فى المجموع ، عن الطالبة التى تلىنى فى ترتيب النجاح !

وفى ذلك الامتحان لاحت لى ، لأول مرة ، بداية ذلك الطريق الآخر الذى لم أكن قط تمثلته أو رنوت إليه ، وهو طريق الجامعة !

لقد أعجب الاساتذة الممتحنون بتلاوتى للسور القرآنية وإنشادى . لأبيات من شعر الجاهلية وأخرى من صدر الإسلام وأخيرا قصائد من

نظمى أنا ، بعدها نصحونى بالعدول عن طريق شهادة المعلمات إلى طريق الجامعة ! وبدا لى ذلك شططا فى التفكير ، فما سمعت فى بيتنى عن الجامعة إلا كلمات مبهمه ترجمها بالزيف والضلال ، ولا تصورت أن هناك علوما أخرى غير تلك التى أتلقاها على مناهج الأزهر ، ثم إن الدراسة بالجامعة تحتاج إلى زاد من اللغتين الانجليزية والفرنسية وهو ما ليس لى به علم !

عودة إلى أول الطريق

قرر أبى ، نزولا على نصيحة شيخه وزملائه ، أن يتسركنى أجرب مهنة التدريس ، على أمل أن أزهد فيها وأتركها باختياري!

واخترت أنا أن أعمل فى مدرسة البنات الملحقه بمعلمات المنصورة حتى ابتعد عن جو بيتنا المشحون بالضباب والدخان ، ومن ثم أستطيع أن أجد فى تحصيل المنهج المقرر على القسم الإضافى للمعلمات وهو نهاية الشوط للتعليم الأولى الذى بدأته .

وفى المنصورة توزع الوقت بين التدريس والتحصيل ، أما ساعات الترويح فإننى أدين بفضل كبير لمكتبة «السروى» التى هيات لى أن أقرأ فيها مجموعة كبيرة من الكتب المتنوعة فى بيتنى! وهكذا قرأت ، نظير

قروش قليلة ، بنظام الاستعارة ، كل كتب المنفلوطى المؤلفة والمترجمة ، وكل روايات تاريخ الإسلام لجرى زيدان ، وجمهورية أفلاطون ترجمة حنا خباز ، وأيام الدكتور طه حسين والإلياذة والأوديسة ترجمة البستاني وألف ليلة وليلة .. وغيرها .

خاب أملى فى اجتياز امتحان القسم الإضافى لمدرسة المعلمات إذ إن اللوائح تغيرت فمنعت التقدم لذلك الامتحان من المنزل ، عندئذ اصطحبنى صديق الوالد ، الشيخ موسى قمر الاستاذ بدار العلوم آنذاك ، محاولا التماس استثنائى من تلك اللائحة بسبب أوليتى فى كفاءة المعلمات . لكن السيد مراقب تعليم البنات اعتذر ، واقترح على أن أتقدم لامتحان الشهادة الابتدائية ! وبسرعة ملأت استمارة التقديم ، ثم تم نقلى من المنصورة إلى إحدى المدارس بحى السيدة زينب بالقاهرة ، قريبا من منزل الشيخ موسى قمر حيث سأقيم وأراجع الدروس المقررة على .

وهكذا وجدتنى ، بدون تعمد منى ، على بداية ذلك الطريق الذى لم أتصور نفسى أبدا سائرة فيه وهو طريق الجامعة !

الوضع التعليمى يدعم الطبقة

ولم ألبث أن اكتشفت أن طريقى الأول الذى سرت فيه حتى شارفت نهايته ، يسير فى اتجاه مواز لا يلتقى أبدا مع الطريق الموصل إلى

الجامعة . وقد كان حريا بى ، لولا صغر السن وضالة الخبرة ، أن
ألاحظ أن ذلك الوضع الثنائى للتعليم يدعم الطبقيّة الاجتماعيّة
والاقتصاديّة بطبقية عقلية وفكرية ! فالتعليم الأولى لعامة الشعب ، أما
التعليم الابتدائى الموصل للجامعة فهو وقف على الأغنياء والقادرين
ماديا .

وكان التباين بين المناهج التى درستها من قبل وتلك التى تدرس فى
المدارس الابتدائية والثانوية تباينا شديدا . فلم أكن حتى تلك اللحظة
تعلمت حرفا واحدا من لغة أجنبية ! حتى أننى اضطررت لنقل اسمى
مكتوبا باللغة الأوربية كما ينقل الرسم ، كى أستوفى بيانات استمارة
طلب التقديم للشهادة الابتدائية ، ولم أكن كذلك قد شاهدت أى جهاز
من الأجهزة المعملية التى يجرى عليها التلاميذ دروسهم العملية فى
الطبيعة والكيمياء فى المدارس الحديثة .

أديت امتحان الشهادة الابتدائية فى ذلك العام ، وكانت لى فى
امتحان اللغة الانجليزية قصة لاتتسمى ! كنت أضع أملى كله فى موضوع
الإنشاء المعتمد على كتاب «السندباد البحرى» لكننى ما أن بدأت فى
الكتابة حتى غابت عن ذاكرتى تماما كلمة «نسر» بالانجليزية ، وهى
كلمة أساسية فى الجمل المطلوب كتابتها . ويدا لى أن الله لا يريد لى
المضى فى ذلك الطريق ، وفيما أنا ألقى قلمى فى يأس وقع بصرى على

الكلمة المطلوبة محفورة على قلمى تحت صورة للنسر . وأقبلت على كتابة إجابتى وأنا موقنة أن الله معى .. على الطريق .

وفى العام التالى تقدمت إلى امتحان شهادة الكفاءة الثانوية ، بعد أن استوعبت المناهج المقررة على السنوات الثلاث .

ومرت الامتحانات بسلام فيما عدا امتحان الطبيعة ، سئلت عن خاصية الترمس «بضم التاء» فى حفظ الحرارة ، وقد تصورت أن المقصود هو البقل المعروف فكانت اجابتى بالطبع فكاهة الموسم فى لجان الامتحان ، لكن تلك الفكاهة كشفت لمراقب تعليم البنات عما أكابده من مشقة فأمر بنقلى من وظيفة معلمة ، إلى وظيفة كاتبة بكلية البنات بالجيزة .

وكانت سنواتى فى كلية البنات حافلة بالتجارب والدروس ! أما الدرس الأول فقد تطلب منى أن أغير من مظهرى بعض الشيء كى أصبح أكثر اتساقا مع ذوق المدينة الكبيرة . وهكذا نزعنت من شعرى المشط البراق الذى كان يمسكه وارديت بدلا من ثوبى المزخرف ثوبا قطنيا بسيطا . كذلك تقرر أن أتناول طعامى فى غير المواعيد المحددة للطالبات حتى يتم تدريبى على استعمال أدوات المائدة العصرية ، وكان ذلك أول عهدى بها ! وقد أدهشنى أن علمت أن موظفات الكلية لايدفعن أى أجر لذلك الطعام الفاخر الذى يقدم فى مطعم الكلية الأنيق . وللحق

فقد كانت دهشتى تشويها الحسرة، على أيام عدة عشتها على شطائر الفول والطعمية اشفاقا على نفسى وميزانيتى من ذلك الطعام الفاخر ! ،

علاقتى بالصحافة

وفى تلك المرحلة أيضا بدأت علاقتى المباشرة بالصحافة . إذ كنت فى طفولتى قد اتصلت بها بشكل غير مباشر . كنت عندئذ طفلة ملازمة لجدى الشيخ المقعد ، وكان من مهامى اليومية أن أقرأ له الصحف ثم أكتب مايملى على من رسائل يبعثها إلى الحكام وإلى الصحف فى موضوع تعطل الميناء . وقد أفرحنى أن أرى ماكتبته منشورا فى الصحف فكنت أنفغن فى تجويده قدر طاقتى.

عادوت ، إذن ، اتصالى بالصحافة ، فأرسلت قصيدتى «فى الحنين إلى دمياط» إلى مجلة «النهضة النسائية» التى نشرتها ثم أفسحت صدرها بعد ذلك لتلقى مقالاتى وقصائدى . وقد أغرائنى ذلك أن أرسل قصصى إلى الصحف اليومية وإلى مجلة «الهلال» التى كانت فى ذلك الحين تنتشر لأعلام من كتاب الجيل ، وقد نشرت لى صحيفتا «البلاغ» و«كوكب الشرق» قصصا قصيرة أما مجلة «الهلال» فقد أعادت القصة مع بطاقة اعتذار باسم «اميل زيدان» وفى تلك الفترة ، عندما بدأت النشر فى الصحف اليومية ، بدأت أيضا فى التستر وراء اسم «بنت

الشاطيء» خوفا من أن يحرم على الوالد مكاتبة الصحف إذا علم بذلك .

وأذكر فى هذا السياق ذلك الدرس الذى تعلمته ، ولم أنسه أبدا ، من علاقتى بمجلة «النهضة النسائية» . لقد دعتنى السيدة الحاجة «لبية أحمد» صاحبة المجلة لزيارتها فى دار المجلة ، وشجعتنى حرارة استقبالها على تكرار الزيارة حاملة مقالاتى معى، ثم بدأت السيدة الجليلة تكلفنى بكتابة مقالها الافتتاحى ، وتطور الأمر حتى صرت أتولى عبء المجلة كله نظير أربعة جنيهاً شهرياً . لقد أرضى ذلك التكليف غرورى بالاضافة إلى زيادة مواردى ، لكننى كنت أزيغ ذاتى مقابل ذلك ! كان على أن أنقص شخصية سيدة فى سن جدتى بالاضافة إلى اختلافها عنى فى الطبقة والبيئة والتجربة واستطعت بمشقة بالغة أن أسترده ذاتى ، وتعلمت أن أحرص عليها ! وفيما كنت أمارس هواية الكتابة ، وأحمل عبء عملى فى كلية البنات وفى مجلة «النهضة النسائية» تابعت تحصيل المواد المقررة على طلاب البكالوريا ، وتقدمت للامتحان من المنزل واجتزته فى صيف ١٩٣٤ .

على أبواب الجامعة

لم أجرؤ على الالتحاق بالجامعة كطالبة منتظمة ، فقد كان هذا أكثر مما يمكن لأبى أن يحتمله ، ولم تكن الجامعة تعرف نظام الانتساب

آنذاك ، وفي الوقت ذاته كنت أتعرض لجواذب خارجية مضادة كانت تشدني بعيدا عن الجامعة ، فى بيتنا كان والدى قد نفذ صبره ، وهو لا يكف عن الكلام فى موضوع خطبتى لشاب من أبناء زملائه المشايخ .

وفى مجال عملى ، كانت شهادة البكالوريا قد رفعت وظيفتى إلى سكرتيرة لكلية البنات ، ورفعت راتبى ، أما فى مجال الصحافة فقد نشرت لى جريدة الأهرام ، مقالاتى عن الريف المصرى فى صفحتها الأولى، وزادت على ذلك أن رحبت بى عضوا فى أسرة التحرير .

ورغم ذلك كله ظل قلبى معلقا بالجامعة ! لم أدر وقتها ما الذى يشدنى إليها ، أنا التى لم أضق أبدا بطريقى الأول ولم أنفر منه أو أزهّد فيه ، وإنما على العكس كنت أزهر على غيرى بما حصلته فيه ! لقد حصلت علوم المدارس ، لكن ما من واحدة من طالبات المدارس تستطيع أن تقرأ فقرة واحدة من كتب النحو والبلاغة والتفسير والحديث والفقه ، التى درستها فى بيتنا !

ما الذى دفعنى إذن للوقوف بباب الجامعة لا أبغى عنه حولا ! أعرف الذى بعد أن أصبحت تلك الأيام ماضيا بعيدا ، أعرف أننى ما قطعت ذلك الشوط الطويل على دربى ، إلا لكى ألقاه !

أعرف أن تلك القوة ، التى لاتقاوم التى دفعتنى للخروج عن الطريق الى خطه لى والدى ، إنما كانت تدفعنى إلى حيث ألقاه على طريقه

فيتوحد بعدها بنا الطريق وتصبح قصتنا أسطورة الزمان ، لم تسمع الدنيا بمثلها قبلنا وهيئات أن تتكرر إلى آخر الدهر ! إنه استاذي وشيخي ثم زوجي ووالد أبنائي ، الأستاذ الشيخ أمين الخولى .

قبل أن نلتقى

مضى عام كامل على حصولي على البكالوريا ، قبل أن أقدم أوراقى للدراسة بالجامعة . وقد هون على أن علمت أن تقدير نسبة الحضور اللازمة للنجاح يقررها الاساتذة وليس الإدارة . وفى عامى الأول بها عجزت الجامعة أن تشدنى إليها ! وما كان حصاء ذلك العام إلا عزلة نفسية وفكرية عنها .

فمنهجها المحدث تقدمه تلقينا أليا لاينفذ إلى ما وراء ظاهر السمع ، وعلومها تعرضها إلقاء وترديدا بدون قدرة على التأثير فى الوجدان ، وتفضل أساتذتى الأجلة ومنهم الأستاذ مصطفى السقا والدكتور حسن إبراهيم حسن بإعفائى من حضور محاضراتهم . تقديرا لظروفى . وما إن اجتزت امتحان النقل إلى السنة الثانية ، حتى تصورت أنه لم يبق لكى أصفى حسابى مع هذه الجامعة إلا أن أتعرف على ما عند الأستاذ «أمين الخولى» من علم يتحدانى طلاب قسم اللغة العربية أن أستغنى عن كلمة واحدة منه !

وبدأت عامى الدراسى الثانى وأنا أشد ما أكون ضيقا بالجامعة

ونفورا منها ، لقد استأنفت تلك الجامعة الدراسة بعد مصرع زميلنا الشهيد عبدالحكيم الجراحى برصاص الانجليز عند كوبرى عباس ، وكأن شيئا لم يكن . ولقد فشلت الجامعة فى الدفاع حتى عن الدرجات العلمية التى تمنحها ! وتفصيل ذلك أن البرلمان الوفدى استصدر قانونا يهبط بالحد الأدنى لنسبة النجاح من ٦٠٪ إلى ٥٠٪ على أن يسرى القانون بأثر رجعى . وهكذا انتقل عدد غير قليل من الطلبة الوفديين من ركن الراسبين إلى جماعة الناجحين !

أما على المستوى الشخصى فقد كنت أبدأ عامى الدراسى الثانى وأنا محررة ثابتة فى الصفحة الأولى من جريدة الأهرام التى طبعت لى مجموعة مقالاتى المنشورة بها بين دفتى كتاب عنوانه «الريف المصرى» وكان الكتاب مدخلا لنيلى الجائزة الأولى للمباراة الرسمية لوزارة على ماهر فى موضوع «إصلاح الريف والنهوض بالفلاح» ثم ترتب على ذلك الفوز اختيارى عضوا فى المؤتمر الزراعى الأول مع نخبة من أقطاب الزراعيين . وعن طريق الأهرام أيضا تمت دعوتى لأحاضر على منبر قاعة ايوارت التذكارية . وكان عنوان المحاضرة «واجبنا بعد المعاهدة» والمقصود بالطبع معاهدة ١٩٣٦ ، وكان من مستمعاتى فى تلك القاعة السيدة هدى شعراوى راعية النهضة النسوية فى مصر والتى امتدت علاقتى بها فمحتنتى شعورا بالأمومة الفكرية

والأدبية والاجتماعية وفتحت لى مجال إلقاء المحاضرات على منبر «دار الاتحاد النسائي» .

ودور الأهرام فى تكوينى لم ينحصر فى دفعى إلى بؤرة الحياة العامة ، وإنما امتد إلى إثراء زادى الثقافى والإنسانى ومساعدتى فى توسيع تلك الدائرة المغلقة التى كنت أتصور أن العالم كله ينطوى تحت نطاقها ! لقد جالست فى مكتب رئيس تحرير الأهرام أساتذة كبارا مثل العقاد وطه حسين وزاملت شخصيات ثرية لها أسماء لامعة فى عالم الصحافة مثل كامل النشاوى ، على أمين ، يضاف إلى ذلك أن عملى الصحفى هيا لى أن أقرأ عددا كبيرا من الكتب فى المجالات المختلفة ثم أقوم بتقديمها للقراء .

ثم التقينا

وفى ذكرى يوم مولدى ، فى السادس من نوفمبر ١٩٣٦ ، وأنا على تلك الحال من الاعتزاز بنفسى ، كان ميلادا لى جديدا ، هو لقائى بالأستاذ الإمام أمين الخولى !

لقد جلست أصغى إلى الأستاذ وهو يلقى علينا مبادئ منهجه ، حريصة على ألا تفوتنى كلمة واحدة مما يقول ، فما أزعجتى غير دقائق ساعة الجامعة معلنة عن سير الزمن !

وما أشك للحظة أن ذلك اللقاء بالأستاذ أمين الخولى كان بمثابة

الخطوة الأولى على الطريق الذى قطعت العمر أبحث عنه ، فأما قديمى الذى جئت الجامعة به فقد جلاه منهج الأستاذ فمحنه روح الحياة ونبض العصر ، وأما المعارف التى قدمها لى التعليم المحدث فقد انتقلت من تلك الزاوية المعطلة من ذهنى إلى مجال الوعى والإدراك بتأثير شعورى بالحاجة إلى روافد منها سخية تخصب وجودى الفكرى .

وانتهت المرحلة الجامعية الأولى وبدأت مرحلة الدراسات العليا ، فلم يرض لى استاذى أن أبدأ فى دراسة النص القرآنى حتى أتزوّد بما يكفى من علم فى دراسة النصوص الأدبية ، وهكذا حصلت على رسالة الماجستير عن أبى العلاء المعرى ثم الدكتوراه عن تحقيق لرسالة الففران لأبى العلاء وكانت الرسائلتان على الدكتور طه حسين .

ثم انتهى بى التخصص إلى دراسة النص القرآنى على منهج استاذى وظل الأستاذ الإمام لمدة ثلث قرن يقود خطاى على الطريق الشاق ، ويحمينى من عثرة الرأى ومزالق التأويل وسطحية النظر ، ويأخذنى بضوابط منهجه الدقيق الصارم الذى لايجيز لنا أن نفسر كلمة من كلمات الله تعالى دون استقراء لمواضع ورودها بمختلف صيغها فى الكتاب المحكم ، ولا أن نتناول موضوعا قرآنيا أو ظاهرة من ظواهره الأسلوبية ، دون استيعاب لظواهرها وتدبر سياقها الخاص فى الآية والسورة ، وسياقها العام فى القرآن كله ، ورحل عنى استاذى فى عام

١٩٦٦ ، تاركاً لى ، ولغيرى من الباحثين منهجه المحكم ومنطقه الدقيق اهتدى بهما فى دراساته القرآنية وفى إشرافى على دراسات طلابى بجامعات القاهرة وعين شمس والرياض والقرويين ، وأيضاً فى كتاباتى بجريدة الأهرام ، التى امتدت رحلتى معها منذ عام ١٩٣٥ ، وحتى اليوم .

ومن أستاذى أمين الخولى تعلمت ، فيما تعلمت ، ألا أتعجل الوصول بأبحاثى إلى غايتها ، ولا يزال ملء مسمى قوله لى : «نحن نعيش العمر كله طلاب علم ، كادحين إلى مانستشرف له فى كل خطوة من جديد الآفاق والغايات ، وما من بحث يمكن أن يقول الكلمة الأخيرة فى موضوعه ، وجهد طالب العلم لا يقاس بمدى ما قطعه من أشواط ، وإنما يقاس بسلامة اتجاهه ، ولو لم يقطع سوى خطوة واحدة على الطريق الممتد إلى غير نهاية ولا مدى» .

سهير القلماوى

الريادة فى الأدب

كنت أطلع إلى أن أكون طبيبة فوالدى كان جراحا وكل بنت كنت مفتونة به وكنت أساعده . وأنا لا أزال فى المرحلة الثانوية ، فى عيادته (اسم المريض والمرض ونتيجة السكر والزلال) بالاختبارات البسيطة المعروفة .

وصدمت . بأن لم يكن من مفر لى إلا الدخول فى قسم اللغة العربية بالجامعة المصرية وكان اسمها هكذا لانها الجامعة الوحيدة فى مصر آنذاك .

ولما كان تعليمى قبل الجامعة كله فى كلية البنات الأمريكية (رئيسيس الآن) فقد كنت لا أستطيع أن أنطق بكلمة عربية منذ دخولى المدرسة فى الصباح إلى الانصراف حوالى الرابعة بعد الظهر . لذلك اتقنت الإنجليزية واطلعت على كثير من كتبها بسهولة بسبب هذا .

ولما كانت المدرسة تبشيرية ولم تكن للحكومة آنذاك أية سيطرة على مثل هذه المدارس . حتى أن أبى طلب ألا أصلى معهم فى الكنيسة فرفض طلبه واستمرت لقرب المدرسة من سكنى بالرغم من أن سيارة المدرسة هى التى توصلى فكان أبى حريصا جدا على أن أقرأ معه كثيرا فى القرآن الكريم وفى التفاسير خاصة وكان هناك تفسير جيد مختصر لمحمد فريد وجدى وآخر للزمخشري وكانا هذان التفسيران عند والدى فكنت أقرأ معه فيهما على صعوبة ذلك وناقش الكثير من المسائل .

وفى هذه الفترة وطوال أحد عشر عاما كان علينا فى السنوات الست الأخيرة فى المدرسة أن نقرأ كل عام فى إجازة الصيف راثعتين زائدتا إلى خمس روائع من الأدب .. و نمتحن فيها أول العام الدراسى وكان النجاح شرطا للالتحاق بالفرقة الأعلى . لذلك قرأت روائع الأدب الانجليزى والأمريكى والفرنسى وماترجم إليهما من روائع الأدب الروسى خاصة والأسباني والإيطالى . وكانت القراءة قراءة من سيمتحن فيما قد قرأ . لذلك هويت القراءة منذ سن مبكرة .

واستكملت النقص أو بعض النقص فى العربية حتى ووجهت بضرورة التبحر فيها لأنجح فى قسم اللغة العربية ، الذى استسلمت للالتحاق به وفى تقديرى أنه مجرد قضاء أربع سنوات لأتم الحادية

والعشرين التى اشترط والذى أن أكون قد بلغتها قبل أن أسافر (كما كنت أقدر) لأدرس الطب فى انجلترا وأحقق أحلامي .

وهذا أول وأضخم درس تعلمته . كيف لا أياس ، وكيف أتأقلم مع ماقد فرض علىّ ومما ليس منه بد ، والخيرة – كما يقولون – فيما اختاره الله . المهم أننى لم أكن أَرْضَى إلا أن أكون الأولى على الفرقة أو على أسوأ تقدير الثانية . وساعدنى أساتذتى طه حسين وأحمد أمين وعبد الحميد العبادى وعبد الوهاب عزام وغيرهم ممن أفر إلى اليوم بأنى تتلمذت عليهم وكنت فى غرفة الأساتذة فى القسم أتلقى منهم مايمكن أن أسميه اليوم دروسا خصوصية لأنهم جميعا آمنوا بجديتى وباتساع أفقى ووجدوا فىّ «خامة» طيبة.

تجربتى مع الصحافة والإذاعة

وتخرجت من قسم اللغة العربية الأولى وآخر ماكنت أفكر فيه هو التدريس. ونزلت إلى ميدان الصحافة وهذه عطفة أخرى فى حياتى . وكنت وأنا مازلت طالبة فى السنتين الأخيرتين قد نشرنا لى مقالات فى بعض المجلات «اللطائف» المصورة «العروسة» وأثناء عملى بالصحافة كتبت فى الهلال وفى مجلة «أبولو» للشعر ومجلة الرسالة وأشرفت على صفحة كاملة نسائية فى جريدة «البلاغ» مرة وجريدة «كوكب الشرق» مرة أخرى ولما اشتريت أستاذى طه حسين ترخيص

جريدة الوادى رابطنا كلنا ، تلاميذه فى الجريدة. وإلى جانب الصفحة النسائية كنت مسئولة عن صفحة الأدب التى شاركنى فيها بعض الزملاء .

وكل ذلك لم أكن أتقاضى عنه مليما واحدا لما عرض على أستاذى أحمد أمين خمسة جنيهات فى مقابل ثلاث مقالات فى مجلة الرسالة رفضت لأنى لا أريد أن أكتب بأجر إلا فيما بعد . وكنت أحس أن أكثر الإقبال على طلب أن أكتب فى هذه الصحيفة أو المجلة كان بسبب أننى امرأة ومع ذلك اقبلت على الكتابة .

وفى هذه الفترة أيضا أشرفت على صحيفة «الجامعة المصرية» التى كان رئيس تحريرها طه حسين . ولكن التجربة الحقيقية كانت عند افتتاح محطة الإذاعة سنة ١٩٣٤ وقد اختارونى (الذين جاؤا للإعداد لها) بعد امتحان فى الأصوات أن أذيع حديثا . وكنت الأنسة الوحيدة ولم يكن هناك صوت نسائى آخر إلا صوت مذيعة واحدة (عفاف الرشيدى) . وكانت الإذاعة البريطانية قد افتتحت محطة القاهرة وأخرى فى «أوال» فى البحرين استعدادا للحرب ولبث الأخبار والسيطرة على الإعلام فى العالم العربى .

وكان لمحطة الإذاعة مجلة «الرايوى» التى تنشر البرامج وبعض المقالات المتعلقة بها وتتلقى طلبات المستمعين وتتنظر فى مشاكلهم وقد

اسندوا إلى الجزء العربى (يضع صفحات) من هذه المجلة وكان أجرى عليها وعلى أحاديث الثلاثاء (كل يوم الثلاثاء الثامنة مساء) هو أول أجر أتلقيه على تأليف أدبى أو صحفى . وكان مائة وخمسين قرشا .

كل هذه التجارب تدل على ضرورة انفتاح المؤلف فى بداية رحلته على أنواع كثيرة من التأليف وأن يجرب ويجرب ، جريت الشعر الحر ترجمة وإنشاء فى الرسالة منذ الثلاثينات وكذلك فى مجلة «أبولو» ولكنى لم أخصص فى الشعر وإنما كلها تجارب نافعة وأراها جيدة إلى الآن .

وخاصة أن النقاش والنقد كان كثيرا وميسورا ، وهو مايفتقده شباب اليوم لكثرة المنافذ الثقافية ووسائل الالتقاء بالمتلقى عبر المؤلف الفنى .

هؤلاء علمونى

وجاء المنعطف الثانى الهام فى حياتى وهو التحول من الكتابة فى الصحف والمجلات وهو إغراء يبعث إلى باريس فريدة فى نوعها . فقد كانت تنص على أن ليس المطلوب منى أداء أى امتحان طوال أربع سنوات ، وأن لى حرية السفر على نفقة البعثة إلى إنجلترا وألمانيا للاطلاع . كل ذلك للتحضير للدرجة الدكتوراه على أن أعود للإمتحان فى القاهرة .

وهنا كانت الفائدة الأعظم تعلمت الكثير على طريق البحث والتأليف «الأكاديمي» ورأيت أساتذة تركوا في نفسى أروع الآثار ، أذكر على سبيل المثال «كاريه» الذى أكرر قولته لى إلى اليوم لطلابى «لست حريصا على أن تعطينى إجابة صحيحة على السؤال ، وإنما حرصى كل الحرص أن تسألى السؤال الصحيح».

كم ذا يحتاج الجيل الجديد أن يتعلم كيف يسأل ، وعن ماذا يسأل قبل ان يحرص على الرد الصحيح على سؤال مطروح !

وتأثرت كثيرا بأستاذى وأبى الروجى طه حسين ولكنى لم أقلد أسلوبه وكذلك أحمد أمين . ذلك أنى نشأت على التلقائية وأن أعبر كيفما أشاء ثم أعود إلى التعبير مرات لأصحح فيه . فإذا كتبت مثلا عناصر موضوع ثم عالجتها فقد تبين لى أنى تركت نقاطا فإذا كانت هامة أعدت الكتابة وأدخلتها أما إذا لم تكن فإنى أترك ما كتبت على ما هو عليه حتى لا يفقد ميزة تلقائيته .

لم أمر بفترة أن أكتب ويصلح لى أستاذ ما أكتب ذلك أن هذه المرحلة قضيتها فى مدرسة لغات، والانجليزية لغة أدبية أسهل كثيرا وأوضح ومحدودة إذا قيست بلغة يبلغ عمرها أربعة بل خمسة أضعاف عمر الإنجليزية أو أى لغة أوروبية أخرى .

تعليم العربية وتعلمها والضغط على مميزاتها وقدراتها الهائلة على

دقة التعبير وعمقه من أهم ما يلزم الأديب العربي ، ودراسة القرآن الكريم تعين على كثير من هذا . وقد درس القرآن الكريم وتمثل بآياته كثيرون من غير المسلمين وليس مثل «مكرم عبيد» ببعيد ففى خطبه ألفاظ بل أحيانا آيات اسلامية فى حين أنه مسيحى لأنه أدرك ما يمكن أن يصقل موهبته ولأن الأخوة بين المصريين كانت دائما تتجلى فى كل مناسبة .

ليس عندى للكتابة مواعيد وإنما الكتابة ساعة الصباح أفضل قبل أن أشعر بالتعب العضوى وأنا أكتب دائما على مكتبى ولا أستطيع أن استمر فى الكتابة طويلا إلا وأنا جاسة على هذا الكرسي ، وأهم ما أحرص عليه ، بعد استجماع الأفكار وبلورة الإحساسات ، هو محاولة إيجاد نقطة «ارتكان» كما أسميها يدور فى فلكها كل شىء آخر . وماديا لابد لى من ورق مصقول وقلم جيد أو ممتاز وثلاثة أو أربعة أقلام إلى جانبى حتى لا أترك الكتابة واشغل بتعبئة القلم حبرا أو نحو ذلك . قطع الفكرة عندى لا يشكل عادة مشكلة ولكنى أتجنبه مخافة أن تحدث المشكلة التى لم أصادفها إلا قليلا جدا .

ووسيلتى أن أترك الكتابة كلية لفترة ثم أعود إليها من جديد منذ البداية حتى لا أفقد الاتصال واستمرارية الفكر .

مجالى الأساسى التأليف «الأكاديمى» ولكن مساهماتى فى القصة القصيرة كثيرة جمعت بعضها والاكثرية الغالبة مازالت مبعثرة فى مجلات تلك الفترة . لى على الأقل ٢٠٠ قصة .

كنت قد كتبت فى جريدة الوادى عام ١٩٣٥ قصة أدبية عن «أمة كريمة والحمام» فيها ذكريات أيام جدى ولما توفى والدى نصحنى أستاذى طه حسين أن أدفن أحزانى فى الكتابة . وقال لماذا لاتؤلفين قصصا أخرى مثل «أمة كريمة» وتنشرينها كتابا . وكان هذا كتاب «أحاديث جدتى» يعبر عن عمق الفجوة بين جيلى ومن سبقه من أجيال .

طبعت الكتاب على حسابى الخاص فى لجنة التأليف والترجمة والنشر وطبعت أربعة الاف نسخة قال أستاذى أنت مجنونة أنا طه حسين أطبع ثلاثة آلاف . قلت وأنا فى غاية الغرور (باليوت شبابنا اليوم عندهم قدر «صحى» من الغرور) أنت مقروء لأنك أديب ممتاز وأنا أدبية ممتازة زائد أنى امرأة وهذا فى حد ذاته طرافة تجذب القارئ . ولم يبع من الكتاب «أحاديث جدتى» إلا تسعمائة نسخة وقامت الحرب فاخترق من المخزن لأن غلافة كان هاما لصناع البلكونات فهذا الورق المقوى لم يكن متوفرا فى السوق وكان هو غلاف كتابى الأنيق .

ومع ذلك لم أياس . أقول لطلابى دائما إياكم أن تياسوا فالفشل مرحلة من مراحل الوصول إلى النجاح تقبلوا الفشل بهذا المنطق وذاك الاحساس فتتجحوا .

قراءتى متسعة جدا ولغائى الأجنبية فتحت على أبواب الثقافة العالمية على مصراعها . لذلك عجبى بل أعجب وأحزن أن ننادى بإهمال تعلم اللغة الأجنبية . ولا أدرى كيف سيكون تعامل هذا الشباب فى عصر الاتصالات الإلكترونية دون لغة أجنبية وما الضرر فى هذا فهذه الثقافة أغذى بها ثقافتى القومية وأنعشها لتتفتح على الآفاق البعيدة .

المجلات الأدبية الغربية أقرأ أكثرها منذ أيام الرسالة إلى اليوم . وأشتري فى مجلات عالمية لا تشتري فيها مكتبة الجامعة للأسف مثل مجلة «العالمين» الفرنسية ومجلة «كنيون» الأمريكية ومجلة «علم الجمال والنقد» و«النقد الأدبى» وكلها مجلات علمية جافة وهناك المجلات التى تجد فيها إلى جانب السياسة الدولية بعض الأخبار الهامة فى الفنون مثل «نيوزويك» و«تايم» ولعل أهم ما فيها فتح الآفاق بأخبار منجزات العلم الخرافية فى هذا العصر . وهناك مجلة «ديالوج» (الحوار) الفصلية تنشر مقالات هامة جدا فى كل ما هو جديد . وفى كل عدد موضوع يعالج بمقالات المختصين معالجة مستفيضة وعلمية موثوق بما فيها من معلومات حديثة .

الحياة بكل ما فيها من عوائق الروتين والبيروقراطية قدر فرض علينا في هذا العصر، وخاصة في مصر في غياب حكم ديمقراطي سليم مبني على فرد حر مؤهل لأن يختار وينفذ ويسهم فعلا في تطور المجتمع . ولا حيلة في نظري إلا بالتكيف على نطاق الفرد والمساهمة الواجبة والفعالة والمستمرة نحو التغيير المطلوب ليصبح مجتمعنا مجتمعاً سوياً يبعث طاقاته الضخمة الفريدة في هذا العبث أو الهراء الذي ندفع إليه دفعا .

كل فرد مسئول عن نفسه بل عن التغيير يجمع مع من حوله مجموعة ويجاهد في سبيل التغيير . وهذا التغيير لن يكون للأسف كما تدل مخترعات العصر الا تغييرا على مراحل . المهم البداية السليمة . التغيير بالطرفة انتهى زمانه . التغيير لا يأتي من فوق ولا بالأوامر ولا فرض ايدولوجيات . اهم ما انصح به الشباب الأدباء : أولا شطب كلمة يأس من قاموس حياتهم مهما كان الوضع . ثم العمل المستمر المؤمن . والقراءة ثم القراءة والتلفزيون ليس بديلا ولن يكون بديلا عن القراءة وإنما هو تحويل للاهتمامات، وانظروا لماذا تنتعش دور النشر وصناعة الكتاب في البلاد التي فيها تلفزيون راق ومجموعة قنوات وهو متاح لأكثر عدد من المواطنين اختلاف الكتاب ضرورة . ولكنه لا يمكن أن يستغنى عنه المثقف .

دكتور أنور عبد الملك

عشت مرحلة صياغة الخط العام للحركة الوطنية المصرية

يبدأ المشوار فى ساعة الظهر يوم الخميس ٢٣ أكتوبر عام ١٩٢٤ بمنزل الأسرة ١٥ شارع الأهرام بمصر الجديدة، وتعدادها آنذاك ٨ آلاف نسمة. كان والدى «إسكندر عبد الملك» محاميا، بعد أن شارك عبد الحليم الببلى بك فى قيادة «اليد السوداء» منظمة الكادر الثورى فى قلب «التنظيم السرى» للوفد المصرى خلال ثورة ١٩١٩ - ١٩٢٣ ينتمى إلى أسرة قاهرية عريقة منذ القرن الثامن عشر، والده شغل منصب «شاهبندر تجار القاهرة» ، وقد توفى قبل ميلادى، فكانت جدتى من أسرة كريمة فى حلب فتحت أمامى عندما كنت طفلا مجالا عربيا دافئا انصهر فى أسرة قبطية مصرية صارمة. ووالدتى «إليس زكى ابراهيم» لست أدرى كيف أصفها: شابة خارقة الجمال، زوجة مشرقة، وأم حنون،

والدها من مديري هيئة السكك الحديدية المصرية والأسرة تتوزع بين القاهرة والمنيا، ولدت ظهرا كما قيل لى فيما بعد، فى يوم مشمس، ومن هنا تسمية «أنور» وهى فى الأساس تيمنا بالفريق أول أنور باشا، رئيس هيئة الأركان العامة للجيش العثمانى، ورائد حركة «الأتراك الشباب» ثم جمعية «الاتحاد والترقى» التى كان لها أبلغ الأثر على شباب الحركة الوطنية المصرية فى مطلع هذا القرن (ومنها تسمية العديد من جيلنا باسم «أنور»).

هناك مؤثرات تكوينية ثلاثة صهرت شخصيتى، وكانت بمثابة الأركان التكوينية لما أتاح الله عز وجل من فكر وعمل على أرض مصر، ثم خارجها وفى سبيلها: الأسرة، أولا:

كان والدى من الدفعة الأولى للسلك الدبلوماسى المصرى، عينه حافظ عفيفى باشا وزير الخارجية آنذاك نائب قنصل فى مدينة «ليفربول» فى إنجلترا عاصمة صناعة نسيج القطن المصرى والهندي آنذاك، ثم بعد إصابته بالمرض الذى أودى به ، إلى لندن، ثم نائبا لمدير إدارة الجنسية فى الديوان العام بالقاهرة حتى لقي ربه عام ١٩٣٢ وهو فى التاسعة والثلاثين من عمره كان عالما ومفكرا وكاتبا باللغات الثلاث العربية، والانجليزية والفرنسية، علمنى معانى ثلاثة: الدأب على العلم دون كلل، الصدق فى القول والعمل، الشجاعة دون أدنى رهبة. كان

يقضى بعد ظهر كل يوم بين الثالثة والثامنة من عمرى يعلمنى التاريخ والجغرافيا وحضارة مصر والاكتشافات البحرية والفتوحات والمعارك الكبرى، استنادا إلى مجلدات كبيرة مصورة، بحيث أصبح «رئيس» والاسكندر المقدونى، وكذا «صلاح الدين» و«نابليون» ثم «محمد على» و«اسماعيل» من ضيوف مكتبه الدائمين، يتعاقبون مع «كولبس» و«فاسكو دى جاما» و«كونفوشيوس» ثم رسالة الرسل، إذ كان والدى شديد التقوى إلى درجة التصوف، كان يعرض أمامى المعارك الكبرى فى تاريخ الانسانية: أذكر معارك «قادش» و«أوسترليتس» «أبا قير» و«فريدان» قلعة صلاح الدين وچنكيز خان، ثم مقام ابراهيم باشا وأحمد عرابى وصحبه، فى التل الكبير، اضطررنى إلى تعلم اللغتين الفرنسية ثم الانجليزية طفلا. ثم جاء البحر: كنا فى اليونان لعلاج، فدأب على أن أتعلم مبادئ قيادة السفن الملاحية الصغيرة المتنقلة بين الجزر، وكأنتنى على موعد مع البحر. سنوات مشحونة، صارمة مشرقة، تصب فى معنى كبير: حضارة مصر، مكانة مصر، نهضة مصر - «عندما تصبح رجلا تتولى هذه الأمور مع زملائك، مثلنا اليوم» عبارة كان يكررها يوما بعد يوم.

ثم «مدرسة العائلة المقدسة» لهيئة الياسوعيين (١٩٢٩ - ١٩٤٠) فى القسم العربى منها، أرقى معاهد التعليم فى الغرب قاطبة حتى اليوم

وكانت آنذاك، ولا تزال ، المدرسة المرموقة لمن أراد أن يجمع بين التكوين
الفكرى والروحي والاخلاقي من ناحية وحب الوطن من ناحية أخرى،
إليها أدين بما يصعب التعبير عنه؛ فتحت أمامي أبواب ثقافات العالم
أوسع الأبواب، عمقت معانى الإيمان والتصوف فى وجدانى، واصلت
التربية الأخلاقية الصارمة، الحديدية آنذاك، وكأنا فى كلية عسكرية
ثانوية، وفى الوقت نفسه أكدت يوما بعد يوم التوجه المصرى، واجبنا
كما تعلمنا، بعد الله عز وجل، ثم الملك رئيس الدول آنذاك، وخلال هذه
السنوات العشر، فتحت أمامي إمكان التعمق فى آداب لغتنا العربية على
أيدى كوكبة من الأساتذة الممتازين، ومنهم الشاعر «ريمون حكيم» وكان
من رواد أمير الشعراء وجماعة «أبوللو» كان يبدأ الفصل الدراسى وكلنا
وقوف ينشد المعلقات، ثم ينتقل تدريجيا فى الفصول المتقدمة إلى أحمد
شوقى وحافظ إبراهيم وخليل جبران وشباب الشعراء، وفى هذا الخضم
الذاخر من العلم والثراء الوجدانى، التقيت بمطلع القصيد الذى أصبح
شعارا لى فيما بعد طيلة العمر؛

«الوقت سيف وإن لم تقطعه قطعك».

نفس المعنى الذى تعلمته فى دار أسرتنا، نفس المعنى الذى فرضته
علينا معارك الحياة فيما بعد.

وفى هذه الاثناء، وبعد وفاة والدى رأيت والدتى أن تقودنى كل شهر

للصلاة والتأمل فى الكنيسة المعلقة فى مصر القديمة-توكيدا لاستقلالية الكنيسة القبطية المصرية، وكثيرا ماكننا نعكف إلى حى الحسين مع أصدقاء الأسرة للتشيع بروح القاهرة، كما كانت تقول دوما، و«كما كان والدك يحبها أيام الثورة».. أيام ثورة ١٩١٩ التى انطلقت من رحاب الأزهر الشريف. لم يكن لنا معاش بعد وفاة والدى، نظرا لقصر المدة الأميرية ولا ثروة فقد ذهبت مع الثورة. وقد عاوننى أشقاء والدى، على رأسهم فؤاد بك عبدالملك، والذى الروحى الثانى، مؤسس «جمعية أصدقاء الفنون الجميلة» والمشارك فى توجيه العديد من المؤسسات ومنها «الجمعية الزراعية الملكية» و«الجمعية الجغرافية الملكية» بعد ٢٨ عاما من الرحلات خارج مصر، فى روسيا والمانيا وفرنسا وأوروبا وتركيا حتى عاد عام ١٩١٩ تلبية لنداء صديق الطفولة سعد زغلول باشا للمشاركة فى بناء الوفد المصرى، ثم أصبح بعد ذلك مستشارا للملك فؤاد ثم فاروق ومؤنسسا «لمتحف الشمع المصرى» واصل ما أرادته والدى، وأدخلنى إلى عالم الموسيقى الكلاسيكية والأوبرا وأيضا السيد درويش وأم كلثوم وعبد الوهاب، وفوق هذا وذاك محمود مختار وعالم التصوير والنحت والجمال فى عناق مع مصر المعاصرة وإلى جانبه عمى فريد، وكان من رجال طلعت حرب فى بنك مصر ومديرا لفرع البنك فى السعودية وعمى مجدى فى البنك العقارى المصرى وعمى فايز وهو الذى

واصل مسيرة الثورة في الثلاثينيات، ولكن هذه المرة من خلال «مصر الفتاة» و«مشروع القرش» لبناء الصناعة الوطنية وأخيرا خالى وديع زكى بك، الذى عينه السنهورى باشا أصغر مستشار فى مجلس الدولة عند إنشائه.

أحاطت بى الأسيرة تحاول أن تسد فراغ وفاة والدى وصديقى الأعز، كانت الظروف الاقتصادية صعبة للغاية، وقد واجهتها والدتى بشجاعة. أصرت ألا تتزوج وهى فى مطلع شبابها لكى تعكف على إتمام الرسالة.

ومن حولى رجلان كانا أقرب المقربين إلى والدى: عمى «عبدالحليم الببلى بك» قائد جماعة «اليد السوداء» ومنه تعلمت الكثير عن تاريخ ثورة ١٩١٩.

ثم عمى الثانى الذى واكبنى حتى نهاية ١٩٥٨ قبل الخروج من مصر: «حافظ صدقى (باشا)» فلاح فقير من أم درمان جاء إلى أسوان ثم القاهرة على قدميه سعيا للرزق وكان قد تعلم فى الكتاب آيات القرآن الكريم، ثم دخل متطوعا فى الجيش، فأرسله إلى «فيلق العمل المصرى» المعاون للجيش الانجليزى فى فلسطين والشام ضد تركيا. هناك استبسل حافظ صدقى، وكان أول جندى يرقى إلى مرتبة الملازم الثانى من تحت السلاح، وقد عرفته ضابطا عظيما تولى فى نهاية مساره

منصب كبير الياوران وقد علمنى مكانة الجيش المصرى فى تاريخ أمتنا المصرية وحركتها الوطنية، وقد علمت فيما بعد أنه كان استاذ التكتيك فى الكلية الحربية الذى تخرج على يديه العديد من صفوة «الضباط الأحرار» وعلى رأسهم جمال عبدالناصر.

كانت هذه مرحلة الوع بالقراءة، أقرأ كتابا كل يوم من خلال وبعد ساعات الدراسة التى كانت تنتهى الساعة مساء فى المدرسة، قرأت مئات بل مايقرب عدة آلاف من الكتب من الآداب الاوربية والفكر العالمى، وكذا كل ماكان متاحا آنذاك من كتب تاريخ مصر الفرعونية والقبطية والإسلامية ثم مصر المعاصرة منذ محمد على. اكتشفت «كتاب الموتى» و«مكسيم جوركى»، «شكسبير» وأعلام الشعر العربى وكتب الرسل خاصة العهد الجديد والقرآن الكريم وكذا كونفوشيوس وغاندى، ومؤلفات الخيال العلمى لـ«جول فيرن» والرواية الواقعية عند «ديكنز» و«بلزاك» جنبا إلى جنب مع الرواية التاريخية الفلسفية عند «تولستوى» والمسرح العالمى الفرنسى والإنجليزى والإيطالى، وما تيسر من أجزاء «ألف ليلة وليلة» المتاحة للشباب آنذاك، كنت أحفظ آلاف الابيات من شعرائنا المصريين المعاصرين وقد حرصت والدتى على اصطحابى لمشاهدة «نجيب الريحاني» والاستماع إلى أغاني «السيد درويش» وكان من أصدقاء والدى المقربين أثناء الثورة ثم حفلات سيدة مصر الكبيرة «أم كلثوم».

هكذا بدأ شوط كسب العيش، أولاً موظف في «البنك الأهلي المصري» في مركزه الرئيسى (البنك المركزى حالياً) بقصر النيل من خريف ١٩٤٠ حتى ربيع ١٩٤٣. كنا نعمل نحو ١٢ ساعة يومياً في ظروف الأحكام العرفية، ثم تحديد الإنارة ليلاً بعد الغارات الجوية الألمانية على المطارات البريطانية، وخاصة مطار أُلماظة الحربى ثم انتقلت موظفاً في البنك العقارى المصرى ثلاث سنوات بالقسم القانونى (١٩٤٣ - ١٩٤٦).

كسب العيش صباحاً. وبعد الظهر التحقت أربع سنوات لدراسة اللغة الانجليزية في «المعهد البريطانى» بالقاهرة، فحصلت على إجازة الثانوية العامة البريطانية لجامعة لندن وكذا التوجيهية المصرية عام ١٩٤٤، وبدأت الاعداد سنتين لدرجة بكالوريوس الاقتصاد بالمراسلة لجامعة لندن في نفس المعهد، مما أفادنى للتمكن من اللغة والثقافة الانجليزية بشكل متخصص، بعد التعمق في الثقافة الفرنسية اثناء سنوات الدراسة السابقة.

بداية الحرب العالمية، الظلام يسود القاهرة والاسكندرية ومدن القتال. بدأت ألتهم الكتب السياسية والفلسفية، يمينا ويسارا، كما فعل على ما أعتقد معظم «الجيل الذى كان على موعد مع القدر» كان التساؤل هو: ما العمل؟ كيف يمكن الإفادة من صراع الدول الكبرى

لزعزعة قبضة الاستعمار البريطاني الحديدية على أرضنا، والقضاء على الاحتلال؛ ثم، ما معنى التحرير، أو الاستقلال الحقيقي كما بدأنا نسميه آنذاك، بعد أن ثبت أن معاهدة ١٩٢٣ لم تمنع مصر من أن تصبح دولة تابعة للاحتلال الحربى والسيطرة الاقتصادية والسياسية للحليف البريطانى (كما كان يوصف رسميا آنذاك)؟ ما العلاقة بين الاستقلال الحقيقى والنظام الداخلى السياسى؟ كيف يمكن تأمين سيادة القانون وتمثيل إرادة الشعب فى البرلمان والحكم، وكذا دعم الاقتصاد المصرى، زراعة وصناعة ومالا؟ كيف يمكن، على وجه العجالة التجاوب مع مشاعر الشعب المتأججة ضد الاحتلال البريطانى، المرحبة بتقديم جيوش المانيا عبر الصحراء الغربية تحت شعار «إلى الأمام ياروميل» من ناحية وبين ضرورة مساندة الدول الديمقراطية وحركات المقاومة فى أوروبا ضد الفازية المحتلة لأراضيها؟ ثم ما العلاقة بين هذا كله وبين المعانى الكبرى التى أحاطت بتحرك مصر منذ منتصف القرن الثامن عشر وخاصة منذ محمد على وثورة ١٨٨١ وثورة ١٩١٩ وما تلاها من وثبات ثورية شعبية حادة؟ وعلى وجه التحديد والتخصيص: ما العلاقة بين الثورة والنهضة؟

رحلت ألتهم الكتب والمجلات فى كل اتجاه . كانت أمامى مكتبة هائلة دول علم المصريات وتاريخ مصر الحديث بفضل نسيبى الاستاذ الدكتور

«جرجس متى» وزملائه فى جامعة فؤاد الأول «سامى جبرا» و«مراد كامل» وكذا من خلال الجلوس إلى كبار أطباء مصر آنذاك المقربين إلى اسرتنا، الدكاترة «عبد الوهاب مورو» ، «على إبراهيم» و«فهمى البنياوى» كان هناك رافد جماعة «الخبز والحرية» أنور كامل، رمسيس يونان وصحبهما .

وكذا مكتبة نسيبى «سكيفيس سانتينى» ايطالى الجنسية اشتراكى التوجه صديق «أندرية مالرو» آنذاك فى هذه السنوات أى بين سنتى ١٩٣٩ - ١٩٤٢، اكتشفت الفلسفة فأحببت محاورات أفلاطون والفلسفة التساؤلية دون الفلسفة الإقرارية الجامدة، قرأت ماتيسر من كتابات «أبى العلاء المعرى والفارابى وابن سينا» واكتشفت مقدمة ابن خلدون العظيمة - وبها عبارات «مصر المحروسة» ، «مصر أم الدنيا» - وكذا فلسفة التاريخ عند «هيجل» . قرأت المجموعة الكاملة لـ «المجلة الفرنسية الجديدة» الشهرية، وكذا كتابات الموسوعيين الفرنسيين، ثم «ثراء الأمم» لأدم سميث، بدأت أتجه إلى كل ما فيه رأى أو فكر تحريرى «جاريبالدى» وقادة ثورة ١٧٨٩ فى فرنسا، كتابات حرب الاستقلال الامريكية، وخاصة «فرانكلين» و «جيفرسون» ، سيرة «كرمويل» و «بسمارك» وفتح لى عمى فؤاد عبدالملك مكتبته النادرة فتعرفت على تاريخ مصر فى القرن التاسع عشر فى مجلدات الدكتور «محمد صبرى» السوربونى.

ثم وفجأة عام ١٩٤١، عندما وجه هتلر جحافلَه ضد الاقتصاد السوفييتي، بدأت تُتكشف الفكر الاشتراكي بوجه عام والماركسي بوجه خاص. مختارات «كارل ماركس» لهنري لوفيفر» كتابات ماركس وانجلز السياسية والفلسفية والتاريخية «البيان الشيوعي» كتابات لينين «الدولة والثورة» ثم ستالين وخاصة «الماركسية والمسألة الوطنية». وفجأة جاعنا كتاب الصحفي الامريكي الرائد «ادجار سنو»: «النجم الأحمر فوق الصين» (عام ١٩٣٨) وهو الكتاب الذي كشف للعالم حقيقة ثورة الصين التحريرية الكبرى بقيادة ماوتسى تونج «وشوئي» وشوين لاي والحزب الشيوعي الصيني: التقى بهم فى مغارات «دينان» قاعدتهم فى الجبال النائية بعد «المسيرة الطويلة» لمدة سبع سنوات، قبل الانطلاق لتحرير الصين ودخول بكين معلنين اقامة جمهورية الصين الشعبية يوم الأول من اكتوبر ١٩٤٩، خمس المعمورة، تحت لواء الاشتراكية، إن هذا الكتاب الذى ترجم إلى أكثر من ٦٠ لغة وانتشر إلى ثلاثين مليون نسخة كان بمثابة المعلم الأكبر لفن «الدبلوماسية الشعبية» فهو الذى نحت فى الصخر طريق اعتراف الولايات المتحدة بالصين الاشتراكية، رغم كل العقبات ومواجهة السخرية والتهكم. كتاب له تاريخ، فقد صنع التاريخ. ثم، وعلى التوالي، مؤلفات شاب كان آنذاك فى نهاية الاربعينات من عمره يقود أعظم ثورة فى تاريخ الانسانية: «فى التناقض» ، «فى

الجدلية» ، «الديمقراطية الجديدة» - أعمال «ماوتسى تونج» باللغة الانجليزية فى القاهرة المحتلة فى بدايات الحرب العالمية.

اتضح الطريق . بدأ العمل

إن التنظيمات الشيوعية المصرية، التى استعادت منذ سنة ١٩٣٩ سيرة الحزب الشيوعى المصرى الأول المنحل، بدأت على صورة حلقات دراسية سياسية متعددة، تجمعت فيما بعد وخاصة منذ ١٩٤١ فى منظمات وطنية شاملة صبت فيما بعد فى اطار «الحزب الشيوعى المصرى» الثانى . وقد بدأت أجمع حلقة من الأصدقاء والزلاء فى شتاء ١٩٤١ - ١٩٤٢ للدراسة الاشتراكية وسبل تحرير مصر، وكذا تبين معنى الحرب العالمية وكيف يمكن النفاذ من ثغراتها إلى ما نبغيه. حلقة من تسع زملاء مازال معظمهم والحمد لله يعملون على أرض مصر - يمنحونها العطاء كل فى جانبه، وإن شاء القدر أن يخفى الوجه المشرق الذى شاركنا فى هذه الحلقة منذ البداية فنانة مصر «إنجى افلاطون» وقد شاء القدر أن أكون بجانبها فى الأيام الأليمة الأخيرة فكانت ابتسامة حزينة فى عينيها، وكأنها تهيم صوب شباب مضى وتجلى. كان جوهر لقاءنا الأسبوعية هو الحوار بين القائلين بضرورة الانضباط الثورى والعمل الجماهيرى وبين دعاة العمل الثورى المباشر وكنا ننتعهم بـ «الفوضيين» كان أشدنا ثورية المرحوم (الدكتور) جمال العطيفى، ولكنه كان دوماً يهتدى إلى موقف الاتزان والتوفيق بين الطرفين.

وفى أكتوبر ١٩٤٤، قررنا أن نتجه إلى ناد ثقافى - سياسى سمعنا أنه يتميز بمستوى رفيع من الوطنية والثورية والثقافة، فكان لقاءنا مع «دار الابحاث العلمية» بعد ظهر يوم خميس من شهر أكتوبر ١٩٤٤، للاستماع إلى المحاضرة الاسبوعية، والمشاركة فى النقاش، وذلك بغية الـ «استيلاء» على الدار.. كان المتحدث طويل القامة، متين البنيان، متمكنا من الاداء والنفاذ إلى عقول ووجدان الحاضرين، مبتسما دوما وساخرا عند اللزوم، شدى فى حديثه نفس المنهج التساؤلى لمحاورات «أفلاطون»، قالوا لنا إنه مقرر للجنة الادارة أى رئيس لـ «دار الابحاث العلمية» ، ولكنه كان متواضعا وشامخا فى آن واحد ، كان يعرض لكتاب رئيس الحزب الشيوعى الأمريكى، «إيرل براودر» عن لقاء قادة الغرب والاتحاد السوفييتى فى «طهران» محبذا لتلاقى المعسكرين الرأسمالى والاشتراكى الذى كان سيؤدى بعد سنة إلى اتفاقيتى طهران وبالطاء، أى إلى إقامة القطبية الثنائية مركزا للعالم.

بدأت المناقشة تتابعت الأسئلة المخرجة الغاضبة، رغم استحسان الأغلبية لأفكار المؤلف وعرض المحاضر. وفجأة رأيتنى أقف أسأل وأتحدى:

ما هذا التهاون؟ أهذه اشتراكية؟ كيف نبرر تقسيم العالم، ونحن غير موجودين فى اللعبة ولا فى الحساب؟ احتد النقاش. ظل المحاضر

مهذباً مبتسماً مالكا لزامام الموقف والقلوب، ازداد سخطى وكذا إعجابى. وبعد نهاية الجلسة، ذهبت أحييه فاستقبلنى بحرارة لن أنساها، ثم سألنى إن كنت على موعد هذا المساء وإلا فلنذهب معا لقضاء السهرة. ذهبنا إلى الحسين أولا لتذوق الكبدية المقلية طبقه المفضل، ثم عدنا نجوب القاهرة وسرنا على جانبى جسر قصر النيل من التاسعة مساء حتى شروق اليوم التالى، فتح قلبه. قص لى تاريخ حياته وكيف أنه قرر ترك بعثة الدكتوراه فى الفلسفة إلى جامعة «إكسيتيد» الانجليزية والعودة بأخر سفينة إلى بورسعيد عام ١٩٣٩ للعمل فى سبيل تحرير مصر، سألنى عن وجهتى فى الحياة، وكنت آنذاك أنوى دراسة الفلسفة ثم الذهاب للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس السوربون بعد الحرب، وإذا به قبل الفجر بلحظات يضع يده فى يدى ويقول: «ولكننا الآن معا، هنا أرض المعركة، ولاشك عندى أننا سنكون معا لتحرير مصر. أما الدكتوراه، فلتؤجلها حتى ننتهى من الأمر، أليس كذلك؟ ..»

هكذا كان أول لقاء مع «شهدى عطية الشافعى» صديقا، معلما، قائدا، رائدا، فاتحا، هكذا تصورت أن اللقاء تم بين «ماوتسى تونج» الشاب و«شوثيه» قائد العصابات المسلحة ثم «شوين لاي» الارستقراطى خريج الاكاديمية الحربية - هكذا تصورت، كان لقاء كل من تلاقوا فى سبيل تحرير بلادهم والنفاذ إلى الغد.

وبعد أسابيع، أصبحت مرشحا في تنظيم منظمة «شرارة» (اسكوا) التي ركزت على تكوين الكادر القيادي للحركة الشيوعية المصرية، بينما كانت منظمة «الحركة المصرية للتحرر الوطني» تتهج نهج العمل الجماهيري أولا. كنا نتلقى سنتين من التكوين النظري والفكري والسياسي رفيع المستوى، ومن بعدها سنتين اضافيتين في مختلف التخصصات، على أن يدخل المرشح عضوا في التنظيم بعد قضاء الشهور الستة الأولى والاختيار السياسي وكان العمل العنفي في «دار الابحاث العلمية» على قدم وساق تولاه في الاساس أعضاء منظمة «شرارة»: اجتماع كل من اللجان الاثنتي عشرة المتخصصة، من السياسة الخارجية إلى الاقتصاد، من الثقافة إلى التنظيم، لإعداد كادر الدولة البديلة المعنية بالتحرير والثورة والنهضة، المحاضرة الأسبوعية والمناقشة المفتوحة لجمهور الرواد يوم الخميس من كل أسبوع، اجتماع لجنة الادارة بعضوية مقررى اللجان الاثنتي عشرة ورئاسة مقرر لجنة الادارة رئيسا للدار، والكل منتخب بطريقة ديمقراطية بينما التنظيم السرى الحيدى مركزى بطبيعة الامر. كانت الدار آنذاك مركزا لأهم تجمع فكرى - سياسى على أرض مصر، تجمع بين الشيوعيين وكل الفرق الوطنية، وكذا بين مختلف الأجيال. كان «اسماعيل الأزهرى» ، والدكتور «محمد مندور» و«عصام النين حفى ناصف» والدكتور «محمد

صبرى» السوربونى ثم «عزيز فهمى» من رواد يوم الخميس. كنا نستمع إليهم، نلتهم منهم الخبرة والمعرفة، وقد انصهرت الأجيال كما يقولون اليوم فى بوتقة واحدة تمزج بين صراحة المواجهة واحترام الخبرة والمقام - يديرها «شهدى عطية الشافعى» و«عبدالمعبود الجبيلى» بإيقاع صارم منفتح لم ينتن. ثم انطلقت الحركة الطلابية، والحركة العمالية العارمة فى عموم أنحاء مصر فى عام ١٩٤٥ - ١٩٤٦، فكان انتخاب الاتحادات النقابية وكذا الطلابية ديمقراطيا، وكذا وعلى هذا الأساس انتخاب القيادة الوطنية لحصر الثورة آنذاك «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» عام ١٩٤٦، حول قاداتها. «لطيفة الزيات، محمود العسكرى، جمال غالى ورفاقهم».

كانت تجتمع فى دارنا المتواضعة، ٩ شارع عبدالعزيز جاويش حى باب اللوق، وأنا بطبيعة الأمر غائب تماما حتى الثانية بعد منتصف الليل إذ لم أكن عضوا بها ولم أعلم بانعقادها إلا بعد أن تم حلها، وكذا كافة المنتديات والصحف الوطنية التقدمية يوم ١٠ يوليو ١٩٤٦، عندما أعلن «إسماعيل صدقى» الحرب ضد «المؤامرة الشيوعية الكبرى».

كانت جبهة هذه الهيئات العاملة لبناء مصر الغد ستكون من: «دار الأبحاث العلمية» ، «لجنة نشر الثقافة الحديثة».

«اتحاد خريجي الجامعة» مجلة «الطلعة» مجلة «أم درمان» إلى

جانب عدد كبير من التشكيلات الأخرى، وقد تمحورت كلها حول «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة».

كانت هذه مرحلة صياغة الخط العام للحركة الوطنية المصرية ومصر المعاصرة قاطبة. وقد تولت الحركة الشيوعية المصرية مسئوليتها التاريخية بكل جدارة وإقدام، ونجحت فى أن تطرح أركان المسألة المصرية ومحاور تحريكها منذ مطلع الأربعينات حتى اليوم حول عدد من المفاهيم التكوينية التى لاتزال تؤرق الفكر والعمل على أرضنا المحروسة: التحرير، الاستقلال الاقتصادى، التنمية، السياسة الخارجية غير المنحازة، المتحالفة مع الحركات الوطنية، والقوى الاشتراكية، الثقافة الوطنية، النهضة الحضارية وقد عبر عن هذا الخط العام كتاب «أهدافنا الوطنية» بقلم «شهدى عطية الشافعى» و«عبدالمعبود الجبيلى» الذى واكب وثبة «اللجنة الوطنية للعمال والطلبة» فى ربيع عام ١٩٤٦ وحدد مسار الخط العام الذى أصبح فيما بعد «ميثاق العمل الوطنى» (١٩٦٤).

كان لابد لهذا الخط العام من أداة للتنفيذ لكى يصبح عملا محققا على أرض مصر: من هنا كان مفهوم «الجهة الوطنية المتحدة» التى كنا نراها آنذاك تجمع بين العمال والفلاحين والمثقفين الثوريين الجنود وصغار المنتجين والرأسمالية الوطنية بقيادة الطبقة العاملة المتحالفة مع

شباب مصر الطلابي، كما كنا ندرك ضرورة التلاقى مع جماهير التوجه الإسلامي. دون قيادة «الإخوان المسلمين» من هنا كان جلوسنا على حصيرة ميدان الحلمية الجديدة نستمع إلى تعاليم المرشد العام «حسن البنا» فى ليلة الجمعة من كل أسبوع شهرا تلو الشهر لتتعرف على مشاعر وتوجهات إخواننا فى الوطن، وكذا إصدار كتاب «الإخوان المسلمون فى الميزان» الذى كشفت فيه «دار الأبحاث العلمية» النقاب عن تلاقى قيادة الإخوان المسلمين آنذاك بالمحتل البريطانى لمعاداة الشيوعية.

وبينما نحن فى هذا التأنج، كان لابد أن نحسب حساب العدو، بدأت موجات القمع فى يوليو ١٩٤٦. وكنت آنذاك آخر الذين تولوا منصب مقرر لجنة إدارة «لدار الأبحاث العلمية» عشرة أيام فقط بعد انتخابى يوم ١ يوليو ١٩٤٦، بعد زملائى «شهدى عطية الشافعى» و«عبدالمعبود الجبيلى» و«أحمد شكرى سالم» ثم «عبدالرحمن الناصر» وقد علمنا أن الاستعمار البريطانى يعد العدة لتقسيم فلسطين وإقامة دولة يهودية على أرضها، مستهدفاً بذلك - حسب ماكان مايصرح به رجاله علنا - كسر الحركة الوطنية وشطرها شطرين، إذ سوف يرفض الوطنيون تقسيم فلسطين، بينما يضطر الشيوعيون إلى قبول ذلك انسياقاً وراء قدوة الاتحاد السوفيتى.

وفى هذه الظروف، عرضت منظمة «الحركة المصرية للتححر الوطنى» بقيادة «هنرى كوريل» الوحدة على منظمة «شرارة». كان ذلك فى ربيع ١٩٤٧، وكنا نقتررب رويدا رويدا من قرار تقسيم فلسطين فى ديسمبر ١٩٤٧، كان التنظيمان غير متجانسين كما ذكرت. اشتد الضغط على منظمة «شرارة» لقبول الوحدة الثنائية، بينما ظل التنظيم الثالث «طليلة العمال» على هامش هذه العملية، إذ كان من الواضح أن الهدف كان فى الأساس احتواء ثم امتصاص منظمة الكادر المرموقة . أى «شرارة» لحساب القيادة الشيوعية اليهودية التى أصبحت أكبر نصير لتقسيم فلسطين وإقامة الدولة الصهيونية بها منذ ديسمبر ١٩٤٧ حتى اليوم. عندئذ قررت اللجنة المركزية لمنظمة «شرارة» اجراء استفتاء لجميع مسئولى الأقسام بها (وكان القسم يجمع عدة فروع يتكون كل منها من عدة خلايا أعضاء ومن حولها عدد من مجموعات المرشحين) .

تم الاستفتاء فى شهر يونيه ١٩٤٦: وقد صوت ٥٥ من مسئولى الأقسام الـ ٥٦ مع قرار الوحدة، وانفرد مسئول قسم واحد برفض هذه الوحدة تحسبا لمخاطرها ، وقد كان لى شرف القيام بهذا الدور الصعب ربما نظرا لعمق مجال التكوين الوطنى والفكرى الذى عرضت له فيما سبق، أو ربما ابتداء من ليلة كوبرى قصر النيل...

تمت الوحدة فى يوليو ١٩٤٧، وخلال أسابيع، تبدى للجميع مخطط

«هنرى كوريل» لإذابة الكادر الثورى فى حركة تجمع بين مجموعة من الفئات (العمال، الفلاحين، المثقفين، الجيش، الطلبة، النساء، الأجانب إلخ) بدلا من التنظيم الشيوعى التقليدى القائم على خلايا مؤسسات العمل وخلايا إقليم الإقامة توحيدها لجان الفروع والمناطق حتى اللجنة المركزية. التنظيم الصهيونى لتفرقة الصفوف وتمكين القيادة من التلاعب بالمصالح المتناقضة، فى اللحظة التى بدأت فيها الطبول تدق معلنة قرب تقسيم فلسطين، وإقامة الدولة اليهودية على حدود أمن مصر.

كان لابد من التحرك. من هنا تم تشكيل «التكتل الثورى» بقيادة «شهدى عطية الشافعى» و «أنور عبد الملك» و «حسين الغمرى» و «سعد زهران».

بينما قاد «عبدالمعبود الجبيلى» و «أحمد شكرى سالم» المعارضة الشرعية داخل اللجنة المركزية، تم فصل جميع أعضاء «التكتل الثورى» من العضوية وكذا قرار تقسيم فلسطين فى ديسمبر ١٩٤٧. بدأ العد التنازلى لأول حروب مصر ضد الدولة الصهيونية فى مايو ١٩٤٨.

بدأت أولى معارك الشيوعية الوطنية فى قلب الحركة الوطنية المصرية.

بدأ الإعداد للثورة والثورة المضادة. كانت لحظة الموعد مع القدر.

الفن والسياسة حدّاداً

معالم طريقى فى الحياة

إيقاع التاريخ يتداخل هنا مع أركان التكوين ، وهذه الصفحات ليست «سيرة ذاتية» وإنما مسار فكرى وعملى يحاول أن يقدم بعض المدخل إلى تساؤل : كيف كان ما كان ؟ .

كانت الفلسفة ، ولا تزال ، مدرسة رئيسية لكل ما تم من فكر وعمل . وقد ذكرت بعض البدايات ، كانت مرحلة ١٩٤٨ - ١٩٥٦ هى الحاسمة فى هذا المجال .

بدأت أقرأ الفلسفة بشكل مكثف ، واكتشفت «هيجل» ومقولته «الحياة هى الموت» ، وكأنها من «كتاب الموتى» الفرعونى . ومنه إلى «ماركس» : «لقد اكتفى الفلاسفة حتى الآن بتفسير العالم ، وقد آن الأوان لتغييره» - إثنا عشر قرناً بعد التنزيل الحكيم ؛ قوله تعالى : «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم» الصلة العضوية التى لا تنفصم بين العمل بوصفه تحقيق وتجلي الفكر - دون التعليق على الهوامش والمكتبيات .

بعث الحكم الرجعى بمئات من التقدميين إلى معتقل «الطور» فى ١٥ مايو ١٩٤٨ (وكانهم «مسؤولون» عن تقسيم فلسطين ..) حتى ديسمبر ١٩٤٩ . عندما جاءت نتيجة الانتخابات بحزب الوفد إلى الحكم للمرة

الآخيرة رغم الطغيان ، شاء القدر أن أتمكن من الإفلات . فترة من العمل الدائب فى صفوف العمال ، بعيدا عن دوائر التحليل النظرى . أدركت حقيقة شعب مصر العامل ، وقسوة ظروفه المعيشية ، وتمسكه بقيم التضامن والبذل ، وحبه لأنس الوجود. الإيمانى العميق بالله والوطن .. مدرسة لن أنساها ، لولاها لفاتنى قطار حقيقة الواقع المصرى ؛ وهى المدرسة التى أدين لها بأساس الخبرة العملية الميدانية لما أطلق عليها «شادى عبد السلام» العزيز النبيل بعد عودتى من المنفى ، أنه «إيقاع الشخصية المصرية» . أصر نسيبى الأستاذ الدكتور «جرجس متى» أن أعود إلى الجامعة ؛ فكان أن قرر الأستاذ العميد الدكتور طه حسين - وزير المعارف آنذاك - أن يستثنى كاتب هذه السطور من الروتين فكان التحاقى بقسم الفلسفة بكلية الآداب بجامعة إبراهيم باشا الكبير «عين شمس فيما بعد» يوم إنشائها فى سبتمبر ١٩٥٠ حول عميدها رفيع المقام المؤرخ أ . د . «إبراهيم نصحى» كان هذا الموعد الحق مع الفلسفة .

قضيت أربع سنوات أتعلم من أستاذنا الجليل الدكتور «عبد الرحمن بدوى» ألتهم محاضراته ، والمراجع المواكبة ، أصطدم به كل يوم ثم يدعونى للجلوس إليه فى مكتبه للحديث فى كوم متراكم من الأسئلة .

ارتفعت العلاقة بين التلميذ وأستاذه إلى أرقى مستوى ؛ فإليه الفضل كل الفضل فيما أملكه من مبادئ المعرفة الفلسفية ، والبحث العلمى الدقيق ، والنظرة الموسوعية إلى عالم الفكر والثقافة العرب ، تعلمت منه ، على وجه التخصيص ، أن واجب المفكر المصرى أن ينكب على أصول الفكر والثقافة الوطنية ، ليطورهما .

كان هذا المعنى الذى أنشأه الشيخ مصطفى عبد الرازق فى مقدمة كتابه الرائد «مدخل إلى تاريخ الفلسفة الإسلامية» مغايرا تماما فى دراسة فلسفتنا وفكرنا «من خلال» فلسفة الغرب الإغريقية ثم الأوربية على وجه التخصيص .

من هنا فرض على «عبد الرحمن بدوى» بعد أن تخرجت الأول من أولى دفعات ليسانس الآداب قسم الفلسفة «يونيه ١٩٥٤» أن أنصرف عن فكرة البحث فى فلسفة التاريخ عند هيجل ، وأن أكرس جهدى العلمى للتعلم فى دراسة الفكر المصرى ، بوصف هذا البحث واجبا وطنيا على المفكر المصرى . كانت هذه هى البداية الأولى لدراسة دكتوراه الدولة فى الآداب التى تمت بين ١٩٥٥ و ١٩٦٩ عن «تكون الايديولوجية فى نهضة مصر القومية (١٨٠٥ - ١٨٩٢)» ، (نهضة مصر فيما بعد) ولها قصة أخرى ، ألا وهى : التنقيب عن الأسباب التكوينية لذلك الصدام فى الظلام الذى دفع جمال عبد الناصر إلى

تفتيت وتدمير الحركة الشيوعية المصرية فى معتقلات «أبى زعبل» (١٩٥٤ - ١٩٥٦) ثم «الواحات الخارجة» (١٩٥٩ - ١٩٦٤) - وكان نصيبى الأولى ، أن خرجت من مصر إلى المنفى ، لتفاديا للحملة الثانية حيث تم التعذيب الجماعى واعدام ١١ شهيدا ، هذا ، وقد وجهنى أستاذنا عبد الرحمن بدوى إلى إدراك الدور المركزى لـ «مارتن هايدجر» Heidegger فى الفلسفة المعاصرة ، ومعه كوكبة من الفلاسفة الألمان، بدأت أقرأ لهم ، وخاصة «ما هى الميتافيزيقيا» لـ «هايدجر» ، بدأت أتساءل وأتابع القراءة فى الترجمات الفرنسية والانجليزية حتى أدركت جوهر الرسالة التى كنت أستشعرها فى كتاب «طرق تؤدى إلى لا مكان» : «أن العقل هو أعدى أعداء الفكر» أى : أن الفكر فى حاجة إلى سلوك عدة مناهج ومسالك ، ومنها مستوى العقل ، التحليل ، التركيب ؛ وكذا مستوى العيان الوجدانى ، والإيمان ، ثم منهج واقعية الانجاز العلمى . مازال أستاذنا الجليل يعمل يوما بعد يوم فى باريس بعد الكويت ، ينتج نحو أربعة مجلدات كل عام ، ماؤلت أستمع إليه فى جلسات دافئة تجمع بيننا صباح الأحد أمام نهر «السين» حول الوجود والزمان ، ومصر ، دوما ، بداية ونهاية .

وكان لصديقنا الأستاذ «هنرى لوفيفر» الفيلسوف الماركسى الفرنسى العظيم دور كبير مواكب خاصة فى ثلاثيته «نقد الحياة

اليومية» . تعرفت على جيل كامل من الفلاسفة الوجوديين ، وخاصة «سارتر» و«دى بوفوار» وكذا أعلام فلسفة العلوم والماركسية النقدية «ديسانتى» و«جولدمان» خاصة ، أصدقاء المسيرة الفكرية .

لم أجد عند الوجوديين إلا الذاتية المتأصلة وعلان حسن النوايا ، بينما ذهب عبد الرحمن بدوي في رسالته «الزمان الوجودى» إلى الإشكالية الرئيسية فى الفلسفة ، إشكالية الزمان ، دون التمرکز على الذاتية المنفصلة . لم يتبق من هذه العشرة فى باريس مع الوجوديين «١٩٥٩ - ١٩٦٤» بمناسبة «لجنة الدفاع عن المعتقلين المصريين» إلا عبارة نيرة لـ «سيمون دى بوفوار» عن السعادة : «سعيد هو ذلك الذى يستطيع أن ينظر إلى حقيقة حياته وجها لوجه ، فيسعد بها ؛ سعيد ذلك الذى يستطيع أن يتقبلها - أى حقيقة حياته - على وجه صديقه» .

ومن الفلسفة إلى الحضارة كنت قد التقيت بكتاب عنوانه «الزمان ، النهر المنعش» عام ١٩٤٢ فى مكتبة الأجلو المصرية لكتابته «جوزيف نيدهام JOSEPH NEEDHAM» وكان ضمن الكتاب جنيهين ورائتين آنذاك عشرة جنيهات فى الشهر ، فاشتريته إذ كان هاجسى آنذاك - ومازال - قضية الزمان فى بحر الوجود . صفحات غير عادية : مزيج من التنقيب فى الاشتراكية ، فى الأديان ، فى حضارات الشرق ، فـ

العلاقة بين التحليل الفلسفى من ناحية وعلم الفيزيولوجيا والطب
 ناحية أخرى ، كتاب من سلالة فلسفة الطبيعة الانجليزية ولكن فى
 الاشتراكية وتحرك شعوب الشرق التحريرى الثورى حول محور الـ
 - مصر ، وبدأت مراسلات مع المؤلف ، حتى دعانى إلى زيارته فى
 Caiusj & gonville بجامعة «كمبريدج» وكان رئيسا للكلية آن
 كان لقاء الروح . رأيت منشغلا منذ ١٩٤١ بمشروع موسوعى جبار
 «العلم والحضارة فى الصين» ، وهو المشروع الموازى لـ «الموسوعة
 البريطانية» : فهو يؤرخ لمركز الشرق الحضارى الرئيسى ، الص
 بينما موسوعات الغرب تقدم معطيات النظرة الغربية للعالم ، كانت
 الزيارة بداية للتلمذ على رجل يحتل الآن مقام «ديرو» والموسوع
 الفرنسيين فى القرن الثامن عشر ، وقد أحيا ، ومن حوله كوكبة
 العلماء الشباب ، معنى الشرق الحضارى استنادا إلى أكبر مكتبة
 علوم الصين وحضارتها أهدتها إليه حكومة الصين الشعبية برثا،
 «شو اين لاي» ؛ وهى الآن الركن الأساسى لـ «مركز بحوث نيده
 بجامعة «كمبريدج» ، حتى وافته المنية فى نهاية ١٩٩٣ .

مفاهيم الحركة الإفريقية

كنت قد التقيت أثناء الحرب بالمفكر الجزائرى «مالك بن نبي» ، لآ
 آنذاك إلى مصر ، فقامت بينتنا أواصر الصداقة خلال لقاءات

الأسبوعية ، تعرفت خلالها على مفاهيم الحركة الإفريقية - الآسيوية وخاصة الإسلام الحضارى العصرى .

ثم جاءت موجة تجديد الفكر اللاهوتى والحضارى فى الكنيسة الكاثوليكية بفضل الرئيس الأعلى السابق لهيئة اليسوعيين «بيدرو أروبييه» P.Arrupe ، وهو الذى وجه هيئته إلى لاهوت التحرير فى أمريكا اللاتينية ابتداءً من مفهوم تداخل الثقافات أو الثقاف - incueturation لا تصارعها ، من خلال ما أسمى بـ «الحوار» ، مما دفع بابا روما الحالى إلى شن حملة ضارية ضد هيئة اليسوعيين انتهت بإصابة رئيسها آنذاك بشلل أودى به ؛ ثم تراجع نسبى لبابا روما أمام الإبداع الفكرى الرائد لأنداده .

تداخلت الدوائر ، وأصبح البعد الحضارى هو الإطار الأعم ، وكذا المحور الرئيسى لأفكارى واجتهاداتى كلها منذ ذلك الحين .

وقد تم هذا التلاقى فى المرحلة التى عاودت فيها دراسة «رسالة التوحيد» للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، المصدن الأساسى للمرجعية الدينية المصرية المتحضرة فى العصر الحديث .

عشقى للفن

وخلال هذه الرحلة كنت دائم الهم والهيام بالموسيقى والأدب والتصوير والنحت والجمال ، معنى مشرق للحياة وخاصة عند تراكم

المأسى والمصاعب . باب واسع يصعب انتقاء من كان له دور فى التكوين فى مجاله بمعنى الكلمة . «المعلقات» ، فى مطلع الدراسة مازالت ترن فى وجدانى ، وأحيانا فى الأحلام . التراچيديا الكلاسيكية البطولية عند «كورنى» Corneille ، «شيكسبير» ، التراچيديا والكوميديا والمسرحيات التاريخية ، بل وربما الشعر الرومانسى المرفه فى المقام الأول . كان لكاتب روسيا المحورى «تشيكوف» أبلغ الأثر عليّ فى مرحلة الثورة ، بوصفه كاتب تساؤل جماهير الشعب المغيبة فى روسيا أمام الغد القريب وإن كان غير محدد المعالم . وقد حاولت أن أنقل أفكاره ، فى إحدى المسرحيات الإذاعية الإحدى عشرة التى أذيعت فى البرنامج الثانى ، بفضل الزميلين «محمود مرسى» و«صلاح عز الدين» فى ١٩٥٧ - ١٩٥٨ . لم أتأثر كثيرا بالرواية الواقعية الأوربية ، ثم استوقفتنى الرواى الفرنسى العظيم «مارتان بوجار» MARTIN DU GAR فى المجلدات الـ ١٤ لرواية «أسرة تيبو» التى غاصت فى أعماق حوار الأصالة والنفاق فى البورجوازية الفرنسية والأوربية عبر حروب القرن العشرين .

كانت للموسيقى مكانة خاصة ، لا يقل سماعها عن ساعتين كل يوم ، إلا إذا تعذر الحصول على هذه المدة . تبهرت فى الاستماع إلى البناء الرئيسى للموسيقى الكلاسيكية الغربية . وكذا الموشحات

وموسيقى يابان القديم ، وإيران وتركيا والموسيقى الدينية ، وذهبت إلى مئات من حفلات الأداء السيمفونية ، ثم الأوبرا «خاصة منذ ١٩٦٨». الاسماء تتزاحم ولعل قمة من تأثرت بهم «ريتشارد فاغنر» WAGNER ، قمة موسيقى ألمانيا وأوروبا الرومانسية والفلسفية ؛ ومنه أدركت معنى إحياء التراث القومى - الثقافى العميق للأمة مع صراعات العصر .

أذكر بعميق التأثر الشاعر الروائى فيلسوف علم الجمال الفرنسى العظيم «لويس أراجون Aragon» سعدت بمواكبته بين ١٩٦١ - ١٩٧٣ ، كان حقيقة أميراً لشعراء هذا القرن ، أميراً فى مقامه وقامته ، شديد التعلق بالحضارة العربية الأندلسية وكذا بمكانة الحزب الشيوعى الفرنسى فى المقاومة وتحرير بلاده ، علمنا أنه «لا يوجد شيء مؤكد للإنسان ، لا قوته ، ولا ضعفه ، ولا قلبه ، ليس ثمة حب سعيد» وكذا أنه على الإنسان «أن يظل ملكاً لآلامه» - الإيجابية المساوية على حد تعبير الكاتب المسرحى السوفىيى المعاصر «فيشنيفسكى» . كنا معا فى باريس دوما حول صديقى الأعز أثناء سنوات المنفى «١٩٧٣ - ١٩٥٩» ، الفنان والكاتب التركى العظيم «عابدين دينو Abidine» ، آخر سلالة أسرة «عابدين» (الذى جاء ضابطاً شاباً برتبة اليوزباشى مع قائده الشاب «محمد على» لحماية مصر من الفرنجة عام ١٨٠١ ، ومن ثم

أطلق اسم عابدين على ما أصبح فيما بعد قصر الوالى ثم الملك فى القاهرة) . كان مرسوم عابدين فى باريس ، حتى رحيله منذ أشهر ، يدا فى يد مع دارنا فى الحى الثالث عشر «بيت المصريين» ، ملتقى رجال الفكر والقلم ، والشخصيات السياسية العالمية ، ويفضله وإلى جواره تفتحت أمامى أبواب عالم الفن وخاصة التصوير العالمى من أوسع الأبواب ، منذ تعرفت عليه بواسطة صديقتنا المشتركة «أنجى افلاطون» فى ١٩٦١ ، ثم كان بعد ذلك خروج «ناظم حكمت» من سجون تركيا ، ثم المنفى فى الاتحاد السوفىيتى وكان هو وعابدين فى باريس يدا واحدة ، أنشد ذات أمسية قصيدة «بور سعيد» فعبرت عن صدى عمله العظيم فى الوجدان المصرى ؛ طالبنى أن أقدم بعض الأمثلة فأنشدت قصيدة زميل النضال الشاعر الثورى الكبيرى «كمال عبد الحليم» :

«هذه أرضى أنا وأبى مات هنا وأبى قال لنا : مزقوا أعداءنا !» .
أيام حارة ، صاغت تواكب الرومانسية والثورية فى قطاع واسع من الفكر الفلسفى والسياسى فى الشرق المعاصر .

★★★

ثم مسرح الـ «نو» No اليابانى : رحلة عبر الزمان الوجودى ، ميراث المسيرة الطويلة بوتما تركيب ختامى ، تلاقى معانى مذهب

«زمين» البوذي ، فلسفة فئة «الساموراي» المحاربين مع التساؤل
الفلسفي الإنساني العالمي الرئيسي : حول الزمان والوجود .
الرواية الصينية المعاصرة حول عميدها «لوسين LUXUN » ؛
ويوجه خاص كاتبة بعيدة عن الأضواء ، نفذت إلى أعماق قلبي «لى تيين
جين Li Tien Jien » فى ثلاثيتها «موجات فوق سطح المياه الهادئة»
ملحمة فلاحه فانتة عبر ثورة الـ «تايبينج Taiping» تحاصرهما الخناجر
وهيام الحساد ، ومن حولها تتدرج ملحمة شعب الصين بين ١٨٨٠ ،
١٩٢١ .

تتزامن أسماء الذين صاغوا الوجدان : «السيد درويش» و«أم
كلثوم» ؛ «عبد الرحمن الشرقاوي» . «عبد الرحمن الخميسي» ، «يوسف
إدريس» ، «صلاح عبد الصبور» ثم السينما المصرية والعالمية (وقد كنت
ناقدا سينمائيا لمجلة «الإذاعة» بين ١٩٥٦ - ١٩٥٨ ، تلبية لدعوة
الأستاذ حلمى سلام) .

وهنا تبين أن كل ثقافة أو أمة محددة يعبر عنها عدد نادر من
الأفلام بل وأحيانا فيلم واحد ، وكأته مفتاح لفهم خصوصيتها :
«الساموراي السبع» ثم «كاجيموشا» الياباني «أكيدو كورنزاوا» ؛
«السورجوم الأحمر» صداً للصين ؛ «أولاد القردوس» لـ «كارنيه»
الفرنسي ؛ «سينسو» الإيطالي «فيسكونتى» ؛ «الكسندر روبييوف»
لروسى «تاركوفسكى» ؛ «باتر بنشالي» للهندي «ستيا جيت راي» .

وعلى أرضنا المحروسة ، وكيف لا ، اساتذة كبار المخرجين
«صلاح أبو سيف» ؛ «هنرى بركات» ، «يوسف شاهين» ، حتى قمة
«شادى عبد السلام» المتفردة «الموهي» ومن قبلها ويعدها «الفلاح
الفصيح» حتى «جيوش الشمس» ملحمة حرب أكتوبر : إيقاع الشخصية
المصرية .

● ماذا عن السياسة ، فكرا وعملا ؟

هنا أيضا زحام ، تميز من بينه عدد قليل ممن صاغوا أفكارى
وتوجهاتى ، دعاء «رمسيس الثانى» فى معركة «قادش» قبل أن يكسر
الحصار ، ويستولى على بلاد الحطيين ، دون إهانتهم ولا التنكر له ،
رائدا للامبراطورية الفرعونية الكبرى . «أنطونيو جرامشى»
GRAMSCI ، الذى طور الماركسية إلى مفهوم الجبهة باستعمال أفكار
«المنطق العضوى» وكذا «الحزب بوصفه العقل الجماعى للشعب والأمة»
- وقد أهديت له أول مجلد من عملى النظرى «الجدلية الاجتماعية» -
ومن بعده «بيرلنجوير» الذى فتح الطريق أمام «المهادنة التاريخية» بين
الشيوعية والكاثوليكية فى إيطاليا ، وخلال ، وعبر هذا التكوين كله أذكر
«ماو تسي تونج» تعلمت ، تعلمنا منه . «أن التناقض جوهر الوجود» ،
أن الجبهة الوطنية المتحدة تلو على أى اعتبار حزبى ضيق ، أن الخط

الجماهيرى العام والمسيرة الطويلة ، دون سيادة التكتيك وانتهاز الفرص هو التوجه الوحيد الجدير بصياغة العالم الجديد. أن الفلسفة هي المحور الرئيسى لتحريك السياسة ؛ وأن السياسة تنطلق من الكفاح المسلح التحريرى ؛ أن الشعر والجمال والحب معان ثابتة يجب الاعتزاز بها . فوق هذا وذلك أن من يسعى إلى التقدم يجب أن يتعلم كيف يناضل لكى لا ينجنى مقام أمته أولا وقبل كل شئ - جوهر خطبته التاريخية فى ميدان «تين أن مين» Tien An Men يوم ١ أكتوبر ١٩٤٩ معلنا تحرير الصين وتأسيس «جمهورية الصين الشعبية» نفس الفكر الذى تبناه «شهدى عطية الشافعى» وصحبه على أرض مصر فى موكب بدأ مع «محمد على» و «إبراهيم» ، ثم «محمد عبيد» وشهداء معركة التل الكبير ، «محمد فريد» ، و «عبد الرحمن فهمى» ، و «سعد زغلول» ، و «جمال عبد الناصر» .

انطلق «ماو تسى تونج» من تواليم أستاذه «صون تزو» SUN Tzu الذى استطاع من خلال مؤلفه «فن الحرب» (القرن الخامس قبل الميلاد) أن يهدى أمراء الصين إلى طريق وحدة الامبراطورية : «ليس أعلى مقام فى المهارة أن تقهر قوات العدو مائة مرة فى مائة معركة وإنما قمة المهارة تكمن فى : أن تقهر استراتيجية العدو» . بداية الحرب السياسية «يد المسيرة الطويلة» ..

كتاب لم يفارقتى يوما منذ طالعه عام ١٩٧٠ وقد تمت ترجمته إلى العربية فى بيروت عام ١٩٧٣ وانتشر فى الكليات العسكرية العربية وإن ظل بعيدا عن اهتمامات المثقفين المتغربين .

أعود بالذاكرة إلى «كتاب الموتى» وهو حقيقة أول من سطر مفهوم الحياة البعدية ، وهو مصدر أساسى للتوحيد فيما تلاه من ديانات الكتاب الثلاث فى دائرة مصر الحضارية . يواجه الانسان بعد وفاته ، يوم الحساب : «أيا قلبى الذى جاعنى من أمى ! أيا قلبى الذى جاعنى من أمى ! أيا قلبى الذى من مراحل عمرى المختلفة !! لا تقف ضدى شاهدا . لا تعارضنى فى ساحة المحكمة ، لا تعادنى أمام ذلك الذى يمسك بالميزان ! .. » ؛ ثم يتلو «إعلان البراءة أمام المحكمة» ، وبها قائمة كل المزلات التى يجب نبذها ، سلم قيمى كنت أسمعته أيام الطفولة ثم الشباب ، وظل يرن فى وجدانى أحاول الاقتراب منه ، رغم المزلات والأخطاء .

فإن نجح الإنسان فى الامتحان ، هكذا يمضى نص «أنى» الرئيس لـ «كتاب الموتى» يأتى إليه قول المحكمة :

«قف قلن تفنى ، لقد نوديت باسمك ، ولقد بعثت من جديد .. » .
والحق أن كل ما تم - يدا فى يد مع الاحياء والراجلين الشهداء ،

وخاصة جيل الشيوعيين المصريين الذين كانوا على متفرع اجتهاداتهم
وساما من ذهب على صدر حركتنا الوطنية المصرية - وكان ، ولا يزال
إسهاما متواضعا فى مرحلة تغيير العالم تحقيقا للرسائل الثلاث ،
بفضل السيدة الجليلة والدتى . لولاها لما حييت .
لولاها - سيدة رفيعة المقام من أرض مصر ، «ست الناس» كما
كنت أداعبها - لما أمكن أن يكون ما سوف يشاء الله أن يكون .

د. حامد عمار

بين الصدفة والمعاناة والتهدرس (مرحلة الطفولة)

فى أحضان الجبل بصخوره الرملية وترسباته الطفلية ، وفى مطلع السنة الأولى من الخماسية الثانية لهذا القرن كان مسقط رأسى بقرية سلوا فى موقع منتصف من مديرية (محافظة) أسوان. وإذا كانت المديرية بأكملها فى ذلك الزمان فى شبه عزلة عن بقية أجزاء المملكة المصرية ، محرومة ومنفى للمغضوب عليهم والضالين فى نظر الحكم ، فإن قرية سلوا كانت قمة العزلة والحرمان والنسيان . لم يكن يصلها مع القريب من القرى والبنادر إلا ركائب الحمير ، ومع البعيد من الحواضر والعاصمة سوى قطار (القشاش) الذى يقف على محطتها مرة فى اليوم ، والذى يخضع له الزمن ليقف على كافة المحطات الأخرى ، والحسرة تملأ صدور (السلواوية) لأن (المفتخر) السريع لا يأبه لمحطتهم فى غدوه ورواحه .

وفيما وراء شريط سكة الحديد تمتد حقول المزارع بطينها الخصب حتى شاطئ البحر (النيل) الشرقى ، والذي تخنقه دون هواده جبال الصحراء الغربية ومن ثم ضاقت الرقعة الخصيبة مصدر الرزق وقوت العيال ، والنيل بتبرعه ومساقيه كان منبع الرى للطين والبشر ، ولم تقتصر خصوبته على ما كان يمنح الأرض من بشائر الخير بفيضانه ومائه ، وإنما كان فوق ذلك - كما كان منذ أيام الفراعنة - ملاذا للخصوبة الزوجية يقصده (العrsان) ليلة الزفاف أو كلما تأخرت بشائر الحمل ، ومع ذلك فقد كان النيل مثيرا للمتاعب المترتبة على نقل مياه الشرب مملوءة فى الجرار الفخارية (البلايص) على ظهور الحمير أو الجمال لمسافة تتجاوز أربعة كيلو مترات . وكانت مشقة الصبايا أشد فى ورود الماء حين تحمل الواحدة منهن البلاص على رأسها فى تلك المسافة . بيد أن تلك الرحلة والتي قد تغدو مهمة يومية لبعضهن ، لا تخلو أحيانا من قدر من الترويح والتهوية حين يغادرن جدران البيت ، وتتم الدردشة وتبادل الأخبار والنميمة فى فضاء (الموردة) التى اصطلح طريق جلب الماء على تسميته .

نظام الفردة

وكان من بين متاعب النيل ما عرف بنظام (الفردة) والمرتبطة بصيانة الترع وشاطئ النيل من مخاطر الفيضان . فحوى هذا النظام أنه يقوم على اختيار عدد محدد من (الأنفار) لحراسة الشواطئ

وجوانب الترع والقيام بصيانتها وتعليتها حين تزمجر مياه النيل وتطغى فى موسم الصيف ، يصل التنبيه الى مقر العمدة ليرسل الى مواقع معينة ذلك العدد المحدد من قريته ليتولى تلك المهمات ، وكان على العمدة ومشايخ (الحصص) من خلال الحوار الصاخب مع رؤساء القبائل من ملاك الأليان الذين تتألف منهم القرية تعيين العدد المطلوب من كل قبيلة حسب حجمها ، وكثيرا ما كانت الأهواء تتدخل فى معايير التعيين . وكان معظم طاقم الفردة من فقراء القرية أو من ذوى الملكيات الصغيرة أو من العمال الزراعيين ، ولم يكن أمامهم من سبيل للرفض أو التمرد إذ أن مصير ذلك كان السجن أو الغرامة فى أحسن الأحوال .

وكانت (الفردة) عملا يقوم على السخرة دون أجر . وكانت أيام اختيارها والانتظام فى القيام بها من المواسم الكثيرة فى القرية . وكنت فى طفولتى وحتى بدايات مرحلة تعليمى الثانوى معاشيا لأحداثها مستشعرا أحاسيس غامضة نحو قسوتها وما يتخللها من مظالم وجبروت . ولا أنسى أنه عندما كان استاذ التاريخ يشرح لنا كيف تم حفر قناة السويس عن طريق سخرة العمل من فلاحى مصر ، وكيف تعرضوا لقسوة العمل حتى الموت ، انطلق لسانى مقاطعا (هذا يا أستاذ ما كان يحدث فى نظام الفردة فى قريتنا) واستحسن الاستاذ تلك الملاحظة وأثنى عليها .

ولعل لا أكون مبالغا ان قلت ان معايشة نظام الفردة كان له اثر عميق رسخته المعرفة وأنضجه الوعى فيما بعد بقيمة العدل فى حياة البشر . ولعل تشجيع الاستاذ قد ألقى بذرة من البذور الأولى فى العلاقة بين المقروء والخطاب النظرى من ناحية وبين معطيات الواقع ، فضلا عن ضرورة التنظير المباشر من مفردات الواقع وحركته مما أحرص على اصطناعه كمنهج من أهم مناهج التفكير والتفسير والتفعيل .

وأعود لاستكمال أهم الملامح المميزة لقرية سلوا التى عايشتها وتأثرت بها خلال ايام الطفولة والشباب . لم يتجاوز عدد سكان القرية فى أوائل العشرينيات ثلاثة آلاف ، وقد تنامى العدد حاليا حيث يقدر بحوالى عشرين ألفا ، وكان يحيط بها مجموعة من النجوع مرتبطة بها اداريا لوجود (نقطة البوليس) فى سلوا . والعمل الرئيسى الذى كان يقوم به حوالى ٩٩ فى المائة من السكان كان الزراعة . باستثناء ثلاث عائلات تعمل فى التجارة من بقالة وأقمشة . والمكليات الزراعية صغيرة للغاية ، حجمها فدان فى المتوسط ، وما بين طرفى خمسة أفدنة وبضعة قراريط للعائلة التى يبلغ عدد أفرادها ستة فى المتوسط . كذلك كان يهاجر بعض الافراد للعمل فى القاهرة والاسكندرية ، وأطلق عليهم (مصراوية) للاشتغال فى أعمال الحراسة أو الخدمة فى المنازل أو المقاهى .

سلوا تعتمد على نفسها

والقرية فى جملتها كانت تمثل نمطا من أنماط ما يعرف بالاكثفاء الذاتى واقتصاد الكفاف ، تأكل مما تزرع من خبز الذرة الرفيعة والشعير ولم تكن تعرف من غموس الخضراوات إلا الملوخية والويكة (البامية) والقرطم مع اللبن والمِش . أما خبز القمح فهو فى المناسبات وللضيوف مع لحم الدجاج أو الحمام الذى يربى فى البيوت . كذلك لا يعرف أكل اللحم الضانى إلا يوم السبت الذى ينعقد فيه السوق والذى يأتى اليه الجزارون من المدينة كما يفد اليه تجار الأقمشة ، ويتم فيه بيع المواشى والدواجن ويسعد فيه بعض الاطفال بشراء الفول السودانى والحمص والحلوى . وكانت القرية تستخدم الزيت مما يتم عصره من زيت السمسم والخس فى معصرة العمدة . وكانت تنسج اغطيتهها وزعابيطةها (لباس الرجال الشتوى) وملاءات النساء من صوف غنمها لدى نساج القرية . ولم تكن تستورد من السلع الا الشاى وقمع السكر والسجائر والصابون والجاز وأقمشة المحلة الكبرى، وكلها من الانتاج الوطنى . وكان الشراء يتم أحيانا بالمقايضة عن طريق الشراء بالحبوب أو البيض أو الدواجن . وبناء المساكن من أحجار الجبال وطين الارض ، وسقوفها من جذوع النخيل وجريده ، وكذلك الاسرّة من خشب النخيل والاشجار وليفها ، ومخازن الغلال من الطين وكذلك الصحنون

والمواجير ، والخلاصة ان ثقافة القرية المادية وسلعها المحدودة كانت سلعا محلية الى جانب ما يأتى من المدينة يوم السوق أو فى المتاجر ، ولم تعرف قط سلعا مستوردة من خارج مصر .

كذلك الشأن فى مجال الخدمات ، لم تعرف القرية حتى الاربعينيات الوحدة الصحية ، ولم تعرف من الدواء الا أعشاب الشيع والحرجل وحلف البهر والحجامة والبن للجروح . ولم يكن فيها من المؤسسات التعليمية الا الكتاب ، واحدا فى الناحية الشرقية وآخر فى الناحية الجنوبية ، الى جانب المدرسة الالزامية الحكومية للبنين والبنات . أما الخدمات الترويحية فكانت ألعابا تقليدية : المصارعة والكرة الشراپ وسباق الجرى والحجلة برجل واحدة . وكان الاطفال يصنعون ألعابهم من الطين يشكلون به نماذج للحمير والخيول والابقار واشكالا من البوص، كما كان البنات يصنعن الاطباق من سعف النخيل . ولقد كان يوما تاريخيا حين جاء صراف القرية ، وهو من أهالى جرجا ، بذلك الساحر الصوتى (الجرامافون) وتجمع حوله حشد غفير من الاطفال والشباب والرجال ليسمعوا غناء شجيا يصدر من تلك الآلة . ولم يكن القوم يعرفون أيا من أسماء المغنين ، وما كان يعنيهـم ذلك كثيرا حيث اكتفوا بأغانيهم المرتجلة المرددة (لما قابلنى وسلم عليّ .. سلم عليّ) وسط نقر الطبول ودق الدفوف والكفوف .

الصدمة الثقافية

لكن تلك الآلة المغنية أحدثت لدى - وأنا لم أتجاوز الخامسة من عمري - أول صدمة ثقافية . وكانت كذلك بالنسبة لمن استمعوا إليها ، وقد تردد بينهم تعقيبا عليها فيما بعد (يا أله !!! الخواجات ما غلبهم إلا الموت) ، واختزننت تلك المقولة في عقلى الباطن حتى انطلقت حين قرأ لنا استاذنا الجليل محمد شفيق غريال من تاريخ الجبرتي تعليق هذا المؤرخ عند زيارته للمعمل العلمى الذى أنشأته الحملة الفرنسية بعد مجيئها الى مصر بما يشير الى ما أصابه من صدمة ثقافية حين عبر عن ذلك بأنه رأى عجبا وشاهد أفعالا (لا قبل لامثالنا بها) على حد تعبيره . ولا بأس من الاستطراد هنا لأشير الى أن كثيرا من أساتذتنا فى كلية الآداب (جامعة الملك فؤاد الأول إذ ذاك) كانوا يحضرون معهم المراجع الاصلية أو المهمة يقرأون منها فقرات حثا لنا على الاطلاع عليها حتى لا تقتصر على كتب جامعية معينة . ولم نعرف فى تلك الأيام كتباً أو مذكرات مقررّة ، وإن وجدت فقد كانت نادرة وغير مقررّة .

كاتب القرية

والحديث عن مصادر المعرفة فى القرية يتركز حول المشافهة التى تنتقل التقاليد والأعراف والمواصفات المصطلح عليها من تراث الآباء والأجداد ، وقليلاً من أحوال المدينة وطرائقها ممن يتربون عليها أو

من ابناء (المصراوية) وهم يحكون لنا أحوال القاهرة والاسكندرية . ولم تكن القرية تعرف من الكتب الا المصحف الشريف ، وكتيبات تحوى بعض أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضاً من كتب الفقه والتوحيد ، وكانت فى حوزة عدد قليل من أهل القرية يعدون على أصابع اليدين ممن يتقنون القراءة ويحفظون القرآن . ولا عجب فقد كانت الأمية مصدراً للتمائل بين القوم كما كانت أزيائهم . ولم يكن عدد القراء فى طفولتى يتجاوز المائة بمن فيهم من يقرأون قراءة عاجزة . ولقد كان من حظى ان يكون والدى (رحمه الله وطيب مثواه) متقناً للقراءة والكتابة ، حسن الخط ، قدير التعبير حتى كان كاتب القرية المفضل فى التواصل مع (الحكام) فى تحرير الشكاوى والمطالب ، وفى اللقاءات معهم حين يفدون اليها لما .

وأذكر أنه لم تعرف القرية الصحف إلا الجريدة التى كانت يفرضها الحزب الحاكم منذ الثلاثينيات على العمدة ، لكنها أخذت فى الانتشار لدى بعض الناس منذ بداية الحرب العالمية الثانية ، وكان والدى يشتري الاهرام ، وان لم يكن بانتظام ، مما أتاح لى الاطلاع على مجريات الحرب والتحدث عنها فى مجالس الأهل ، ومنذ أن أتقنت القراءة كان والدى يشجعنى على المشاركة فى الاحتفال بليلة المولد النبوى عن طريق قراءة سيرة مولد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فى كتاب اسمه (السيرة للمناوى) .

وقد كانت تلك المشاركة فى (منصورة / دوار) العائلة مجالا لتلقى الدعوات والثناء لى من المستمعين من الأهل لما تميزت به قراءاتى من وضوح وأنا أكمل العاشرة من العمر . وذلك كان مبلغ ما توافر لدى من مصادر المعرفة فى نطاق القرية من كتب ، وحتى التحاقى بالمدرسة الثانوية لم أعرف قصص الأطفال ولا كتب الروايات أو التاريخ أو أى كتب للثقافة العامة ، باستثناء الكتب الدراسية المقررة فى المرحلة الابتدائية . لقد كان مناخ القرية الثقافى فى عزلته ويتأثير ضيق ذات اليد قائما بثقافته الدينية المحدودة ، ومعززا بمعارفه وخبراته فى الفلاحة وحكاياته المتوارثة.

ذلكم هو السياق الثقافى الريفى الذى عايشته وتشكلت بأنماطه وصيغه ومدخلاته قبل أن تشاء الصدف أن أذهب الى المدينة ، لقد كان لانعدام المعرفة بقواعد الصحة وأسوء التغذية أن رافقتنى النحافة والتباين الواضح بين الطول والوزن حسب المعايير والمقننات الطبية حتى اليوم . وقد حذرنى من ذلك الطبيب السياسى عضو الحزب الوطنى القديم الدكتور محجوب ثابت اثناء الكشف الطبى لدخول الجامعة وأوصانى بأن أشرب فنجانا من السمن البلدى كل صباح !! وغلف معارفى ذلك التوجه الدينى الايمانى الذى قرأته فى تلك الكتب الصفراء التى حفظت بعض مسلماتها دون فهم حقيقى . وكانت

أحاديث القرية ومسئوليات التنشئة من وظيفة (المرسال) لقضاء الحاجات وغيرها من الواجبات المحددة هي مصادر الخبرة . وكان الأدب والطاعة واحترام الكبير والاجتهاد فى الفلاحة ورعاية الماشية أهم سمات الغلام الصالح ؛ ولذلك لم أنقطع عن المشاركة الحقيقية فى العمليات الزراعية أثناء عطلة الصيف حتى نهاية دراستى الجامعية فى مصر .

الكتاب .. البداية

وفى ذلك المحيط الريفى كان الكتاب أول مراحل التعليم والتثذيب . ومن حسن الحظ ان الكتاب الذى التحقت به فى سن الخامسة لم يبعد عن بيتنا الا بضعة أمتار . وهو لا يختلف عن النمط الشائع الذى رسمه طه حسين فى الايام . وكان شيخه الضرير يعتمد على العريف فى تنظيمه وإدارته ، يقوم بتلك المهمة تطوعا وأجره عند الله تعالى ، ويمثل هذا الكتاب الذى عرف باسم (الخلوة) صورة للاكتفاء الذاتى ، ألواح خشبية تمسح الكتابة عليه بالماء ، وتعاد بتغطية سطحه بطبقة خفيفة من الطفلة ، ويكتب عليه بقلم البوص من ساق نبات الذرة ، بحبر مصنوع فى البيت من هباب المصباح الذى تخبز عليه الفطائر مضافا اليها بذور القرض من الاشجار ، ومصرفاته رغيف ذرة أو شعير تقدم للشيخ كل يوم أو يومين حسب حالة أسرة المتعلم ، ورغيف القمح عند حفظ بعض الأجزاء من القرآن الكريم ، وأوقاته مرتبطة بمواقيت الصلوات ، والتي

لم تحكمها عقارب الساعة التي لم تكن قد عرفت بعد ، وإنما كان امتداد الظل أو انكساره هو المؤشر لتحديد الوقت.

وكان التعليم كما هو معروف مقتصرًا على حفظ القرآن الكريم وعلى تعلم الحروف تسميعًا وكتابة ، وقد تمكنت خلال السنتين في الكتاب من اكمال جزء (عم) ومن اكتساب مهارة محدودة في القراءة والكتابة . وكان العريف بين الحين والآخر يقص علينا قصصا طريفة نحفظ من خلالها بعض الآيات الكريمة . منها قصة العمدة الذي عزم أربعة من حفظة القرآن على العشاء ، وكان على صينية الأكل بطة كبيرة ، وطلب العمدة ألا يأخذ أحد نصيبه من البطة إلا بعد أن يأتى بآية قرآنية بها اسم ذلك الجزء . تعجل أولهم بقوله (بسم الله الرحمن الرحيم : فك رقية) فأخذ الرقبة ، وقال الثانى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة) فأخذ الجناح، وقال الثالث (رب اشرح لى صدرى) فأخذ الصدر ، أما الرابع فلم يفتح الله عليه بشئ ... وأشار عليه العمدة بأن ينام معه فى (المنضرة) فإذا تذكر آية فعليه أن يوقظه ويتلو الآية ليأخذ ما يناسبها . نام القوم لكن الشيخ الرابع لم يرد النوم عليه وتحرق شوقا لبقية البطة ، فقام واتهم ما تبقى ، فلما استيقظ العمدة فى الصباح عنف الشيخ على عدم التزامه بما اتفق عليه من شرط لكن الشيخ بادره (بسم الله الرحمن

الرحيم : فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون) . وأذكر كذلك قصة المرأة المتحدثة بالقرآن أى التى لا تجيب عن أى سؤال إلا بأية قرآنية كريمة ، وهى فى طريقها الى الحج ؛ ومن أمثلة تلك القصة حين تسأل : ما اسمك فتقول (بسم الله الرحمن الرحيم . وأذكر فى الكتاب مريم) وما اسم اكبر ابناك (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) هل ترغبين فى بعض الطعام (إنى نذرت للرحمن صوما) وأين تقصدين (ولله على الناس حج البيت) وكيف تعرفين الطريق (وعلامات وبالنجم هم يهتدون) وتستمر قصة المرأة المتحدثة لتجيب عن الاسئلة فى عشرين أية كنا نحفظها الى جانب ما نحفظ من ألواحنا المقررة . ومقصد استطراذى هنا هو التأكيد على دور القصة والسياق المتصل بالواقع المفهوم أو المبرر فى تخيله وقيمه بالنسبة للتعلم فى مرحلة الطفولة .

الطاعة والالتزام

وعندما بلغت السادسة جمعت بين المدرسة الالزامية صباحا والكتاب بعد الظهر . وكانت تلك المدرسة قد أنشئت فى القرية منذ ثلاث سنوات تطبيقا لقانون التعليم الالزامى الصادر عام ١٩٢٤ ، ومدتها اربع سنوات ، ولا يقود الانتهاء منها الى أى من مراحل التعليم الحديث ، وكان مدرسوها من المدن المجاورة ، معظمهم متبرم بعمله فى هذه

القرية التي تقسو الحياة فيها ، وأتذكر أن أحد المدرسين طالما أسقط علينا تدمره بالضرب والتخويف ، ولا أنسى تلك المسألة الحسابية الشفهية والتي يطلب منا حلها فى العبارة التالية (أمك سممتك (أطعمتك) بيضتين الصبح ، ثم سممتك أربع بيضات الضهر ، يبقى اتسممت كام بيضة ؟) . وإذا تأخرنا فى الاجابة عنفنا الاستاذ بقوله (بلادكم قرف) . وكان علينا أن نصمت وأن نطيع . وكأنما استوعب الاستاذ الهدف من انشاء المدارس الالزامية اذ ذاك كما تشير احدى الوثائق الرسمية وهو تعليم أهل الريف الطاعة والتزامهم بموقعهم الاجتماعى . وكأنما كان الطيب الصالح فى روايته (موسم الهجرة الى الشمال) يعكس ذلك الهدف حين أشار الى أنهم يرسلوننا الى المدارس لكى نقول لهم نعم!!

وتأتى المصادفة الخارقة حين التقى والدى (رحمه الله) بأحد المدرسين من مدينة ادفو ، وتباحثا فى شأن مستوى فى التحصيل ، فأثنى هذا المدرس (وهو غير مدرس التسمم المشار اليه) عليّ ثناء جما ، ونصح بأن أكمل تعليمى فى المدرسة الابتدائية فى بندر ادفو ، وأن سنى سوف تكون مناسبة مع بلوغى السابعة وأننى سوف أنجح فى امتحان القبول ، وتسأل الوالد عمن يرفعى هذا الغلام الصغير فى القرية . وكان الاستاذ كريما بأن تعهد بأن أقيم مع أسرة والده التى ستعتبرنى أحد أبنائها .

ولست أنذكر ما انتابني من مشاعر عندما أبلغت بهذا القرار . وكل ما أذكره أن والدي قال لي أن من يحصل على الشهادة من هذه المدرسة سوف تمنحه الحكومة لقب (أفندي) ولم تجد والدي (رحمها الله) تعبيراً عن موقفها غير ما كانت تدعو به طوال حياتي الدراسية (ربنا يبارك أقدامك ، ويوتق حزامك ويعلى مقامك).

وفي خريف عام ١٩٢٧ / ١٩٢٨ ركب القطار لأول مرة مع والدي متجها الى مدينة ادقر ، حيث نجحت في امتحان القبول ، وفي الكشف الطبي ، الذي حيرتني فيه تلك الحلقات وفتحاتها ، ولم أتأكد من المطلوب الا بعد شرح الطبيب الذي لم يدرك الفجوة الثقافية بيني وبينه . وبدأت الدراسة في مدرسة (الأفندية) وأنهيت عامي بترتيب من العشرة الأوائل . لكن تلك السنة لا أذكر منها ما تميز عن تدرسي السابق إلا قص الورق الملون أشكالاً وأنواعاً ولصقه على كراسة طويلة ، كما أذكر استخدامي للأقلام الملونة (الكرايون) في رسم الجزيرة وشبه الجزيرة والصحراء بالألوان الخضراء والزرقاء والصفراء . كذلك أذكر معاناتي في الغربة ومشقة الاعتماد على نفسي في استكمال احتياجاتي من الطعام وغسل الملابس ، وطول المسافة من حجرتي فوق السطوح الى المدرسة ذهاباً وإياباً ، وكانت العودة من القرية الى المدرسة بعد العطلة مجالا للتعبير بالدموع عن تلك المعاناة .

وشعر والدى بما أقاسى ، وبالصدفه البحة التقى بأحد مقاولى
 البناء فى القرية وتباحث معه فى شأنى ، فاقترح عليه أن أنتقل الى
 المدرسة الابتدائية فى العاصمة أسوان . ولم يكن فى مديرية أسوان
 كلها فى ذلك الوقت إلا ثلاث مدارس ابتدائية . والتحق بمدرسة أسوان
 فى السنة الثانية واستقر بى النوى فى ضيافة أحد نجارى المراكب فى
 حى شعبى اسمه الشنقرا ب على الحافة الشرقية للمدينة ، حيث تقيم فى
 الصحراء الممتدة بعده قبائل البشارية التى كانت تتردد على المدينة
 بلباسها الملفف وشعرها الأشعث ، مما كان يثير الاستغراب
 والتفكه لدى سكان الحى . وكنت تلميذا مجتهدا خلال السنوات الثلاث
 أكثر راحة وأوفر تكيفا . واستمتعت الى جانب الدراسة بالاشتراك فى
 (القسم المخصوص) وهو فريق الجمباز بالمدرسة . ومع ذلك فالبيئة
 المنزلية فقيرة فى ثقافتها الا من أحاديث (القفطة والنجارة) للسفن ،
 لا كتب غير الكتب المدرسية ، لا صحف ولا سينما (حيث لم تكن
 موجودة أصلا فى المدينة) . وكانت مغامراتى الترويحية فى الذهاب
 الى مشاهدة الخزان كما كانت (البريا) أو معبد ادفو فى السنة
 السابقة .

أفراح النجاح

بيد أن السنة الرابعة كانت مليئة بمجالات الاشباع والثقة بالنفس .

فقد حصلت ضمن المتميزين فى القسم المخصوص على (منبه) أول آلة
تكنولوجية أمثلتها . كذلك تم اختيارى لى ألقى كلمة التلاميذ فى الحفل
الختامى الذى أقامته المدرسة فى نهاية العام ، وكانت مكافأتى ساعة
جيب (ماركة تافانوس) ممثلة للآلة التكنولوجية الثانية التى امتلكتها .
ولعل والدى كان أكثر سعادة منى بما أحرزته ، وازدادت سعادتنا حين
كان ترتيبى أول المدرسة ، وهو ترتيب (١٨٠) فى القطر من حوالى (٧)
آلاف فيما أتذكر . وهكذا كنت أول تلميذ من القرية يذهب الى المدرسة
الابتدائية ويحصل على الشهادة الابتدائية ليلقب به أهل القرية (وليس
الحكومة) بلقب أفندى تميزا عن لقب (الشيخ) السائد فيها . وانهقدت
الأفراح والتهانى فى منضرة العائلة ، والكل يتساعل ماذا سيحدث بعد
ذلك لتعليم هذا الغلام ؟ .. هل سيتوقف عند هذا الحد ، أم أنه سيواصل
المرحلة الثانوية التى لا توجد لها مدرسة فى مديرية اسوان كلها ؟ ..
واذا كانت مصاريف المدرسة الابتدائية والاقامة لم تتجاوز ثلاثة جنيهات
فى الشهر ، فهل يستطيع والده أن ينفق عليه مدة خمس سنوات فى
محافظة أخرى ويتكاليف باهظة للتعليم الثانوى ؟ . على أننى لم أكن
واعيا. بتلك الأبعاد ، وكنت مستغرقا فى فرحتى بما حققت ، وبما انفتح
أمام عقلى وشخصيتى من أفاق جديدة وثقة بالنفس ودخول فى عالم
الأفندية .

بدايات النضج

لقد كنت فخوراً بأننى أول تلميذ من قرية سلوا بمديرية أسوان يخترق عزلة القرية وفقر الموارد والبيئة ليحصل على الشهادة الابتدائية وينفذ إلى مدارس الأغنياء بمصروفاتها وتكاليفها المعيشية . وهأنذا أتطلع إلى المدرسة الثانوية التى لم تكن موجودة إلا فى عواصم المحافظات بدءاً من محافظة قنا ، لكن مصروفاتها باهظة (٢٠) جنيها للخارجى ، (٤٠) جنيهاً للداخلى ، وكانت أقرب المدارس الداخلية فى سوهاج .

وكانت مصروفات المدرسة الداخلية تعادل إذ ذاك ثمن فدان من الأرض الزراعية الخصبة . وتتدخل المصادفة مرة أخرى ليصدر من وزارة المعارف - تيسيرا لطلاب أسوان ، منذ العام الفائت - قرار بأن يدفعوا ريع المصروفات فى أى مرحلة دراسية ، أى عشرة جنيهاً ، ريع فدان . وملكيثنا فدانان وأربعة قراريط وستة أسهم ، لكن قرار التضحية من الوالدين كان قد اتخذ ؛ لأن على العبد التدبير وعلى الله التيسير .

والتحقت بمدرسة الملك فؤاد الأول الثانوية بسوهاج ، ودفعنا القسط الأول كاملاً مع الرسوم (١٢) جنيهاً حتى يتم اعتماد انتمائى إلى مديرية أسوان ، والنظر فى طلب المجانية الموثق بدرجات التفوق ومعه

(شهادة الفقر) معتمدة من العمدة والمشايخ وخاتم المديرية . وتمت الموافقة على المجانية ، ورد إلى القسط المدفوع فبعثت إلى والدى بعشرة جنيهات واحتفظت بالجنيهين . وأذكر أنني اشتريت منهما كتاب «النظرات والعبرات» للمنفلوطى وأحد كتب الرحلات لمحمد ثابت وكتاب حدائق الإنشاء (لا أذكر مؤلفه) وكانت هذه الكتب الأربعة أول نواة لمكتبة خاصة وقراءة حرة . وسددت من الباقي ثمن الناموسية وأكياس المخدات والملايات وكيس الغسيل الذى كان مفروضاً أن يتحمله الطالب ، وهى أشياء حضارية لم يكن لى خبرة بها أو باستخداماتها من قبل .

التفوق .. الثقة بالنفس

وكانت هذه المدرسة بالنسبة لى واحة فيحاء ، مقارنة بما عانيته من حياة فى المدرسة الابتدائية . طعاما جيدا منتظما ، ونوما مريحا ، ومجالات متنوعة للرياضة ، وأوقات منظمة للاستذكار ، وأساتذة مصريين من أعلى المستويات ، كان من بينهم من أصبح رئيساً لجامعة عين شمس ورئيساً لتحرير مجلة الجازيت المصرية ، فضلاً عن أساتذة من بريطانيا وفرنسا . ومع هذه الراحة والنشوة كانت تتناوبنى أحيانا مشاعر النقص وسط الغالبية العظمى من الطلاب الموسرين من أبناء كبار ملاك الأطيان وكبار الموظفين والتجار . وكان زى يشى بتواضع

حالتى لكن تفوقى الدراسى كان سندا لثقتى بالنفس ولتقدير الزملاء والمدرسين . ولقد ولدت مشاعر التباين الاجتماعى قدراً من ميكانيزم الاقتحام التعويضى ، وبخاصة فى مجال الألعاب الرياضية التى كانت ممارساتها عن طريق اشتراك نقدى خاص ، وكنت أقحم نفسى إقحاماً لأشارك فى تلك الألعاب كلعبة تنس الطاولة وكرة القدم والسلة والتنس أحياناً ، وقد انتهى بى المطاف بعد سنتين إلى أن أصبحت فى الفريق الأول للمدرسة فى تنس الطاولة وفى كرة القدم والسلة وذلك دون تكلفة أو رسم اشتراك .

وكانت المجانية تمنح على أساس التفوق فى كل سنة مقرونا بشهادة تثبت استمرار حالة الفقر ، وكان ذلك شأنى خلال سنوات الدراسة . لكن تكاليف الحياة الأخرى وبخاصة الملابس والسفر ومصروف الجيب اقتضت فى السنتين الثانية والثالثة تضحية ببيع بعض ما يملك الوالد من أرض وبما لدى الوالدة من كردان الذهب . ونجحت فى السنة الثالثة بتفوق فى شهادة الكفاءة ، واخترت الشعبة الأدبية فى السنتين الرابعة والخامسة لما كان معروفاً عنها بأنها مدخل للقيادات السياسية فى ذلك الحين . وتأتى السنة الأخيرة الخامسة (١٩٣٦ - ١٩٣٧) وهى سنة التقدم لشهادة البكالوريا ، لتتفاقم الأزمة المالية فى مصر ، وتلغى المجانية من المدارس مهما كانت أوضاع الطلاب . وبدفع الوالد القسط

الأول بعد تضحية أخرى من بيع الأرض . وتأتى المصادفة مرة أخرى ليمن الله على الملك فؤاد بالشفاء إثر عملية جراحية ، فيصدر منحه بإعفاء العشرة الأوائل فى كل مرحلة تعليمية من المصروفات ، وهكذا كان فضل الله على عظيم .

جنيه واحد شهرياً

ولمصروف الجيب منذ السنة الثالثة بالمدرسة حتى نهاية تعليمى الجامعى مصادفة أخرى سعيدة . ففى صيف عام ١٩٣٣ أثناء العطلة الصيفية يزور القرية مدير المديرية . وكان ذلك حدثاً مهيباً يتطلب خطيباً يرحب بالضيف الكبير ويشكره على تشريفه لديارنا ، ووقع الاختيار على (الافندى) الوحيد من أهل القرية . وألقيت خطابى لابساً جلبابى الريفى وعمامتى الصعيدية . وتسأل المدير عن هذا الفتى الفلاح ، فقيل له إنه طالب من القرية وحاصل على شهادة الكفاءة وقد جاءت المعلومة مفاجأة للبيه المدير ، فاستوثق من العمدة عن صحة كونه من أبناء القرية ثم استدعانى ليعلن تشجيعه لى ، وليطلب من مجلس المديرية أن يمنحنى مكافأة كانت جنيهها كل شهر ، زيدت إلى جنيهين عندما التحقت بالجامعة .

وكان الجو الاجتماعى والعلمى والسياسى خصباً ومخصباً خلال سنوات الدراسة الخمس . نمت صداقات ومنافسات ، واحتدمت

مناقشات ، وعقدت مناظرات ، وأتيحت لى فرص واسعة لقراءة الصحف والمجلات مما كنت أشتريه أحيانا ، أو أستعيره من الغير أحيانا أخرى. وكانت الصحف والمجلات الحزبية وخاصة صحيفة البلاغ الوفدية والصرخة لمصر الفتاة والسياسة للأحرار الدستوريين من أكثرها انتشاراً بين الطلاب ، وأشدها إثارة للجدل واللجاجة بينهم . وقد كان من بين أهم قراءاتى الحرة الكتيبات التى كان يصدرها حزب مصر الفتاة عن الشخصيات الاسلامية والقيادات الوطنية لاهمية موضوعاتها ورخص ثمنها . ولما كانت لغة الحزب شديدة متوهجة فى مقاومة الاحتلال البريطانى وفى تشجيع الصناعة الوطنية فيما عرف بمشروع القرش وصناعة الطربوش محليا ، فقد كنت من بين المتطوعين لتوزيع طوابع القرش بالقرية خلال العطلة الصيفية ، كما حظيت باستقبال عدد من المرشحين لعضوية مجلسى النواب والشيوخ من مختلف الأحزاب والحديث معهم فى منضرتنا بالقرية . ومن خلال أحداث الحركة الوطنية والحزبية بدأت تتبلور لدى بعض الاهتمامات بالقضايا السياسية التى كانت تموج بها الساحة المصرية والمحلية فى ذلك الحين ؛ وكانت هى الأيام التى كنا نرصد فيها تشيد مصر الخالد (اسلمى يا مصر إننى الفدا) تتعالى به طبقات اصواتنا وتندفع معه قبضات أيدينا -

وأذكر للمدرسة الثانوية ومدرسيها القيام بواجبهم بكل الأمانة

والجهد فى إحكام عملية التعليم والتعلم ، وحفزنا على الجد والاجتهاد ، فلم نعرف الدروس الخصوصية على الإطلاق . وتخرج فى المدرسة عديد من أوائل الطلاب فى شهادة البكالوريا ، ولقد جاء ترتيبى السادس فى القطر فى تلك الشهادة دون أن يصيبنى قلق أو توتر رغم أن انعقاد الامتحان العام كان يتم فى مدرسة أسيوط الثانوية لعدد من مدارس الصعيد ، كذلك كان للنظام المحكم أثره فى فاعلية العملية التعليمية وكفاءتها ، فما قفز طالب فوق الأسوار ، وما تخلف عن المدرسة دون تقديم عذر مكتوب من ولى الأمر أو من طبيب ، كذلك وفرت المدرسة اهتماماً خاصاً بالمتفوقين ، فكانت تصرف لهم كتابين أو ثلاثة لقراءتها خلال العطلة الصيفية وتقديم ملخصات عنها . أذكر هنا قراعتى من خلال هذا الأسلوب كتاب : على هامش السيرة (جدا) لطف حسين ، ومازلت أحفظ بعض عباراته ذات الإيقاع الشعري (كان عبد المطلب سمح الطبع ، رضى النفس ، حلو العشرة ، عذب الحديث - وعاش تبع ما شاء الله له أن يعيش ، ومات حين قضى الله عليه بالموت) . ومن بين قراءاتى من كتب ذلك الاجراء كتاب فؤاد صروف ، «أساطين العلم الحديث» ، و«ابراهيم الكاتب» لعبد القادر المازنى ، وقصة «زينب» لمحمد حسين هيكل ، و«محمد الانسان الكامل» لجاد المولى ، و«مجنون ليلى» لشوقي ، وغيرها من الكتب التى لم تكن ذات اليد ميسورة لشرائها فى

تلك الفترة لولا اهتمام المدرسة . وكنا نرد الكتب سليمة إلى المدرسة في أوائل العام مع ما سجلناه من ملخصات لها كانت موضع مناقشة مع الأساتذة المعنيين . وأسأل : هل يمكن لمدارسنا وجامعاتنا أن تقوم بمثل هذا الإجراء البسيط ، اهتماماً بالفائقين حتى تنمو طاقاتهم إلى أقصى ما يمكن أن تبلغه ؟ .

ويبقى في الذاكرة من فترة الدراسة الثانوية حدثان مهمان كان لهما تأثير خاص .

أولهما زيارة الأستاذ على الجارم ، كبير مفتشى اللغة العربية للمدرسة ، وكانت الحصة التي جاء فيها إلى فصلنا درساً في متن اللغة حيث كنا نتعرف على المرادفات للفظ معين ، وما يرتبط به من تعبيرات نثرية أو شعرية . وكان اللفظ وقتها متصلاً بصفة مسرور ومغتبط وجذِل . وشارك الجارم في الشرح وأضاف إلى صفة جذل الواردة في الكتاب صفة جذلان ، كما ورد في قول الشاعر :

من سالم الناس يسلم من غوائلهم

وبات وهو قرير العين جذلان

وأردف قائلاً بأن الكتاب المقرر لا يحوى كل المعرفة ، وإنما هو بدايتها ، وعلينا أن نستكمل معارفنا من كتب وقراءات إضافية . أتذكر هذا الإحياء مقارناً بما يسود اليوم من الالتزام الحرفي بالمقرر تدريساً

وامتحاننا . وأليس هذا هو مضمون ما نردده من أهداف التعليم وما تسعى الوزارة حالياً إلى تأكيده من أهمية التعليم الذاتى ؟ .
والحدث الثانى كان زيارة فاروق ولى العهد وأمير الصعيد لدرستنا
وتدريب مجموعة من الطلاب على مقطوعة زجلية لإنشادها فى حضرته
مطلعها :

أيا نعسه وخبرينى يا بوى عا النور دا جاى متين
دا النور نعلط فى عينى يا أبوى وحياة سيدنا الحسين .
واحترافاً لتلك المناسبة تستمر المقطوعة :
وطبخنا مهلبيه وعطينا للجيران
فرقنا الطحينيه ، وضحك لى يا زمان
عيقولوا ديمقطانى ، ويحب الناس كثير
لقيتك بحر طامى ، يروى حاجة الفقير

وعلى أثر الاحتفال احتدم النقاش بين الطلاب حول مصداقية ذلك
الزجل ، ونوع النفاق الذى تضمنه .. ومع ابتهاجى بالمشاركة فى تلك
المناسبة الملوكية ، إلا أن النقاش قد أشعرنى بما يمكن أن يكون
من فجوة بين الخطاب الرسمى ومجريات الواقع وأحواله منذ ذلك
التاريخ .

وتنتهى المدرسة الثانوية بالحصول على شهادة البكالوريا التى أذاعت الصحف أسماء العشرة الأوائل فيها وكان لظهور اسمى من بينهم وقع عميق لدى ولدى والدي ، بل وللقرية كلها . وبدأنا على الفور نتلمس الطريق إلى جامعة الملك فؤاد الأول فى القاهرة عام ١٩٣٧ ، ويبدأ التفكير فى هموم المصروفات والنفقات ، وقد قررت الالتحاق بكلية الآداب لأن مصروفاتها عشرون جنيها تقل عن الحقوق بعشرة جنيها ، وطرقنا أبواب المجانية مع التفوق وشهادة الفقر ، ويسر الله لنا بعد سداد القسط الأول واستقرت الإقامة مع اثنين من بندر أسوان فى شقة بالجيزة ، وتطوع والد أحد الزميلين وكان من كبار تجار أسوان بدفع الإيجار الشهري للشقة ، والتحققت بقسم التاريخ بعد السنة الأولى التى كانت مقرراتها عامة لجميع الأقسام . ومنذ السنة الأولى فتح لى الأساتذة طاقات من الفكر والتفكير لاتزال تمثل رصييداً هائلاً من رأسمالى العلمى .. ويكفى أن أذكر أسماء أولئك الأساتذة الاجلاء ممن لم تكن لهم كتب مقررّة مع سعة ما أنتجوه : ابراهيم بيومى مذكور ، أبو العلا عفيفى ، سليمان حزين ، مصطفى عامر ، محمد عوض محمد ، عبد المنعم الشرقاوى ، محمد شفيق غريال ، عزيز عطية سوريال ، محمد مصطفى زيادة ، عبد الحميد العبادى ، أحمد بدوى ، سامى جبره ، باهور لبيب ، عزت عبد الكريم ، حسن ابراهيم حسن ، ابراهيم

نصحى ، سهير القلماوى ، شوقى ضيف . هذا إلى جانب ما كنا نختلسه من أوقات لسماع طه حسين وأحمد أمين ممن كانوا يدرسون طلاب الصفوف المتقدمة فى قسم اللغة العربية .

وبدأت الاستمتاع بأسلوب المحاضرة الجامعية ، وبتدوين المذكرات فى الكشاكيل . وتشاء المصادفة أن تتوثق العلاقة فى السنة الأولى مع المرحوم الاستاذ عبد المنعم الصاوى - الذى أصبح وزيراً للثقافة فيما بعد - كثيراً ما أجلس بجواره فى المحاضرات العامة فى السنة الأولى . وكان من طرائفه أن يقوم بتثمين بعض العبارات أو الألفاظ التى يقول بها الاستاذ المحاضر بين حدين من القيمة ؛ فهذه الكلمة تساوى قرشاً ، وتلك العبارة تساوى شلناً ، وكان الحوار يدور بيننا بعد المحاضرة فيما نختلف عليه من تقييم . ولقد تجاوز تقديرنا للشلن فى محاضرات الدكتور حزين ، متعه الله بالصحة وأدام عطاءه ، حيث كانت الجغرافيا العسيرة تتحول إلى أسلوب سلس يصك فيه الاستاذ الجليل مصطلحات جديدة كالحركات التكتونية والأخاديد والمداخل الجربية والبرارى وغير ذلك مما أسهم فى تعريب هذا العلم .

المكتبة والامتنياز

وفتحت المكتبة أبوابها للإطلاع على هدى ما كان يوصى به

الاساتذة ، وكان أمناء المكتبة على استعداد دائم لتقديم العون لكل طالب ، وكانوا خير مرشد للمراجع المتصلة بالمقررات أو كتابة المقالات سواء من الكتب أو دوائر المعارف ، وما كان مسموحاً بقراءته داخل المكتبة أو ما يسمح بإعارته ، وقد كانت المكتبة موئل طلاب الامتياز على وجه الخصوص ممن يحصلون على تقدير امتياز خلال سنوات الدراسة منذ السنة الثانية حتى نهاية السنة الرابعة ، فيمنحون درجة الليسانس الممتازة ، وكانوا يدرسون مقررات إضافية إلى جانب المقررات العامة . وقد أسعدنى الحظ وواتانى الجهد لأكون من بين طلبة الامتياز . وقد شاركتنى فى ذلك زميلة فاضلة هى الاستاذة الدكتورة سيدة الكاشف أستاذة التاريخ الاسلامى بجامعة عين شمس . وأذكر أن الاستاذ شفيق غريال قد أهدى كلا منا بعض الكتب تشجيعاً لاستمرارنا فى التميز ، ومن بين ما أعتز به من ذلك الإهداء كتاب الجبرتى : عجائب الآثار، الذى سجل فيه تاريخ مصر أثناء الحملة الفرنسية وعصر محمد على. وأتساءل مرة أخرى : أى تشجيع وتقدير يلقاه الطلاب الممتازون من أساتذة جامعاتنا الاثنى عشرة فى هذه الأيام ، وهل تقدم لهم مناهج اضافية تحفز طاقاتهم لمزيد من التحصيل والاستيعاب ؟ وأتساءل كذلك أليست المكتبة وتوظيفها الأمثل لكل من الطلاب والأساتذة هى نصف الثلث الأول من وظائف الجامعة ، وأعنى به وظيفة التعليم والتعلم

فضلا عن كونها عنصراً فعالاً فى وظيفتها الآخرين ، البحث العلمى
 وخدمة المجتمع وما تتضمنه من اشعاع ثقافى . وما أفقر مكتباتنا فى
 هذه الأيام ! وما أقل من يترددون عليها كذلك !

وفى الجامعة ترسخت على مدى سنواتها قيمة التواصل مع الجنس
 الآخر ، وتقدير إمكاناته وطاقاته المتكافئة مع الذكور حين ألفت ما
 لزميلتى فى قسم الامتياز من عقل راجح وشخصية واثقة معتزة وقدرة
 على المثابرة والتفوق ، وكان غيرها كثرات من المتفوقات على زملائهن
 فى أقسام أخرى . وفى الجامعة أيضا بدأ تذوق الطلبة الريفيين من
 أمثالى لطعم الفنون ، وبخاصة المسرح والموسيقى . أذكر الدكتور محمد
 مندر ، وقد أحضر الجرامافون ليسمعنا فى فترة الظهيرة اسطوانات
 لموسيقى بيتهوفن وباخ وتشايكوفسكى وموزارت ، شارحاً لنا ما بها من
 حركات وإيقاعات وهارمونى وما تستخدمه الاوركسترا من آلات . وبدأنا
 الاستماع من قبيل حب الاستطلاع ، ولم تنته تلك الجلسات حتى نكون
 لدينا إدراك لقيمة تلك الكلاسيكيات من الموسيقى وقدرة على تذوقها
 والاستمتاع بها .

ولا يفوتنى ما تذوقته من طعوم الحرية الأكاديمية خلال الفترة
 الجامعية . أناقش الدكتور حسن ابراهيم حسن فى إشارته لمرجعى
 نيكلسون ونلينو فى هامش حديثه عن عام الفيل ؛ وأنه كانت تكفيه

الاشارة إلى سيرة ابن هشام ، دون حاجة إلى مراجع أجنبية لأن ذلك الحدث أمر تعلمناه فى الكتاب ويعرفه جميع المسلمين . وبرحابة صدر يقول : معك الحق ، ولعلي أردت أن أشجعك على الاطلاع على هذين المصدرين . ويتحدث الدكتور ابراهيم نصحي عن الرخاء الذى كانت تنعم به مصر أثناء عصر البطالسة ، فأسأله : أى فئة كانت تنعم بذلك الرخاء ؟ .. ألم تكن غالبية الشعب المصرى مسخرة لخدمة الحكام البطالسة وطبقة التجار الاغريق ، أما بقية سكان مصر فقد كان شأنهم كما يقول الشاعر :

كالعيس فى البiddاء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

فيضحك بعض الطلبة فى المدرج لهذا الشعر فى محاضرة عن التاريخ اليونانى ، ويتأتى استجابة الاستاذ ثناء عليّ ، وعلى ثقافتى الأدبية التى كونت لدى هذا الوعى التاريخى الناقد .

أما زاد سلسلة اقرأ ومجلتى الرسالة والثقافة (وثنى كل منهما قرشان) فكان ثقافة جامعية أخرى . وقد بهرتنى جزالة لفظ الزيات وإيقاعاته الموسيقية ، وسلاسة طه حسين وثقافته العريضة العميقة ، ووضوح أحمد أمين ووهج صياغته وتشبيهاته ، وكذلك استمتعت بما كان يكتبه فريد أبو حديد ، واسماعيل مظهر ، وبملاحم سيد قطب ومصطفى

صديق الرافعى والعقاد . ومازلت أذكر مقالين فى الثقافة أولهما بقلم عبد الحميد العبادى يعتب على أحمد أمين تسميته لأول خلفاء بنى العباس باسم السفاح ، وبالأوثاق التاريخية يشير إلى أن ذلك اللقب إنما أطلقه الحاقدون على قيام تلك الخلافة ، ويرجو من أحمد أمين ، مذكرا (لقد كنت قاضياً زمناً ما) أن ينصف ذلك الخليفة ، ويحىء رد أحمد أمين رداً كريماً مقدراً تلك الملاحظة ووعداً باستقصاء الحقيقة فى ضوء ما أشار إليه زميله الاستاذ الجامعى المؤرخ . وتلك كانت سمات الحرية الأكاديمية بين الاساتذة والطلاب وبين الاساتذة أنفسهم . ولم ينتفخ الاساتذة استعلاء على طلابهم ، بل لم يبخلوا عليهم بما يستحقونه من ثناء مفجر لطاقتهم ، وأذكر ما قاله طه حسين فى مناقشة رسالة عبد الرحمن بدوى مثنياً على جهده (وأن ما أحدثته فى عالم الفلسفة مناظر لما أحدثه كوبرنيكس فى عالم الفلك) .

بيد أن كل هذه الأجواء العلمية والاجتماعية والقيمية ، لم تحل شواغلها وأنشطتها عن المشاركة فى صخب الحياة السياسية وتموجاتها . وكانت القضية الوطنية متمحورة حول إجلاء القوات البريطانية عن مصر ، ويمثلها شعار (الاستقلال التام أو الموت الزؤام) وكانت كليتا الآداب والحقوق ومدرجاتهما ساحات للحوار السياسى عامة والمعارك الحزبية خاصة ، كما قدمت الآداب شهيدىها مرسى والجراحى . واحتدمت المظاهرات فى الحرم الجامعى وخارجه . ولقد

أثرى ثقافتى السياسية ما عايشته من خبرة مع معظم الأحزاب والجماعات السياسية فى فترة الجامعة ، خصوصاً بعد أن تلاطمت أمواجه مع قيام الحرب العالمية الثانية . ومع انتهاء المرحلة الجامعية يقودنا الطريق إلى معهد التربية للمعلمين ، ضماناً للتوظيف ، فإذا بنا نصل إلى آفاق معرفية جديدة وإلى عمالقة من الأساتذة فى علوم التربية وعلم النفس ، ويفضلهم استقرت تلك العلوم وأصبحت لها قيمتها فى الدوائر العلمية الجامعية فيما بعد ، حين تحول المعهد إلى كلية ثم كليات للتربية فى الجامعات المصرية . وعلى يدى الاساتذة اسماعيل القبانى والدكتور عبد العزيز القوصى ومحمد فؤاد جلال انكشفت أمامى ساحات جديدة للمعرفة والتنظير والتطبيق والهوايات .

وقد أتاح لى عملى بالمدرسة النموذجية بحدائق القبة أن أسجل لدراسة الماجستير فى التاريخ مع الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وكان موضوع الرسالة (علاقة مصر المملوكية بالدول الافريقية) وانتهت منها عام ١٩٤٥ ، وغصت خلالها فى كتابات المقرئى وأبو المحاسن ابن تغرى بردى والسيوطى وابن خلدون وابن اياس وابن بطوطة وغيرهم كثير . ومن المراجع الأجنبية جاستون فيت وكاترمير ، ويدج وهوجين وغيرهم ممن أرخوا لتلك الفترة ، وقد عدت إلى مراجعة هذه الرسالة فى أوائل هذا العام فألفتها جديرة بالنشر ، ولعلها تظهر إلى الوجود فى الأشهر القليلة القادمة . وقد اكتشفت أثناء عملى بها مخطوطة فى دار

الكتب بعنوان (التعريف بابن خلدون) ورجعت أنه كاتبها ، وهى جديرة
بالتحريرو والنشر.

ولقد تعلمت من أستاذى الدكتور زيادة قيمة الإحكام فى الكتابة
من خلال تدرييبات متكررة فى كتابة الفصل الأول ، كما علمنى التدقيق
فى الأحكام وفى تقييم المراجع ، وفى ترجيع الآراء ، وتفسير مجريات
الأحداث وترباطها ، وغير ذلك من عدة الكتابة العلمية فى التاريخ .

السفر إلى لندن

ومع هذه الرسالة انقطع عهدى بصناعة التاريخ وانتقلت إلى صناعة
التعليم وجاء ذلك فى أواخر عام ١٩٤٥ حين وضعت الحرب أوزارها ،
وخيرت بين بعثة إلى إنجلترا فى التاريخ وبعثة فى أصول التربية . وقد
تغلب الاستاذ القبانى بحجته فاخترت مجال التربية ، والتحققت بجامعة
لندن حيث أتممت رسالة الماجستير فى موضوع (عدم تكافؤ الفرص
التعليمية فى مصر) عام ١٩٤٩ ، ورسالة الدكتوراه فى اجتماعيات
التربية عن (التنشئة الاجتماعية فى قرية سلوا) عام ١٩٥٢ . وكأنما
كانت تلك الرسالة عوداً على بدء ، أكملت من خلالها الشوط الأكبر من
تكوينى الثقافى . ونظراً لضيق المساحة ، فلن أستطيع تفصيل ما تكون
لدى من زاد ثقافى خلال تلك البعثة .

وأختتم حكايتى بأن التكوين الثقافى للمرء متصل معه وبه من المهد

إلى اللحد كما يقولون ، وإن كانت للأجواء التى يعيشها خلال مراحل الطفولة والشباب أثارها العميقة ، وذلك فى إطار المناخ المجتمعى العام بتموجاته وحدوده وفرصه . ومن ثم فلم يكن مناص من أن يتأثر تكوينى بالنقلات الحضارية التى عايشتها من سلوا إلى سوهاج إلى القاهرة إلى لندن ، ومن أوائل العشرينيات إلى أوائل الخمسينيات ، وأن تتفاعل طاقاتى مع عوامل المصادفة المحضة ومعاناة الاستجابة الملائمة للمواقف ، والإفادة من فرص التمدرس فى مختلف المؤسسات التعليمية .. وبحمد الله تسير القافلة وتتجدد الاستجابات لأمواج الحياة بكل ما فى بحارها من مد جزر ..

صلاح أبو سيف

سر عبادتى موسيقى البشر

ولدت فى حى شعبى ، هو حى بولاق أبو العلا ، ولهذا الحى عاداته وتقاليده ، وأجوائه الخاصة ، بحيث تشعر أن أهل الحى يشكلون عائلة واحدة يحرص بعضهم على بعض ، ويتكاتفون معا فى مختلف المناسبات .

علمنى هذا قيما أخلاقية مازلت أحملها فى داخلى حتى الآن ، منها التلطف على مساعدة الآخرين ، وأن نعطيهم ونقرضهم دون أن نطلب منهم وثائق مالية ، بل تكفى كلمة شرف واحدة .

ولدت عام ١٩١٥ ، أى بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى ، وإبان قمة الاحتلال البريطانى لمصر ، مما مكنتنى أن أرى أشياء لا يمكن نسيانها ، حيث كان جنود الاحتلال يمرون فى حوارينا فوق جيادهم ، أو بداخل سياراتهم ، فكنا إما أن نهرب منهم خوفا ، أو نتتبع تحركاتهم فى دهشة.

وما لا أنساه عن هذه الفترة ، أن الإنجليز كانوا يعلقون قوانينهم وأوامرهم الجديدة على ملصقات ، فكان أهالى الحى يسرعون بتمزيقها ، مما أدى بالإنجليز إلى أن يخصصوا جنديا منهم لحماية الملصق ، وذات يوم اقترب أحد الأهالى بهدف قراءة الملصق ، فضربه الجندي البريطانى بالسونكى فى معدته ، ورأيت بنفسى ، فى تلك السن الصغيرة ، معدة تخرج من البطن .

ومن الرجال الذين لا أنساهم ، كان خالى عبد الرحمن فهمى ، وهو غير السياسى المعروف ، والذي كان يعمل ناظر مدرسة ، ويهتم بالسياسة ، فقد هاجمت الشرطة المصرية ، تحت لواء البريطانيين ، منزلنا فرأيت زوجة خالى تضع منشورات زوجها فى «مشنة» العيش ، وعندما جاءت الشرطة للتفتيش ، وجدت عيني تنظر بتركيز إلى «المشنة» وكان هذا منظرا سينمائيا تكرر فى بعض أفلامى مثل «لا وقت للحب» ورغم أن الشرطة لم تعثر على المنشورات ، فإنهم اصطحبوا خالى معهم .

فى عام ١٩٢٥ ، غير إسماعيل صدقى نظام التعليم فى مصر ، بأن زاد سنوات الدراسة الابتدائية إلى خمس سنوات ، ولذا فإن إدارة المدرسة جعلتنا ندرس عامين دراسيين ، فدرست السنتين الرابعة والخامسة فى سنة واحدة ، مثلاً «رابعة» فى الصباح و«خامسة» فى

المساء ، وذات يوم قررت عدم الذهاب الى المدرسة المسائية ، وكان أمامى وقت فراغ ، فقممت بدورة فى شوارع القاهرة ، ووجدت قدمي تسوقانى إلى حى عابدين فشاهدت مظاهر الحياة هناك ، ومنها سينما «إيديال» ورأيت صورا جذابة ، أنا الذى لم أكن أعرف شيئا اسمه سينما ، وبالمصادفة كان معى قرش ، هو ثمن التذكرة ، فوجدت نفسى أشتري تذكرة ، وأجلس فى أول صف ، باعتبار أن أول صف هو الأفضل كما فى المسرح .

كتب تغير مسيرة حياتنا

وجدت أن كل الجمهور يجلس فى الصفوف الخلفية، مما أعطانى إحساسا بالتفوق ، ورأيت فيلما عن : شارلى شابلى فى البنك ، وفيلما إيطاليا يقوم فيه ايلمو لينكوان بدور طرزان ، والثالث مسلسل يحمل اسم السفينة الغامضة ، تتوالى فيه الأحداث ، وينقطع فجأة عند مشهد من أجل رؤية بقية المسلسل فى الأسبوع القادم .

عدت إلى المنزل ، كى أروى روعة ما شاهدت ولأخذ أجمل علقه لحقت بجسدى فى حياتى ، وفى اليوم التالى حكيت لكل زملائى عما رأيت ، فقررنا الذهاب إلى السينما ، وتصورت أننى سوف أرى عروضاً جديدة ، وأننى سوف أكمل المسلسل ، ولكننى عرفت أن البرنامج يتغير كل أسبوع ، ولكن هذا لم يقلل من إحساسى بالمتعة التى أصابتنى فى المرة الاولى . وهكذا بدأ عصر «الفرجة الجميلة»

اكتشفنا أن هناك حفلات فى الساعة الثالثة ، مما لا يجعلنا معرضين للضرب ، وأصبحت زبونا دائما لهذه السينما ، رغم ابتعادها عن المنزل ، ثم اكتشفت أن هناك سينما الشعب فى شارع الحمام (قريبا من شارع الألفى الآن) . وكان أصل هذه السينما حماما من حمامات الخديو ، وكان الدخول بخمسة مليمات ، وتذكرة ترام ، وربما أن سبب ذلك اتفاق بين السينما وإدارة الترام على راحة الزبائن .

أبى لديه سرج من ذهب

كان التحاقى بمدرسة «الاتحاد الوطنى» ببولاق فاتحة لأن أتعرف على زملاء لى يعشقون السينما ، ولأننى لم أكن أفهم أن السينما ليست سوى ممثل ، فقد وددت أن أصبح ممثلا ، ولذا قرأت كتابا عن «كيف تكون ممثلا» باهتمام شديد ، لأصبح ممثلا ، ولكننى اكتشفت أن العنوان خادع ، وأنه يدور حول صناعة السينما ، وجذبنى فصل عن «المدير الفنى» أو المخرج، وفى بداية الفصل إشارة إلى أنك إذا دخلت الاستوديو ستجد شخصا يجلس على مقعد فى حالة تأمل ، وعليك ألا تقترب منه ، لأنه المدير الفنى (المخرج) الذى يعلم الممثلين ، وينفذ السيناريو ، إنه صانع الفيلم . وقد دفعنى هذا إلى أن أقرر أن أصبح «مخرجا» ، لأنه صانع الفيلم الرئيسى .

وبدأت أبحث عن كيف يكون المرء مخرجا ، فرحت أسأل من يكبرنى

سنا من الأقارب، وبدأت فى قراءة المجلات الفنية ، مثل «مجلة المسرح» و «الصباح» و «أبو الهول» . فى تلك الفترة كانت المدارس الثانوية تعتنى بتعليم اللغات ، فبدأت أرتاد المكتبات للبحث عن مجلات متخصصة فوجدت مجلتين مهمتين هما Picture . Picture Show Goer . وكانتا من المجلات الغالية الثمن ، لكن المكتبات كانت تقوم فيما بعد ببيعهما بسعر رخيص ، مما مكنتى من شرائهما ، وكانت المشكلة تتمثل فى اللغة التى تعتبر بمثابة باب العبور إلى هذا العالم ، ومكنتى ذلك من تحصيل معلومات عن السينما بشكل عام .

وبعد الصف الثانى الثانوى ، أحسست بأن المسألة سوف تطول ، وتبعا لظروفنا المالية والعائلية ، ورغم أن أبى كان عمدة يتمتع بثراء مالى، ولكنه كان منفصلا عن بيتنا . ورغم أنه كان لديه سرج من الذهب، وآخر من الفضة ، وتبعا لعدم رغبة أمى فى الذهاب للمعيشة فى الريف ، وكانت - رحمها الله - من أوائل المصريات اللاتى دخلن المدارس وتعلمن بها ، فى وسط هذه الضائقة المالية ، كان السؤال هو : كيف يمكن الحصول على هذه المجلات ؟ فقررت أن ألتحق بالمدرسة التجارية ، لسرعة الانتهاء من الدراسة ..

٣٥ جنيها لدراسة السينما فى الخارج

وتستمر رحلتى مع الثقافة والفن ، فالتحقت بمدرسة التجارة ، ثم بدأت فى مراسلة الصحف ، أترجم لها من المجلات الانجليزية

ما يجذبني، فنشرت مقالات باسم «صلاح الدين أبو سيف» فى مجلة «الصباح» وبقية المجلات التى كانت تظهر فى تلك الفترة .

كانت اللغات هى اهتمامى الأول فى تلك الآونة ، أما بقية المواد فلم تكن تهمنى ، وفى تلك الفترة قابلت السيد أبو النجا ، الذى كان مدرسا فساعدنى على نشر بعض أعمالى فى مجلته المدرسية ، وقد سألتى ذات يوم عن مقال سينمائى سلمته له «من أين نقلت هذا المقال؟» .. ورفض نشره ، رغم أنه كان من تأليفى .

وعقب تخرجى عملت بالصحافة الفنية فى مجلة «الرايىو والبعوكة» فضلا عن جريدة «الوادى» .. وكان كل همى هو تدبير مصاريف المعيشة، ولم تكن الصحافة مصدرا للمال ، لكن رئيس التحرير عزت المفتى ، قرر أن يدفع لى راتبا شهريا قدره ١٥٠ قرشا . مما دفعنى إلى رفض جميع الوظائف الأخرى . إلى أن أجبرتنى ظروفى أن أعمل موظفا فى المحلة الكبرى فى شركة مصر للغزل والنسيج التابعة لبنك مصر .

ولأننى موظف فى شركة فقد بدأت أتمكن من شراء مجموعة كتب ومجلات مثل مجلة المسرح .. لعبد المجيد حلمى ، وأول مجلة سينما باسم «الصور المتحركة» فضلا عن المجلات الإنجليزية ، فى الوقت نفسه دفعتنى دراستى للسينما إلى قراءة العلوم ، والأدب والفنون الأخرى ،

فضلا عن دروس الموسيقى التى تلقيتها فى عزف البيانو وقراءة النوتة الموسيقية .

كانت هناك سينما المحلة تعرض فيلمين كل أسبوع ، وقد كتبت عنهما مقالا نشرته فى جريدة « روز اليوسف » وأثار المقال ضجة ، مما أدى إلى رفض صاحب المحل دخول السينما ، فقد ذكرت أن السينما ليست شاشة بيضاء ، ولكنها شاشة سوداء .

فى تلك الفترة ، شجعنى زملائى على السفر للخارج لدراسة السينما ، وقام بعضهم بجمع مبالغ كى أتمكن من السفر ، وبالفعل جمعوا « ٣٥ جنيها » . وأثناء هذه الأحداث ، كان طلعت حرب قد تمكن من بناء استوديو مصر . واستعانوا لبناء الاستوديو ببعض المصريين ، من الذين درسوا بالخارج ، ومنهم نيازى مصطفى ، وعن طريق المصادفة ، وفى المحلة ، رأيت نيازى فى المكتب ، قادمًا من القاهرة لمقابلة مدير الشركة بشأن عمل فيلم تسجيلى عن شركات بنك مصر .

شيوخيون .. من أهل الحارة

هذه مصادفة حياتى ... اندهش نيازى مصطفى وأنا أحييه باسمه ، ورحت أحدثه عن السينمائيين العالميين ، وعن مصطلحات السينما ، ولذا راح يطلبنى كى أساعده فى عمل فيلم تسجيلى عن شركة المحلة ، وبعد عودته إلى القاهرة ، أرسل خطابا إلى الشركة ليطالبنى للعمل معه فى

استوديو مصر ، لكن مدير الشركة رفض حرصا على مصلحتي . ولكنه بعد إلحاح مني ، وافق على نقلى إلى استوديو مصر .

كان أول ما فعلته هو أن أعدت لهم مبلغ الـ ٣٥ جنيها ، وفى استوديو مصر ، بدأت حياتى العملية ، كان نيازى مصطفى هو رئيس قسم المونتاج ، وكنا كثيرا ما نتحدث فى شئون السينما ، وتقنياتها ، وقد أدى هذا إلى إحداث وقية عن طريق الزملاء . فلم تسر الأمور حسب ما كنت أتمنى ، رغم إعجابى الشديد بنيازى مصطفى .

فى تلك الفترة ، كان الألمان هم الذين يتولون إدارة استوديو مصر وكان هناك مصريون تابعون للألمان ، يفكرون على طريقتهم ، واكننا شكلنا مجموعة ضد الأفكار النازية ، فأطلقوا علينا لفظ «شيوعيون» ..

أنا وكامل التلمسانى وعلى عابد ، وعندما بدأنا فى العمل اتهمونا أننا نظريون ، وإن نستطيع تكلمة الفيلم ، لأن علاقتنا بالسينما نظرية ، ورفض الفنيون الألمان مساعدتنا ، مما دفعنا إلى الاستعانة بعناصر أقل أهمية .

حاسة للخوف من القنابل

ونجح فيلم «العزيمة» .. استطاع أن يصنع فى السينما المصرية تاريخا . وبينما كنت فى انتظار العرض جاعتنى فرصة للسفر إلى فرنسا فى بعثة لدراسة السينما ، وللأسف لم تكن هناك معاهد سينما

إلا فى موسكو ، أما فى فرنسا ، فكانت الدراسة العملية بعيدة عن المعاهد ، وعندما سافرت إلى باريس ، كان اللقاء المنتظر بين بولاقى ومدينة ضخمة ، مختلفة فى أخلاقياتها ، وثقافتها ، وعندما وصلت إلى مارسيليا ، وبينما أنتظر القطار دخلت إحدى دور السينما ، ورأيت كيف يكون العرض المستمر لأول مرة ، ورأيت حولى ، على المقاعد ، مشاهد لم ألفها من قبل ، وتصورت أننى دخلت المكان خطأ ، فقد كان كل من حولى مشغولين بممارسة الحب المكشوف وسرعان ما أدركت أننى لست فى مصر .

وفى باريس ذهبت إلى استوديو «كلير» الذى يعتبر من أهم استوديوهات العالم ، وبدأت فى دراسة المونتاج ، وهناك شعرت بالوحدة الشديدة ، فكل العاملين معى كانوا من الجنس الآخر . مما دفعنى للالتحاق بقسم آخر ، هو الإخراج ، وقابلت مخرجا تعامل معى باعتبارى أفريقيا من المستعمرات ، وظل على هذا الحال إلى أن قام بتصوير مشهد فى أحد أفلامه يدور فى أحد المقاهى ، وأحسست بأن هناك شيئا غير صحيح فى المشهد وأخبرته أن الممثلة التى تتنكر فى زى رجل قد تصرفت كامرأة ، وليس كرجل ، مما جعله يعيد إخراج المشهد . وكان هذا بداية لأن أكون قريبا منه .

فى تلك الفترة كانت سينما دورسليين تعرض برنامجا لمدة

أسبوعين ، بشكل تجريبي ، كأن تعرض أفلاما من ثقافات مختلفة ، لمخرجين قرأت عنهم ولم أتمكن من رؤيتها بعد ، مثل فيلم « المدرعة بولمكين » . فقد تمكنت من رؤية المشهد الشهير الذي يدور في سلم الأودسا ، وكانت هذه السينما بمثابة أحسن مدرسة لي للتعرف على السينما الحقيقية ، فقد كنت أنون ملحوظات على الأفلام ، وخاصة المونتاج ، وما إلى ذلك . وقد أدركت أن المونتاج هو أساس صناعة السينما .

وارتبطت بالحياة الباريسية إلى أن قرأت يوما خبرا مثيرا عن اندلاع الحرب . وأنا الذي تصور أن المفاوضات السياسية سوف تنتهي إلى السلام .

وبدأت القنابل تسقط على باريس . وكان ذلك بداية الفرع بالنسبة لي ، وبدأت أدخل المخابىء خوفا من القنابل ، وتولدت لدى حاسة الشعور بسقوط القنابل ، حيث كنت أشعر بدنو سقوط القنابل فأهرب إلى الملاجئ .

وتعلمت الحب على أصوله

بدأت شوارع باريس تخلو من الرجال ، حيث ذهبوا جميعا إلى الحرب ، وكنت أتصور أن الحرب سوف تنتهي . ولكن الوقت طال ، وعرفت أن الباخرة « النيل » قادمة من أجل جمع المصريين ، وسافرنا

بالقطار إلى مارسيليا واستغرقت الرحلة أربعة أيام . وفى القطار ، كانت هناك مجموعة من الألمان تتحدث فيما بينها بحماس . وسألنى أحدهم عن الساعة بالألماني ، فرددت عليه بالألماني ، مما جعلهم يتصورون أننى فهمت كل هذا الكلام السرى الذى كانوا يتبادلونه .. وكانت أعجوبة فعلا أن أتمكن من الهروب .

كان علينا الانتظار تسعة عشر يوما كاملة للإبحار من مارسيليا فوق ظهر الباخرة ، واحتشد فى المركب أغلب المصريين الذين كانوا فى أوربا ، ومنهم طه حسين وزوجته ، وأحمد الصاوى محمد ، وراح الحديث يجمعنا ، ما أمتعته من حديث فى أوقات الانتظار .

أصبح علىّ أن أترك ورائى أول قصة حب فى حياتى ، حيث تعرفت أنا الشاب الصغير على امرأة فى الخمسين . علمتنى كأنها معلمة كيف يكون الحب والجنس . وقد استلهمت من قصتى معها فيلمى «شباب امرأة» فيما بعد ..

وعندما وصلنا إلى الاسكندرية ، فوجئت بأن الحرب لم تقترب من بلادى .. وفى القاهرة بدأت معاودة العمل فى قسم المونتاج ، وبدأت فى عمل أفلام تسجيلية ، وأفلام قصيرة كمخرج ينتجها الاستوديو مثل فيلم «نمرة ستة» الذى قام ببطولته اسماعيل ياسين عام ١٩٤٢ . والذى يعتبر أول خبطة من خبطات جنون الفن . ووراء هذا الفيلم قصة

إعجاب، وصداقة مع أندريا فينيو المدير الفني للاستوديو ، وكنت دائما ما أعرض عليه أفكار أفلامى . وشاهد لى فيلما تسجيليا استوحيته من كتاب عن «الدوشة» فى مصر تحت عنوان «القاهرة بلد الدوشة» ، وذلك فى شكل رسوم كاريكاتورية ، هذا الكتاب لم يعجبنى وقد اعتبرته إساءة إلى مصر . فعملت فيلما تسجيليا أؤكد فيه أن هذه ليست «سيمفونية القاهرة» ، ومع الأسف هذا الفيلم احترق ، وليس له وجود .

نمرة ٦

فى تلك الفترة ، كان برنامج العرض فى بعض دور السينما مصريا كاملا ؛ فبالإضافة إلى الفيلم الطويل تعرض دور السينما الجريدة المصرية الناطقة وفيلما تسجيليا مصريا أيضا . وكانت هناك حاجة ملحة إلى فيلم جديد . وأبلغنى فينيو بالأمر ، وتولدت الفرصة وأصبح على أن أخرج «نمرة ستة» فى أيام معدودة .

فى قلبى .. جسر ووثر لو

وكان أسرع فيلم فى تلك الفترة ، وأثار هذا دهشة الأجانب والمصريين ، لكن البعض حاول وقف التجربة بدافع الغيرة ، وفى صباح يوم العرض ، فوجئت بخبر فى الجرائد بأن الرقابة رفضت الفيلم ، فأسرعت إلى مبنى الرقابة ، التى كانت تشرف عليها وزارة الداخلية ،

وهناك التقيت بالكاتب أحمد شكرى . وعرفنا أن مدير الاستوديو هو الذى وقف ضد الفيلم بحجة أن الفيلم يسىء للأطباء .

كنت فى تلك الفترة قد أصبحت رئيسا لقسم المونتاج ، وقد كان ذلك سببا فى أن أتأخر فى الإخراج لأن الإدارة رأت أنه من الصعب أن يجدوا بديلا عنى . ولكن ذلك أتاح لى فرصة اتساع الأفق سينمائيا ، باعتبار أن المونتاج هو بؤرة الفيلم ، فالمونتير هو الذى يصلح أخطاء المخرج والمصور ، لدرجة أننى وصلت فى المونتاج إلى درجة التشبع ، وقررت أن أصبح مخرجا ، وهددت بالاستقالة إلى أن التقيت مع عقيلة راتب وأنور وجدى اللذين كانا قد وقعا عقد احتكار مع الاستوديو ، وكانت عقيلة تتمنى أن تقدم قصة فيلم مستوحى من «جسر ووتر لو» وعندما شاهد حسين سعيد رئيس مجلس إدارة الاستوديو شريط الفيلم استدعانى من أجل تحويله إلى فيلم عربى .

لم يكن فى نيتى أن أبدأ عملى كمخرج بالاختباس . لكن كانت الفرصة متاحة لإخراج أول فيلم ، ولذا بدأت أكتب السيناريو بنفسى ، وحولته إلى فيلم مصرى مائة فى المائة .

وكان أول فيلم «دائما فى قلبى» الذى استبدلت فيه عماد حمدي بدلا من أنور وجدى ، وكان ذلك خطأ كبيرا ، لكن المرء كثيرا ما يتعلم من أخطائه .

د . لطيفة الزيات

تجربتي مع الكتابة

كانت الكتابة بالنسبة لى ، على تعدد مقاصدها ، فعلا من أفعال الحرية ، ووسيلة من وسائل لإعادة صياغة ذاتى ومجتمعى ، وإن تعددت فى ظل الإطار ذاته أوجه الحرية التى مارستها فى الكتابة .

وقد عنت كتاباتى السياسية ، التى تم بعضها فى إطار عملى بوصفى رئيسة للجنة الدفاع عن الثقافة القومية ، طرحى لترددى وراء ظهري ، واكتشافا على الورق ، وفى مواجهة الذات لموقفى من الأحداث ، وتحديد أدق وأعمق لهذا الموقف الذى اكتسب البلورة من خلال الكلمات . كما عنت هذه الكتابات السياسية إشهارا لموقف يتعارض والموقف السائد . ويمدى ما يتطلبه هذا الموقف من تجاوز للمخاوف والنتائج التى قد تترتب عليه ، بمدى ما أمارس

حريتي ، وأنا إذ أحدد موقفى وأشهره المرة بعد المرة ،
أتلقى التعريف ، وتتبين ملامح هويتى ، وأمارس الحرية
وأنا أتصور وجودى يتجسد صلبا خارج حدود ذاتى
الضيقة .

وفى كتاباتى النقدية يختلف الأمر ، فبحكم المنهج التحليلى الذى
انفرد بى لفترة ، ولم يعد ، ألغى ذاتيتى وأخضع نفسى مكتملة لمنطق
العمل الأدبى ، أيا كان منطقته مخالفا لمنطقى ، وحين جمعت الى جانب
تحليل النص مناهج أخرى فى بحثى عن (صورة المرأة فى القصص
والروايات العربية) تحررت ، وصوتى يظهر جنبا إلى جنب مع صوت
الآخر . ومنطقى جنبا إلى جنب مع منطق .

وعلى كل ، فعلمى فى مجال النقد الأدبى كان فى كل الحالات حرية
من حيث هو تأكيد لذاتى وإقدراتى ، ومن حيث كان وصلا واتصالا
بالآخر والآخرين . ومن حيث حاولت أن اوصل متعنى بالعمل الفنى إلى
الآخرين وتبقى متعة الوصل والاتصال متعة لممارسة حريتى فى كل ما
أكتب ، وإن اختلف هدف ما أكتب ، وأكون حرة ، فحسب ، حين أصل
وأصل وترتبط المتعة ذاتها بعملية التدريس التى ما زلت أقوم بها .

وتبقى الحرية المصاحبة لعملية الإبداع حرية فريدة . وفى كل عمل
إبداعى صدر عنى كنت أعيش بوعى حريتى وأنا أكتبه ، وأبلور بلاوعى
مفهومى للحرية فى طيات هذا العمل .

وفى الباب المفتوح ١٩٦٠ (طبعة ثانية، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٩) يرتبط مسار الفرد بمسار الوطن ارتباطاً عضوياً ويتدرج الاثنان فى كل مقبول ومفهوم فى خط صاعد من البداية الى النهاية رغم كل المنحنىات، وفى تطور اجتماعى تاريخى سواء على مستوى الوطن أو مستوى الفرد .

وتطرح الباب المفتوح العلاقة الجدية بين حرية الفرد من ناحية وحرية مجتمعه من الناحية الأخرى والشروط الضرورية لتحقيق الحرية على المستويين، وتذهب الرواية إلى أن الفرد لا يجد نفسه حقاً، ولا يجد حريته بالتالى، إلا إذا فقدما بداية فى كل أكبر وأهم منه، وهو ، فى الإطار الروائى، النضال من أجل تحرر الوطن من بقايا الاستعمار، والفرد فى هذه الرواية فى تصالح نسبى مع مجتمعه ، وحرية تنمشى مع حرية وطنه ولا تتعارض مع هذه الحرية .

وفى مجموعة «الشيخوخة وقصص أخرى» (المستقبل العربى ١٩٨٦) تعرض قصص المجموعة لصراع الذات ضد الذات بغية التوصل لتحقيق الحرية، وصراع الوعى الحق والزائف، وصراع المكتسب فى حرية ضد الموروث عن طريق التربية . وتصبح وجهة القيم والسلوكيات هى الجبهة التى يرصدها العمل القصصى . وتُصوّر معركة الإنسان من أجل الحرية فى هذه المجموعة بوصفها معركة تستطيل ما استطال عمر

الإنسان، وهو يسقط عنه المزيد من حياثل التربية والترويض ، ويتجاوز دائما وأبدا المزيد مما قدر له طبقيا ومجتمعيا إلى ما يقدره هو لذاته، والحرية الفردية فى المجموعة لا تكون أبدا حرية مبنولة ولا حرية نهائية .

وفى الرواية القصيرة «الرجل الذى عرف تهمة» (١٩٩١) (تصدر عن دار شرقيات للنشر فى أكتوبر ١٩٩٤- وقصص أخرى) ، يقف الفرد العادى الممثل للملايين الناس عاريا إزاء واقع اجتماعى قاعم، يصادر حرية الفرد بالتوقيف فى السجن ، وبالتصنت والتجسس على بيته بالصوت والصورة، وبتزوير شرائط التصنت والتجسس عن طريق المونتاج تزويرا يؤدى الى الإدانة . وتثير هذه الرواية القصيرة سؤالا كبيرا يمتد ما امتدت . هل يتأتى للفرد ، أى فرد، أن يتمتع بحرية ما حتى أدناها ، فى ظل واقع بوليسى قاهر تتعدد وسائل قمعه وآلياته القاهرة المحسوسة وغير المحسوسة ؟

وإلى أى مدى يُسأل الإنسان العادى بسليته وانطوائه على ذاته عن هذا الوضع المتفاقم الذى يطول الكل فى الواقع لا مجرد مجموعة من المشتغلين بالسياسة ؟ ...

تجربتى فى السجن !

وقد أخضعت رجلا عاديا ، ليس له فى العير ولا النغير كما يقال لجانب من تجربتى فى السجن بعد حملة ١٩٨١ ، وكان اكتشاف عملية

التسجيل التي فرضت على بيت أخى محمد عبد السلام الزيات وبيتى ، واكتشاف عملية تزوير شرائط التسجيل بهدف جمع أدلة إدانة ، بالضرورة ، اكتشافاً مؤلماً ، وهذا أقل ما يمكن أن يقال فى هذا الصدد ، ولكن يتبقى فى كل تجربة ، أياً كانت درجة إيلاها ، عنصر كوميدي يدعو إلى الفكاهة والسخرية ، وهذا هو العنصر الذى استخدمته فى كتابة « الرجل الذى عرف تهمة » محاولة لانتزاع الضحكات من موقف فاجع ، وإمكانية التعامل مع واقع قاهر وقامع .

وفى وجه أوضاع قاهرة لا تؤذن بالتغيير ، لم أعد أملك سوى النقد المر الساهر والضاحك أحياناً ، ووجدت نفسى أكتب كما لم أكتب من قبل رواية يمكن أن تدرج فى إطار الأمثلة "Parable" ، أو فى إطار الهجاء الاجتماعى "Satire" . وحين استطعت أن أعلو على تجربتى وأن أرقبها من الخارج وأنا أضحك وأضحك الآخرين منها ، امتلكت بسخريتى هذه حريتى .

وتنشغل حملة تفتيش : أوراق شخصية (دار الهلال ١٩٩٣) وهى لون غير تقليدى وأشبه بالرواى من السيرة الذاتية ، بقضية الحرية فى أكثر من اتجاه ، وتجمع فى معظمها بين محورين أساسيين يتناولان علاقة الذات بالذات وبالأخر من ناحية ، وعلاقة الذات بالموضوع أى بالواقع القاهر من ناحية أخرى ، فى ظل سعى الى الحرية يصيب أحياناً ، ويخيب أحياناً أخرى ، نتيجة لمجموعة القيم والسلوكيات الزائفة

التي نرزح تحت وطأتها ؛ نتيجة لقصورات فى شخصية يتناولها الإقدام والإحجام، الجراءة والخوف، اختيار الأصعب والاستسلام إلى الأسهل، الحقائق والأوهام عن الذات والآخرين .

وتعرض مسرحية بيع وشرا (الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٤)، لمشكلة حرية الفرد من زاوية شديدة الأهمية ، فالحرية ليست رهينة بطبيعة النظام الاجتماعى أو العامل الموضوعى فحسب ، بل هى أيضا رهينة بالفرد ويمدى القيم الاجتماعية التى تتحكم فيه، والنوازع التى تتسلط عليه . والإنسان يفقد حريته تماما إذا ما خضع لرغبة تسيطر عليه وتحيله إلى عبيد لها. والنزوع الى التملك والمال والقوة التى تصاحب المال ، والرغبة المجنونة فى الاقتناء تحيل بعض شخوص مسرحية بيع وشرا الى مجرد آلات مسلوية الارادة معدومة الحرية، وإلى عبيد لا تبقى ولا تذر ، تضحي حتى بحياة الفرد على مذبح التملك ومزيد من التملك . ومثلما تعرض بيع وشرا لغريزة تملك المال تعرض لغريزة تملك البشر، تلك الغريزة التى تحيل الناس ، المالك منهم والمملوك ، الى عبيد .

وتعرض الرواية الحالية «صاحب البيت» التى ستنتشر فى روايات الهلال اكتوبر ١٩٩٤ ، لألوان عدة من ألوان القهر المحسوسة وغير المحسوسة، التى تزل بالانسان ، وخاصة المرأة ، نتيجة لنشأته ونوع التربية التى يتلقاها فى هذه النشأة ، والترويض الذى ينزل به حتى

يتواءم مع مجتمع قاهر يرفض الاختلاف ويتطلب التواؤم ويصر على تحويل الناس إلى قطيع من الماشية تقاد فتنقاد. كما تعرض صاحب البيت للتفرقة ما بين الحب والرغبة في التملك ، وترصد العلاقة بين الجنسين القائمة على الضياع في الآخر أو الاستحواذ على الآخر كلون من ألوان العبودية وفقد الندية والفردية .

وفي حملة تفتيش : أوراق شخصية، أقول وأنا في الثامنة والخمسين، وأنا في طريقي إلى السجن ألح حريتي مكتملة في آخر الطريق وتصالحي مع الذات بعد مشوار طويل. ولم تكن هذه الحرية بالحرية المبذولة ولا بالحرية النهائية. يتأتى على الآن وقد طعنت في السن، أن أعاود بالفعل الحر والهادف ، تأكيد حريتي المرة بعد المرة، بفعل حر بعد فعل ، سواء تمثل هذا الفعل في موقف أو كلمة .

وأفقد حريتي في كل مرة أقول فيها لنفسى : طال المسار وأن لى أن أستكين .

من الباب المفتوح ١٩٦٠ الى الشيخوخة وقصص أخرى ١٩٨٦ ، تغيرت أنا ، والعالم من حولي يتغير ، كزلال لا يتوقف إلا حيناً قصيراً ليبدأ في التغير من جديد .

وفي منتصف الثمانينات وأنا أكتب الشيخوخة وقصص أخرى

(١٩٨٦) كنت كمن يقفز الى البحر معصوب العينين . وتأتى أن تكون الدائرة التى أتوجه إليها بالخطاب الروائى دائرة أضيق نتيجة للتعددية فى القيم، والتعددية فى الوجدان، وتأتى أن أعرف ، دون أن أعرف مسبقا، نوعية النعمة التى يستجيب لها المتلقى .

وفى ظل المتغيرات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى بدأت سنة ١٩٦٧ وتستمر الى اليوم، تعقدت رؤية الحقيقة ! وبدأت سبل الخلاص مسدودة الى حد الاختناق ، وضعف العامل المشترك فى القيم فتعددت سلالم القيم من شريحة الى شريحة من شرائح المجتمع، وضاعت لغة الوجدان المشترك والناس ينقسمون على أنفسهم فى جزر منعزلة تفتقر الى الحد الأدنى من الوحدة الوطنية والشعور بالانتماء . وتأتى ، وقد تعقدت رؤيتى للحقيقة وتعقد الواقع الاجتماعى من حولى ، أن يختلف أسلوب الباب المفتوح عن أسلوب الشيخوخة وقصص أخرى ، وأن أبدأ ، بداية من الأخيرة ، فى طرق باب التجريب لأجد أشكالا جديدة تمسك بالواقع الجديد .

★★★

بنيت الباب المفتوح بنيانا معماريا عضويا ضخما ، يتطور فى طبيعية وفقا لقانون الضرورة من خلال الصراع وانفراج الصراع، ويبدأ وينتهى بنقطة ذات دلالة ، ونقطة النهاية فى الرواية تسلم القارئ إلى بداية جديدة وإلى امتداد فى عمق الزمن وفى عمق التاريخ .

ورغم أنى قد وقفت عن يسار النظام قبل ثورة يوليو وبعدها ، واعترضت على الكثير وناوأت الكثير ، فإن الواقع فى مجموعه قد بدا لى - رغم كل الأخطاء والقصورات - منظما ، ومفهوما ، ومنطقيا ، ومبررا . وكنت أتمتع بهذه النظرة المستقبلية التى ترى التاريخ فى حركته وتملك تجاوز اللحظة الحاضرة ورؤية اسباب الخلاص ووسائله فى المستقبل . ومع مجموعة الشيخوخة وقصص اخرى (١٩٨٦) استحال عليّ هذا الجسد العضوى الذى يشق طريقه فى يسر وحتمية من بداية الى وسط الى نهاية ، رغم حنينى الدائب له ، وللرؤية الكلية للحقيقة التى ترتبط به . مع الشيخوخة لم تعد الاسئلة تلقى إجاباتها ، ولم تعد البصيرة قادرة على تجاوز حلقة الحاضر ، ويأتى استخدام تقنيات جديدة للتعبير عن الرؤية الجديدة .

ومزجت بين الأسلوب التسجيلى (فى هيئة يوميات أو مذكرات) وبين الحكى (فى هيئة قصة أو عمل ابداعى) وتداخلت الأزمنة والأمكنة ، وتعددت أوجه الحقيقة بدلا من أن تندرج فى وجه واحد موضوعى ، واحتبس الصوت بالحجة ونقيضها وأصبح التطلع الى التجاوز هو الهدف الاسمى: تجاوز اللحظة الآنية الى ما بعدها ، والاستمرار - رغم كل شىء وفى وجه كل شىء - وجاء الاسلوب مثقلا بأكثر من مستوى من مستويات المعنى .

وفى حملة تفتيش : أوراق شخصية ١٩٩٣ لم يواتنى الشكل
العضوى وأنا أنسج من صراع رئيسى قصة حياتى، تداخلت الأزمنة
وتضاربت وتداخلت الأنواع الأدبية وتضاربت ، وتعددت الصور للحقيقة
الواحدة ، لا تلغى واحدة منها صلاحية الأخرى .

اللقاء الضوء على الحدث

ولكتاب حملة تفتيش : أوراق شخصية ، حكاية أود أن أرويها . فى
فترة احتجاجى بسجن القناطر ١٩٨١ ، وإنر حملة تفتيش فى العنبر
الذى أقيم فيه ، كتبت قصة قصيرة بعنوان حملة تفتيش ، وهى القصة
التي ترد فى نهاية الكتاب وكخاتمة له، ويستمد منها الكتاب ، عنوانه
الرئيسى .

وفى هذه القصة تجرى عملية التفتيش على مستويين ، مستوى
مادى يشير الى حملة تفتيش واقعية تجريها ادارة السجن، ومستوى
معنوى يشير الى غوص الراوية فى أعماق ماضيها واستدعاء فترات
متباعدة من عمرها بدت عند بداية الحدث جزرا منعزلة بعضها عن
البعض ومتضاربة بعضها والبعض . والحدث الخارجى - أى حملة
التفتيش المادية - هو بالطبع الذى يستدعى الحدث الداخلى ، والتفاعل
فيما بينهما تفاعل دائم .

ومن خلال التفاعل بين المستويين المادى والمعنوى لحملة التفتيش

المزوجة البعد ، تتصالح فترات العمر التي تبدو في البداية متضاربة ومتناقضة ، وتنظم وهى تتدرج فى كل مقبول ومفهوم يجعل الراوية تشعر بعد نهاية الحدث بنوع من التحقق والتكامل . وتختتم الراوية قصة حملة تفتيش قاتلة : أستطيع الآن أن أنظم أوراقى التى رقدت مخلوطة فى مخابئها السرية. وتكون أوراق العمر قد انتظمت فعلا. والخاتمة بالطبع تستمد أهميتها فى القصة القصيرة من حيث انها تلقى الضوء على الحدث القصصى مكتملا ، الخارجى منه والداخلى على السواء ، واستخدام الفعل الماضى فى كلمة (رقدت) يشير الى متغيرات حدثت ما بين البداية والنهاية ، متغيرات أدت إلى انتظام أوراق العمر بعد انقسام، ففى بداية قصة حملة تفتيش تشير الراوية الى عجزها عن تنظيم أوراقها التى ترقد مخلوطة فى مخابئها السرية، ولكن شيئا ما فى التجربة النفسية التى تمر بها الراوية أثناء حملة التفتيش المادية قد أحدث تغييرا أكسب الراوية القدرة ، التى انعدمت فى بداية الحدث القصصى ، على تنظيم أوراقها التى تخرج ابان الحدث من اطار السرية الى اطار العلنية ولا تبقى كما كانت مخلوطة فى مخابئها السرية، بل تتدرج كما لم تتدرج من قبل فى كل مفهوم ومقبول .

وبعد خروجى من السجن قرأت هذه القصة على كل من الدكتوراة رضوى عاشور وأمينة رشيد، وكان رد الفعل مشجعا ، وأضافت رضوى

قائلة : إما أن تستكملى القصة وإما أن تشرىها على ما هى عليه ، ولم يمر عليّ قول رضوى العابر مروراً عابراً ؛ من حيث مس شعورها كنت أشعره فعلاً، وتركت القصة لسنوات دون أن أنشرها بعد أن استقر فى اعتقادى تدريجياً أنها تطالب بالاستكمال من حيث هى أقرب ما تكون الى نهاية عمل دون الخلفية والتبرير الذى يجعل هذه الإشارات إشارات دالة، والقصة تنطوى على صراع عمرى الرئيسى الذى تندرج فى إطاره الأحداث الرئيسية فى حياتى سواء الخاص منها أو العام ، كما تنطوى القصة على حل لهذا الصراع الرئيسى الذى اقتضانى على مستوى الحياة قدرة هائلة على مواجهة الذات بكل سلبياتها ونواقصها، وقدرة هائلة على التجاوز والاستمرار من خلال هذه المواجهة .

ولاحظت وأنا أعاد قراءة بعض أوراقى الشخصية أن عملية الكتابة فيها تنطوى على وحدة فنية تتجاوز بكثير وحدة الشخصية ، وأنها فى معظمها تنطوى على نفس النمط الأسلوبى الذى تنطوى عليه قصة حملة تفتيش ، أى نمط ربط الخاص بالعام وتفاعلهما معاً ، ونمط التسلسل من الحدث الخارجى الى الحدث الداخلى ، من الظاهر الى الباطن فى حملة تفتيش دائبة ومضنية للذات بغية تجاوز قصورات هذه الذات والتصالح مع حقيقتها . ورغم تنوع هذه الأوراق الشخصية واختلاف المناسبات التى كتبت فيها والأهداف التى استهدفتها لاحظت ثانياً أنها تندرج فى معظمها بطريق مباشر أو غير مباشر فى إطار صراع رئيسى فى

حياتى كنت واعية به وأنا أكتبها ، وأن هذا الصراع الرئيسى هو ذات الصراع الذى يلقى الحل فى قصة حملة تفتيش ، ويتراوح هذا الصراع بين الإقدام على الحياة والعكوف عنها ، بين الانبساط الى الخارج واحتضان الحياة بين الانطواء والتمحور على الذات، بين الإقبال والإحجام ، بين الاختيارات الشخصية الحرة ، واللوازم بالتوافق مع الآخرين .

وانفرج الوضع مع خروجى بهذه الملاحظات ، كانت شروط الرواية، تتوافر بلا وعى فى بعض الاوراق من وحدة فنية للحدث الى صراع رئيسى يتأزم وينطوى على الانفراج . ولم يتبق سوى اكتمال خط التطور الرئيسى بإضافة الجديد الذى لم يدرج من قبل ، وإعادة ترتيب الاوراق فى شكل فنى دال يقول أكثر مما تقوله جميع تفصيلاته، واستكمال عملية الكتابة والتعديل هنا وهناك ، ونقل ما هو على مستوى اللاوعى بالشكل الفنى الكامن إلى مستوى الوعى، وكان .

وقد ألزمت نفسى والتزمت بشكل أقرب ما يكون الى شكل الرواية وبصراع رئيسى ينفرج بعد سلسلة من التعقيدات ، وبالعوامل المبررة والمحركة لهذا الصراع فى أوضاع العمر المختلفة على السواء ومنها وضع النشأة ، وشكل هذا الالتزام عنصر الاختيار فيما ضمننت وفيما لم أضمن ، واستبعدت من الكتاب كل ما ليس له علاقة بمفردات هذا الصراع ومبرراته ، ويقدر ما اندرج فى هذا الصراع وأدى الى تأزمه

أو انفراجه ، ويصح هذا على فترة النشأة بمثل ما يصح على بقية فترات العمر .

ومع الشكل الروائى تمتعت بحرية أن أضمن وألا أضمن ، ولم أكن فى موضع الرصد لتفاصيل حياتى ، بل فى موضع اختيار ، لما هو دال فى الإطار العام ومحمل بالمعنى ، ولم أكن فى موضع تغطية لأحداث حياتى، بل فى موضع بلورة رؤيتى للمسار العام لهذه الحياة، ولم أكن فى موضع تسجيل ، بل فى موضع البحث عن أرضية مشتركة مع القارئ ، وفى موضع التغنى بالمعاناة الانسانية المشتركة والتجاوز الإنسانى المشترك .

لقد تغير كل شىء، وبقيت الرغبة فى بلورة رؤيتى للواقع، وبقيت الرغبة التى لا تقل إلحاحا، فى إشراك القارئ فى هذه الرؤية وإقناعه بصلاحيته ومحاولة التأثير فيه لكى يتبناها ، فإن فعل تحقق هدفى من الكتابة ، وسقطت وحدتى، أو ما أتوهم أنه اختلافى وتفردى، فأنتمى من جديد، وأشبع هذه الرغبة الملحة فى حياتى ، الرغبة فى الانتماء بكليتى ، بسرى وعلنى، بباطنى وظاهرى .

وكانت هذه هى الرغبة الأم التى حركتني دائما وأبدا، ولم تكن التقنيات ، فى أى فترة من فترات إبداعى ، مرتبطة بتجريب من أجل التجريب ، وإنما كانت التقنيات مهمة وحاسمة من حيث نجاحها أو إخفاقها فى إيصال رؤيتى للآخرين، وفى الوصل ما بينى وبين الآخرين.

الفهرس

٥	تقديم
١٠	د. شكرى محمد عياد
٢٥	طارق البشرى
٥١	ألفريد فرج
٦٣	د. مصطفى سويى
٨٧	د. عبد العظيم أنيس
١٢٩	أمينة السعيد
١٤٣	حافظ محمود
١٥٤	د. نعمات أحمد فؤاد
١٧٤	محمود أمين العالم
٢١٩	محمد سيد أحمد
٢٢٨	د. محمد رجب اليبومى
٢٤٧	د. عائشة عبد الرحمن
٢٦٥	د. سهير القلماوى

د. أنور عبد الملك ٢٧٥

د. حامد عمار ٣١٠

صلاح أبو سيف ٣٤٣

د. لطيفة الزيات ٣٥٦

رقم الايداع

٩٨ / ٢٥٥٣

I. S. B . N

977 - 07 -0576- 4

الهلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر

والعالم العربى

فبراير ١٩٩٨ عدد ممتاز تقرأ فيه :

● الرواية والحرية - جزء خاص .

المرأة - صورتها - أزيائها -

كتاباتهما .

● غياب تأثير جماعة الضغط العربية

فى أمريكا

رئيس التحرير

رئيس مجلس الإدارة

مصطفى نبيل

مكرم محمد أحمد

روايات الهلال تقدم

يوميات ضابط في الأرياف

تأليف

حمدي البطران

تصدره ١٥ فبراير ١٩٩٨

كتاب الهلال يقدم

حملة النيل تزوير أم تنوير

بقلم

د. ليلى عنان

يصدره مارس ١٩٨٨

دار الهلال تقدم

سجل الهلال المصور

٣٠٠٠ صورة فى ١٥٤٠ صفحة
تعبر أصدق تعبير عن الحياة
السياسية والاجتماعية والفنية
والأدبية فى مصر ١٠٠ عام

صدر فى جزئين

الثمن ١٠٠ جنيه

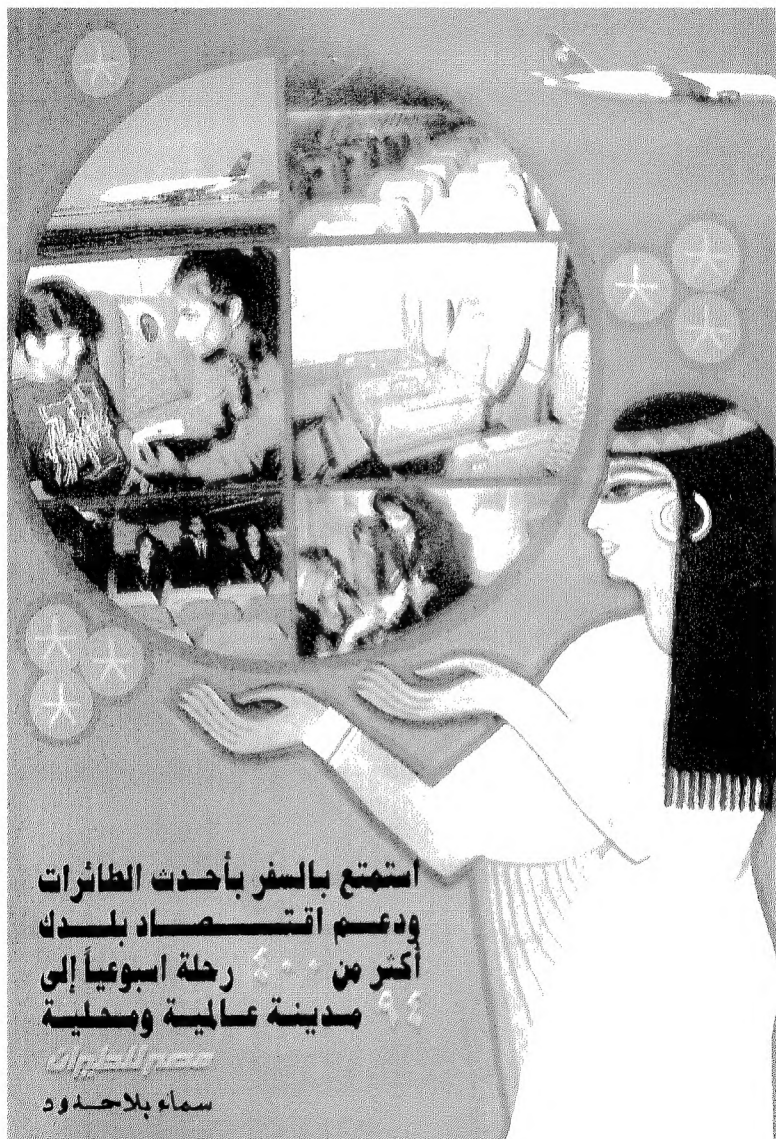
اطلبوه من مكتبات دار الهلال

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٤٥
جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا
أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد
العربية ٣٠ دولارا - امريكا واوروبا واسيا
وافريقيا ٤٠ دولارا - باقى دول العالم
٥٠ دولارا .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لآمر
مؤسسة دار الهلال ويرجى عدم ارسال
عملات نقدية بالبريد .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتّاب الهلال اتّصل بالتركيب . Hilal.V.N 92703



استمتع بالسفر بأحدث الطائرات
ودعم اقتصاد بلدك
أكثر من ٤٠٠ رحلة أسبوعياً إلى
مدينة عالمية ومحلية

مصر للطيران

سماء بلا حدود

هذا الكتاب

يتناول هذا الكتاب نخبة متنوعة من الشخصيات المتألقة فى مجتمعنا ذات الاسهام البارز فى حياتنا الفكرية .. تقدم تجربتها ورحلة حياتها الثرية من خلال الحديث عن تكوينها، فهم يستدعون الصور المتناثرة من هنا وهناك لنقترب من حياتهم ، ونتعرف على ملامح عصرهم ونشاهد كيف كان التكوين الفكرى والثقافى لكل منهم، وإلى أى المدارس ذهبت هذه النخبة، وعلى أى الاساتذة تتلمذت؟ وماهى الفنون التى شكلت ذوقها وحسها الجمالى؟ وماهى الكتب التى تأثرت بها؟ .

نضع هذه التجارب الثرية أمام الاجيال الشابة لعلها تكون هاديا لهم، وما أحوجنا أن نقرأ ونتعرف على طريق التفوق والنبوغ، طريق العمل الجاد المثمر الذى يكمل بالنجاح والتميز.. فهذه تجارب لنخبة كافحت وناضلت وتفوقت وأصبحت لها بصمات مهمة فى حياتنا الثقافية والعلمية، وهى مجموعة من الشخصيات تمثل فكر وثقافة. هذا العصر الذى نعيش فيه ولكنهم تتلمذوا وتعلموا فى مناخ يختلف عنا ، له سماته الخاصة.. شربوا من معين واحد تقريبا.. تغذوا فى الصبا بقصص تدور حول معنى المعاناة، والشموخ ومراعاة كرامة العلم وأهمية الدين .